وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الكتابة الصوفية في أدب التستاوتي
١٠٤٥ – ١١٢٧ هـ

(الحياة – الكتاب – الخطاب)

القسم الثاني :
الرسائل : الدلالة والبيان

أحمد الطريبق أحمد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

مدخل تمهيدي لدراسة الرسائل

أولا : فترة الأقلام والرماح :

١- مغرب ما بعد المنصور السعدي من خلال بعض المراسلات والحركات.

٢- الزاوية الدلائية.

٣- الحركة العياشية.

ثانيا : جيل ما بعد الفترة ورسائله :

١- محمد بن ناصر الدرعي.

٢- الحسن بن مسعود اليوسي.

٣- أبو سالم العياشي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١- إذا كان العصر السعدي، قد سجل تفوقا أدبيا، على صعيد الشعر والنثر معا، على يد الفطاحل من أدباء العصر وكتابه[١] فإن فترة ما بعد المنصور، بذاخلها وفتنها، وكوارثها، قد ساعدت عاى نشوء لون من المراسلات هو أقرب إلى دائرة الرسائل السياسية، بل إبه لا يخرج عنها في المعاني والدلالات. وهو من هذا الجانب يقترب عن خطة الكتابة في ديوان الإنشاء، الذي ازدهر على عهد الدولة السعدية. سن لنفسه أساليب تتبع وتحدي. وتنزل"الإسم" منزلة الصدر في الديباجة والإبتداء، تشريفا للجملة الإسمية على حساب الجملة الفعلية (المقام- الجلال- المثابة- الله سنحانه- الجلبل- الفقيه- الرئاسة- المنزلة- العصابة- الوزارة- الندب- الحمع- الرئيس- الجيش- المقر- الأصالة- المحل- المرابط المحل- الوزارة- الشيخ- المرتبة- المكانة) [٢] وليس غرضنا من هذه الملاحظة السريعة والعابرة هو قراءة الظاهرة بمعيار النقد والتحليل، فهذا موضوع لمن أراد تتبع النثر الفني وتطوره على عهد الدولة الشريفة والغاية من هذا كله، هو التأكيد على أن اختفاء السعديين من المسرح التاريخي، أحدث في جغرافية التاريخ المغربي زمن الفترة، إذا صح التعبير. وامتدت هذه الفترة إلى ظهور دولة الإشراف العلويين. مرورا بالعهد الذهبي لدولة الزوايا.

وإلى هذه الحالة وما صاحبها، يشير أستاذنا ابن تاويت إشارة اختصرت الفترة في بضع فقرات، من كتابه الوافي فيقول:

(.. ولكن هذه الإضطرابات خلقت أجواء من الأدب الصاخب الساخر، فكانت الرسائل الجدلية، والقصائد المثيرة، بين هؤلاء الزعماء بعضهم مع بعض أو مع أولئك الملوك- كما صارت بعض الرسائل تصدر من هؤلاء الملوك إلى الجهات والأطراف تحضر الناس على الطاعة لهم، أو تحرضهم على نزع الطاعة والولاء اخصومهم... فاتسمت هذه الإضطرابات بأن الجو الأدبي كان يصطحب بها كما كان

---

[١] يعتبر "مناهل الصفا" للفستالي كنموذج ومثال على هذا الحكم. كما أن "رسائل سعيدية" بمثابة الخلاصة البيانية للنشر، على عهد السعديين، وهناك أمثلة أخرى، ونماذج عرض لها كتاب الوافي في الباب السادس ح/٢، ص ٦٥٣- ٧٢٥.

[٢] لقد جردنا الإسم الأول من جمل الإبتداء من كتاب" رسائل سعيدية "حسب تتابع ورودها في الرسائل. وغيرها قليل ممن ابتدئ بغير ذلك. وهذه ظاهرة حتة للنظر الأسلوبي. وقد تكون ظاهرة تأثرية بالأسلوب التركي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

معروفا ذلك في شعراء الجاهلية وأوائل الإسلام..) [1] وبين أيدينا مجموعة من المصادر الأدبية والتاريخية، قد احتفظت لنا بنصوص من المراسلات التي دارت بين هذا الطرف أو ذاك: فالبدور الضاوية"للحوات ونزهة الحادي، للأفراني، وكتاب" الخبر عن ظهور الفقيه العياشي لمؤلفه عبد القاهر أبو إملاق، الخ كلها مصادر زاخرة بالمادة التي تخدم غرضنا في هذا السياق، ألا وهو الحديث عن أدب المراسلات، وهي مراسلات كما أسلفنا القول تنتظم في سلك الجدل السياسي وما أشبه. ولن يمنعها ذلك من دخول حلبة الترسل الأدبي، كما لا حظ ذلك أستاذنا في الوافي[2] وقبل أن تستوقفنا الزوايا، في هذه الفترة، وما أحدثته كذلك من لون في المراسلات الصوفية، على غرار ما وجدناه لدى المتصوفة في بلاد المشرق وبلاد الأندلس والغرب الإسلامي.. قبل هذا الأبد من نزهة ولو قصيرة في ساحات الأقلام والرماح، فالفترة هي للأقلام كما هي للرماح. وعلى نغمات هذه السنفونية هل إلى الوجود طفلنا أحمد، الذي أصبح فيما بعد: الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتي.

ولا يجب أن يفهم من هذا الإستيقاف، أننا نرمي إلى عزل الظاهرة الصوفية في هذه الفترة بالذات، عن صاحبتها ومصاحبتها السياسية، ذلك أن الحركات التي تغلغلت في الساحة بعد سقوط آخر ورقة من الشجرة السعدية، كان المحرضون فيها والمنظرون يجمعون بين السلطتين = الروحية والسياسية في أغلب الأحوال والحالات[3] وهل يمكن عزل الظاهرة عن مكوناتها؟ ونحن نعلم؟ أن نهاية الأشراف، هي بداية لعهد ظلت فيه السيادة إلى ما شاء الله للمتصوفة وأهل الطريق إلى أن قامت دولة الإشراف من جديد، على يد العلويين.

مهما يكن من أمر، فإن القيادة السياسية، خلال هذه المدة– بعد المنصور وأولاده– كانت بيد الشيوخ في غالب الأحيان. كان زمام الأمر ينفلت من أيديهم، من حين لآخر، باستثناء ما كان من أمر الزاوية الدلائية التي كادت أن تؤسس دولة لولا

---

[1] الوافي /٢ ص ٧٢٨

[2] م.ن، ص ٧٢٩

[3] للمزيد من الإطلاع والتوضيح. أنظر" الزاوية الدلائية"والحركة الفكرية" للأستاذ حجي وكتاب الأستاذ كريم عن السعديين، وكتاب الحركة العياشية لمؤلفه عبد اللطيف الشاذلي، إلى غير ذلك من الكتب والمراجع التحليلية وهي لا تغني بحال عن المصادر/ الأساس.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الرياح والعواصف التي كانت تتفاعل مع الأحداث، مما جعل ميزان القوى لا يطرد على حال ثابث هنا أو هناك. وكان أبو محلي[١] ممن تهيأوا لأخذ زمام المبادرة، بعد أن تأكد لديه. (أن أولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك، حتى خشي الناس فيما بينهم، وانتبهت الأموال وانتهكت المحارم، فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم..) [٢] ولقد تعرضنا، بإشارة خاطفة إلى مهدوية هذا الشيخ في الباب الذي خصصناه لأسباب المحنة التستاوتية، وكان الربط بين النازلتين ليس من قبل البحث عن النظائر والأشباه، يقدر ما كان الأمر يتعلق برصد المعطيات التي تتفاعل فيما بينها لخلق النزوع والتشوف إلى مراقي الزعامة، قصد تصحيح الأوضاع وتغيير المنكرات.. من هنا انطلق مهدي الموحدين، والذي يشكل، في سفر المهدوية، استثناء قوض القاعدة المرابطية.. وقلما نجح غيره في تأسيس امبراطورية موحدية، على صيحات التبشير بالمهدوية المنقذة من الضلال.

ونعود الآن إلى أبي محلي، وهو صوفي كان مريدا للشيخ محمد بن مبارك الزعري، الجد الأكبر لأحمد بن عبد القادر التستاوتي[٣] الذي أعلن ثورته، وحقق بعض الإنتصارات الشبيهة بالبرق الخلب، مما جعل زيدان يستصرخ بأبي محلي[٤] ولقد أورد اليفراني في النزهة بعض ما جرى بينهما، على صعيد الأقلام والرماح.والذي يهمنا من التقاء الجمعين، هو الكلام السياسي، التي تضمنته توقيعات الطرفين، وأن باب التوقيعات فن له ظروفه وحيثياته. [٥] يقول أبو محلي في برقيته الدالة على استعداده للنزال،(بسم الله الرحمن الرحيم، من أحمد بن عبد الله إلى يحيى بن عبد الله، بلغني أنك جندت وبندت، وفي تا نوت نزلت، أهبط للوطا لينكشف الغطا، فالذئب ختال والأسد صوال، ولا تستقيم الأيام إلا بضرب القنا، وقطع الحسام والسلام) [٦] لكن

---

[١] لقد ترجم لنفسه في كتابه" أحيلت الخبريت في قطع باعوم العفريت" ح.م ١٠٠ وانظر نشر المثاني١٠٧/١ ونزهة الحادي ص ٢٠٠، وقد اهتمت الوراجع الحديثة بهذه الشخصية كالزاوية الدلائية ص ١٣٢، والحركة الفكرية على عهد السعديينص

[٢] نزهة الحادي، ص ٢٠٦

[٣] انظر المحاضرات لليوسي ٢٦٠/١ (ط. الغرب الإسلامي) : ١٩٨٢/١٤٠٢، بيروت.

[٤] نزهة الحادي ص ٢٠٨

[٥] عن فن التوقيعات انضر العقد الفريدج/ ٤٠، ص ١٠٠ وصبح الأعشج/

[٦] نزهة الحادي ص ٢٠٨

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

جواب صاحبه كان خاليا من الإعتداد والتعاظم اللذين أظهرتهما برقية أبي محلي(بسم الله الرحمن الرحيم، من يحيى بن عبد الله إلى أحمد بن عبد الله. أما بعد، فليست الأيام لا لي ولا لك. إنما هي للملك العلام، وقد أتيتك بأهل البنادق والأضرار من شبانه، ومن انتمى إليهم من بني جرار، وأهل الشرور والبؤس من هشتوكة. فالوعد بيني وبينك" جليز" هناك ينتقم الله من الظالم، ويعز الغزيز والسلام[1] وبالمقارنة بين التوقيعين، أو اليرقيتين، ندرك بلاغة الأول، دلالة وأسلوبا. وبلاغة الثاني حرب نفس وأحكام خطة. ويشير اليفراني، في معرض التعريف بالرجل الثاني (الحاحي) إلى أن (القاضي أبا زيد السجتاني أنه وقف على تأليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيى وأبي محلي في القصائد غرض الهجاء وغيره. قال وإسم الكتاب" التجلي فيما وقع بين يحيى وأبي محلي")[2] وإذا كان الحاحي قد استجاب لنداء زيدان واستصراخه، فكان ما كان من انهزام أبي محلي وشيعته فإن الدائرة قد دارت وأحدثت تيارا من التوتر السياسي بين الأخوة الأعداء، كما في الرسالتين المتبادلتين بين يحيى بن عبد الله الحاحي القاضي على ثورة أبي محلي وشيعته، بين زيدان الذي استعاد بعضا مما فقده، من الملك والسلطان. وقد استشعر الحاحي أن زيدان قد نكث العهود، وفسخ العقود. والرسالتلن أوردهما اليفراني في نزهة الحادي. وجاء في رسالة الحاحي مايلي (.. فكتبت لي ما رأيت فيه الصلاح فأمضيته، وأنك أمنت كل من امنته، ثم بعد استقرارك في دارك كتبت لي كتابا بأنك باق على ما تعاهدنا عليه معك، وأن الأمور كلها بمعيار الشرع، فما راعني إلا وقد أخفرت في ذمة الله وأماني الذي عقدته للناس. فمن مأسور، ومقيد ومطلوب بمال، ومطرود عن بلدة آل، وأخبار أخرى ترد علينا من جهة السواحل أن الناس تباع فيها للعدو– دمره الله– ولم تر من اهتبل بذلك ممن قلد تموه أمور الثغور.. فلم ندر هل بلغك ذلك فتسقط عنا ملامة الشرع؟ لم لم يبلغك فاعلمنا الله تعالى لتطمئن قلوبنا، فإني كاتبتك في ذلك فلم أر جوابا) الخ الرسالة[3] التي كتبت على غرار رسائل الوعظ السياسي والنصيحة الدينية (.. فطمعت نجح النصح دنيا وآخرة، فهذا اصل قضيتنا معكم، وهلم جرا، والذكرى تنفع المومنين. على

---

[1] نزهة الحادي ص ٢٠٨

[2] م.ن.

[3] نزهة الحادي ص ٢٠٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كل حال، والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم وآله خير، وبتاريخ أواخر ربيع النبوي الشريف.، وكتب عن أذنه رضي الله تعالى عنه، عبد ربه محمد بن الحسن بن بلقاسم- لطف الله به- والحمد لله رب العالمين..)[1] والكتابة- بالإذن- تعني أن هؤلاء الشيوخ والعلماء، كانوا يعتبرون أنفسهم بمثابة الملوك والزعماء؟ وما أشبه هذه الفترة بعصر ملوك الطوائف في الأندلس:

فتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المومنين ومنبر

أما رسالة زيدان- وهي طويلة- فجاءت لترد على مقتضيات الخطاب الوارد في رسالة الحاحي. جريا على سنن الجدل والمحاورات السياسية، وإن كان زيدان يتهم صاحبه بالخروج عن القاعدة المتبعة في الخطابات السياسية (ولكن لماذا تجنح لقول المواقف لغرضك، وتجعله حجة، ولم تجبنا نحن فيما كتبنا إليك فيه، في يونس اليوسي، .. وأضربت صفحا عن الجواب، وليس ذلك من أدب الجدال..)[2]

وهذه الإشارة كافية للدلالة على أن المتراسلين كانوا ينطلقون في خطاباتهم من رصيد أدبي بين الغايات والأهداف. أن رسالة زيدان لا تعدم الحجة، ولا تفتقر إلى التبريرات المعمول بها في البلاغة السياسية، وكل ذلك من أجل تبرئة الذمة من كل جناية أو خيانة لحقت به في أحلك الظروف وأسوء الحالات.(.. فاعلم أن أهل المغرب لما تما لأواعلي، وخرجت للمشرق والتقيت بالترك والأورام، جالسوني وجالستهم، وخاطبوني وخاطبتهم، منهم مشافهة، ومنهم مراسلة. وكنت أيام مقامي بأرضهم كمقامي على سرير ملكي، لأن كبيرهم وصغيرهم ورايسهم، كان ينتجع فضلي، ويمد كف رغبته لنعمتي، وواسيت الحميع عطاء مترفا، مع قلة الزاد والذخيرة، وترفعت عن مراسلات الأماثل والأكابر من العجم والعرب، ولا ركنت لأحد، بل تجودت بما قدرت عليه من الاخبية حتى جعلت محلة برماتها وخيلها، فتراموا على العجم بالرغبة وبسطوا اكف الضراعة فى المقام عندهم والدخول في جملتهم، وعرضوا على الاقطاع السنية والبلادات الملوكية، بلطف مقال وادب خطاب. حتى قال السلطان مراد رئيس المجاهدين.وما مثلك يكون مع العرب، ها نحن نخدمك بأمولنا وأنفسنا وبما

---

[1] م.ن.

[2] م.ن، ص ٢١٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لنا من السفن حيث اردت واحببت ..)[1] هذا جانب مما ورد في رسالة زيدان، وهو في جميع الاحوال والحالات لم يصل الى ماوصل اليه اخوه المامون، من ارتماء في احضان الاجنبي عدو البلاد والعباد، فالصراع بين الاخوين، (المامون وزيدان) قد جعل السلطة المركزية في كف عفريت كما يقال، اذ لم يعد احد قادرا على التحكم في قيادة السفينة الغارقة.

وأمام هذا الامر، كان لابد من اتخاذ موقف جماعي، يرد الامور الى نصابها.

ويعتقد مؤلف "الحركة العياشية" ان اتصالات قد اجريت بين مستويات عدة، يمثلها العلماء والمتصوفون والمجاهدون، كما ان (هذه الاتصالات . قد اتخذت . عدة اشكال، فهي احيانا جدل حول الموقف الواجب اتخاذه، يبدي فيه كل رأيه مدعما ما يقول بحجج تعتمد في الغالب على شرع الاسلام، وتتخذ احيانا اخرى شكل اتفاق على ضرورة العمل في الالتزام بتقاسيم المهام.ففي الوقت الذي يبدأ فيه ابو محلي في الفضاء على سلطة زيدان في مراكش، يتكلف ابو الليف باغتيال المامون، وفي اقصى سوس، يدعو الحاحي اتباعه الى الاستعداد للجهاد.

ولاشك ان دعوته كانت عقب اتصال بينه وبين بعض رجال التصوف في المغرب الشمالي. وكانت ثالثا تأتخذ شكل اتفاق على ضرورة القيام بعمل ما ... فمحمد العربي الفاسي يراسل محمد بن ابي بكر الدلاءي .. ومحمد بن ابي بكرالدلاء يكاتب في نفس الموضوع عبد الرحمان العيايدي، ويعطيه نفس التوجيه[2]...

ولسنا بصدد الكلام المسهب عن هذه "الفترة" وما صاحبها من اقتسامات وتقاتل ومساومات، فان ذلك مفصل في بابه وفي مظانه، وقد استطاع مؤلف كتاب "الحركة العياشية" أن يستجمع الشتات والتفاصيل والجزءيات في هذا الموضوع، كتمهيد منه لوضع "الحركة العياشية" في اطارها التاريخي، وبذلك اكتست الحركة مشروعية الحق في الظهور، تحت راية الجهاد والدفاع عن البلاد لكن الذى يعنينا هنا هو ماصاحب هذه الحركة وغيرها من سيولة قلمية، اغنت فن المكاتبات والمراسلات

---

[1] م.ن، ص ٢٢٣.

[2] الحركة العياشية ص ٧٦ و٨٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

التي تدخل في مجال الادب السياسي. وكما كانت "البدور الضاوية" مضيئة في هذا الباب، وزاخرة بالمراسلات والاشعار، الكاشفة عن قوة الدلائيين في ساحة الاقلام والرماح، فان كتاب "الخير عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد"[١].

وقد تضمن مجموعة من الرسائل التي تبودلت بين الفقيه العياشي وعدة اطراف، سواء من الفقهاء والتصوفة والعلماء، او من بعض الزعماء الدلائيين. ولن نناقش مادار بين الباحثيين عن مصادر هذا الكتاب، والى اي حد كانت البدور الضاوية، للحوات، ونزهة الحادي لليفراني من مصادر معتمدات ابي املاق في تأليف كتابه، وان كان مؤلف "الحركة العياشية" يميل الى القول، وصيغة الجزم، بأن اعتماد المؤلف على المصدرين المذكورين ليس بالجزم الذى تصوره ليفي بروفنصال، خاصة في ما يتصل بالنقول العديدة من البدور الضاوية[٢].

اننا نعلم ان البدور الضاوية، قد رصعت لتكون ديوانا للادب الدلائي وتاريخ الدلائيين، فالمراسلات التي دارت في سماء البدور، قد جمعت بين الحسنيين وحققت الهدفيين، لاثبات القوة الادبية للدلائيين والسياسية. اما كتاب ابي املاق فان المراسلات التي ادرجت في السياق كانت تخدم بالدرجة الاولى جهاد العياشي وحركته المباركة.

وبما ان "البدور الضاوية" هي من المصادر التي سجلت بعض الرسائل التستاوتية وقصايده فإننا سنقتصر على بعض ما جاء في المراسلات المصاحبة للحركة العياشية. وقد أتى بها أبو إملاق لهذا الغرض. وفي هذا الصدد، يقول مقدم الكتاب: (.. بالإضافة إلى ما يوجد بكتاب الخبر عن ظهور العياشي، من مراسلات سبقت الإشارة إليها، ضن الحديث عن البدو الضاوية، يوجد بالكتاب المذكور رسائل

---

[١] والكتاب كملحق ذيل به الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي رسالة عن "الحركة العياشية"، وقد نشره عن نسخة واحدة – ووحيدة – توجد في الخزانة العامة تحت رقم (د/٩١)، أنظر الكتاب والملحق ص ١٨٥.

[٢] م.ن، ص ١٨٧، وللمقارن انظر "النزهة" لليفراني، ص ٢٦٠، في ذكر التعريف بسيدي محمد العياشي وثناء العلماء الأكابر عليه وابتداء أمره.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أخرى، عددها ١٣ تشكل من حيث مجموعها حوالي نصف الكتاب ..) [١] ومن المواقف النبيلة، التي وقفها انتصار الحركة العياشي، ما في رسالة الفقيه المتصوف الكبير، محمد العربي الفاسي، وفيها يحض الشيخ أبا بكر الدلائي على أن يساند العياشي، ويقف إلى جانبه تجاه خذلان قوم أعرضوه عنه[٢] ناكثين البيعة وخالعين الطاعة.

و الرسالة التي كتبها محمد المربي الفاسي، هي الرسائل الادبية المحملة بقيم الفن الباقية من عصر السعديين، ففيها من الالسجع و الكناية و التخمينات ، ما يشهد ببراعة الشيخ الصوفي في التحبير و الترسل، ولا تخلو كذلك من النفس الديني و من الغيرة الاسلامية على البلاد والمباد، تأكيدا مما قلناه سابقا، من مكانة هؤلاء في نفوس الخاصة و العامة كبديل من السلطة المركزية و قد بقي منها ما يبقى في حياة المحتضر من حشرجات وغرغرات. يقول محمد المربي الفاسي، بعد التصليات و التحليات (..هذا ولا زائد إلا تعريفكم بإتفاق كلمة الكفرة، وافتراق كلمة المسلمين، فأسلمنا الإسلام في ايدي الكفرة و قعدوا، وانتدبت فرق- انصف الله منها وصرف يد المناية عنها – فاوضموا خلال المسلمين، يبغون بهم الفتنة، فهم رمد في عين الدين، وكمد في نفوس المهتدين. يقابلون الحق الواضع المبين، ويعارضون دين المصطفى الامين، بقول مهين لا يكاد يبين، والمداهنة تضرب دون الضرب على ايديهم حجابا، وتلقي على اشعة شمس الحق حجابا، ونمهدلهم الى الاسترسال في طغيانهم أسبابا، وتفتح لهم الى الاعذار المستغلقة ابوابا، حتى شرق الدين بريقه، وشكا إلى الله فريقه.) وبعد أن قدم الفاسي، بين أيدي الدلائي، وصفا دقيقا ومركزا عن حالة المسلمين وتشتت كلمتهم، واستئساد النصارى في ساحة الغلبة الضعاف، حاول استنهاضه لنصرة العياشي، وهو في ذلك يناصفه المسؤولية ويدق على مسامعه ناقوس الخطر (..فإن كنتم – رضي الله عنكم – لم ينته اليكم من ذلك خبر، ولا نظرتم إلى ما وضح منه وظهر، فقد جاءكم جهينة، ينفض ايديكم الجواب والجوينة، وهاانذا قد برئت من عهدة التنبيه، وأعلمت بتكة التشبيه، وأحلت على صاحب البيان والتحصيل، والتوجيه

---

[١] م.ن، ص ١٩٦.

[٢] م.ن، ص ٢١١، في (ذكر قتال سيدي محمد العياشي من نكث من أولاد سكير).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والتحليل، والتقسيم والتعقيل.. و الله يبقيكم للإسلام عونا ويوليه منكم حفظا وصونا. والسلام وكتب أحب الله اليكم، وفيكم: محمد العربي الفاسي : لطف الله به. آمين) [1]

ولا يخفى على اللبيب بالكلام، ما في ختام الرسالة من إشارات بلاغية إيحائية حاول بهما الفاسي أن يهز من صاحبه الكوامن، ويحرك في نفسه السواكن، وهو العالم بالبيان وأصوله، ولقد أثمرت هذه البذور في نفس الدلائي فأورقت، وكتب رسالة إلى المجاهد العياشي، مستحثا ومحرضا، وباعثا فيه روح العزيمة وقوة الجهاد. ونكتفي بهذه الفقرة، الدالة على التقدير والتعظيم لرجل أرخص نفسه في سبيل الله والوطن (..سلام عليكم، ورحمة الله تعالى وبركاته، ورضوانه الأعظم وتحياته. عن تمام الخير و العافية، وما عودة ذو الفضل العظيم من الطاقة الخفية وتعمه المتوافية لذا وقد بلغنا وانتهى إلينا أن تلكم القبائل المحيطة بسلا، حسبما نقله الرواة، حديثا صحيحا ومرسلا، ما قاموا بواجب شكر الله في نعمه التي أسداها إليهم، وأسبغها عليهم، وهي ذاتكم التي نابت الامة المحمدية، في أداء هذا الفرض، الذي حمدت سعيه فيه أهل السماوات والأرض.. يا ليتني كنت معك ثانيا، لاكسلا ولا متوانيا، وياليتهم عرفوا أن الله تعالى قد أنعم عليهم بك، ونظر اليهم بجهودك وسبيلك، فسيذكرون هذا ويندمون، إذا وجدوا ما عليه يقدمون ...) وجاء في توقيع الرسالة (وكتب عبد ربه تعالى . خديم المساكين . وغبار نعال الصالحين، محمد بن أبو بكر الدلائي وقفه بمنه. آمين) [2] ولكن تجري رياح الفتن والأحداث بما لا تشتهيه إلا نفس، وترمي إليه الضمایر، ذلك ان سادة الزاوية الدلائية، قلبوا للمجاهد العياشي ظهر المجن، كما يقال، كما ستفحص عن ذلك بعض المراسلات، وخاصة ما صدر عن (محمد الحاج) الذي إنتصر "للسادة الأشراف السعديين أبناء الأجلة الأسلاف "- حسب لفظه . ضدا على العياشي وشيعته من المجاهدين. وبالمقارنة بين ما في الرسالة السالفة، وما تفرزه الآتية من ألفاظ ونعوت تتبرأ من نعضها نعم، بهذه المقارنة ندرك أحوال الطقس المتقلب ، الذي كان يسود الساحة المغربية على هذا العهد. ويعتقد محمد الحاج أن الحق . هو لا محالة . في جانب البقية من السادة الأشراف

---

[1] الخبر عن ظهور العياشي، ص ٢١٣.

وقد ترجم له في المرآة : ص ٢٢٢.

[2] خبر عن ظهور الفقيه العياشي ص ٢٢٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

السعديين (فإنهم ارسلوا إلينا .كما يقول .كتابا أفحصوا فيه بأنك ضيقت عليهم، وعلى من هو تحت طاعتهم، وغلبت على القبائل المجاورين، على استئصال شافتهم، وأنك تزعم (؟) أنك تريد الجهاد، وليس قصدك إلا جمع الأموال وتملك البلاد، واستعباد العبد وطلبوا منا إعانتهم على قتالك ومساعدتهم على حربك ونزالك. فقدمنا اليك التشفغ بربك ، قبل ان ترى منا بذلك من يقوم حزبك، دونهم من الاجناد ذوي الصبر والبأس، والصدق في الجلاء، ويكفيهم الله مابدالهم من شرك وضيرك. ونصيحك بجند لاقبال (كذا ؟) بهالك ولا لغيرك والسلام[1].

ومهما يكن من أمر العلاقة بين العياشي وسادة الزاوية الدلائية وقد فصلت في مراجع تاريخية[2] فإن الحقيقة التاريخية التي لا غبار عليها، هي أن الساحة المغربية قد عاشت حربا أهلية اختلطت فيها الأوراق، كما يقال. أوراق الحق بأوراق الباطل. مما يصعب على قارىء الأحداث الخروج بحكم قاطع وبرأي مبين. وقد أورد صاحب الخبر، رسالة للأديب البارع، المذب الموارد والمشارع، أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد المكلاتي[3]، وهي من الناحية الأدبية لا تحيد عن السنن الذي خطته الأقلام الإنشائية أيام عز الأشراف السعديين، بل هي تحتذي أسلوب الترسل الرسمي بدء وانتهاء وتضمينا وإنشاء. ولقد أومأنا إلى إطراد الجملة الإسمية في الترسل السعدي كنمط في الكتلبة، انبع على يد المترسلين السعديين. والرسالة التي كتبها المكلاني إلى المجاهد العياشي إنما تؤرخ لجهاد المسلمين وانتصارهم على النصارى النازلين بالعرائش، عام أربعين بعد الألف (المقام الذي أحيى لدين الله معاهد، وأوضع سننه التي أفصح عن حديثها الحسن عن طريق مجاهد. مقام سيدنا ومولانا مركز السيادة، ونجمها الطالع ببرج السعادة. عهد الدولة الإسلامية وأس ركنها، وكف الملة الشريفة وساعدها وإنسان عينها: الولي الصالح البركة، في السكون والحركة، المرابط في سبيل الله، المجاهد للأعداد الله ... أبي عبد الله سيدي محمد .. المالكي الزياني،

---

[1] الخبر عن ظهور العياشي ص ٢١٣.

[2] كتاب الزاوية الدلائية للأستاذ حجي ص ١٥٥.

[3] أورد صاحب الحركة العياشية في هامش (٢٩) من صفحة ٢٢٥، أن الرسالة معززة بتوقيمات و تسليمات بعض العلماء كمحمد بن احمد بن يحيى الشريف البعناني، وعبد الله محمد بن محمد بن سودة، وعبيد الله احمد بن محمد الزموري ثم كتب المكلاتي الرسالة (نقلا عن كناش خع (ك ١٣٢).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الشهير بالعياشي ..) وبعد الإسهاب في التحليات الوصوفة والتصليات، يقدم المكلاتي بين يدي العياشي آيات التهاني محولا خطابه إلى ضمير الغيبة على سبيل التعظيم قائلا: (هنيا له بهذه الفتوحات، التي تنزلت لحضور ولا ئمها الملائك، واختلفت لمصافحة شهدائها على السرر المرصوفة و لأرألك ، وافى البشير وأفصح، مما كان من نصر الله وفتحه، وذكر حديثه المأثور بشرحه، وأشار لكيفية الزحف والكر من المكامن والسير إلى العدو- دمره الله . بالبزاة المطلة إلى الفناء في الحرب والثياب للطعن والضرب: أشراف فاس وشجعانها ونبهائها، فيمن تبع دينكم من شجعان سلا ورباط الفتح، ومن لهم تلا، من أهل القصر ((القصبة) والهبط والخلط سفيان) وبني مالك وطوائف المسلمين، رضي الله عنهم أجمعين، إلى مكامن من مفاجأتهم وإطلاعكم عليهم المنايا من الآكام والثنايا، في عقر داره، ومحله وقراره، وحله وقراره، وثياته لزلزال الحرب وعصصها، حتى بصقت في وجهه المكاحل، وتحكمت فيه السيوف، بعدما توفته نجوم الأسئلة ورمته من كل جانب، في ليل النقع المثار، حتى اعتصم بالفرار، فغزته هنالك (جنود الله) صيدا لسيوفهم التي صيرها الطعن كالمناجل فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين. فرجتم والله عن الإسلام الكريم والأزمات. وشفيتوه بهذه الهجمات جزاكم الله عنا أحسن الجزاء..)[1] إلى آخر الرسالة التي هي مشفوعة بأبيات تتساوق والحديث المرسل والمسجوع عن الانتصارات الباهرة التي حققها جنود الله كما وصفهم المكلاتي. وأن الفقرة الطويلة التي أثبتناها، لتنم عن مقدرة أدبية في مجال الوصف، كما أن لغتها راقية إلى حد بعيد، اقتداء بالأسلوب الكلاسي الذي كان مبتغا على عهد السعديين. بالإضافة إلى الثقافة الدينية، التي رأيناها قد راجت – من قبل – في سوق الترسل المرابطي، رواجا ملحوظا، كتوظيف لبعض المصطلحات والأسماء كاستعماله اسم مجاهد، والحسن، والحديث، والمأثور، والشرح على سبيل الثورية والتلميح. بالاضافة إلى أن الرسالة زاخرة بحمولات أخرى مقتبسة من القرآن والأمثال العربية، وكل هذه وتلك، إنما تخدم الأثر المحوري في الرسالة، ألا وهو الإستنهاض والتحريض والاستصراخ (الله، الله، في اللإسلام. أدركوه قبل أن يموت، وخلصوه قبل أن يفوت) ولاشك أن المقام والحال يتطلبان هذا الاستعمال لهذه الأدوات (فكم طفل بكى فلم يرحم لبكائه، وكم شيخ خضبوا شبيه

---

[1] الخبر عن ظهور الفقيه العياشي، ص ٢٢٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بدمائـه، وهـاهو قـد عبـر البحـر إلينـا، ومـد الصـليب بهـذه السـواحل ذراعيـه علينـا، ويساعدكم – والحمد لله أقوى ونور إيمانكم أضوى وهو دينكم فاقصدوه ..) [١]

ومما لاشك فبه، هو أن العياشي، كان يمثل خلاصة الرأي العام، محيال القضية الوطنية انئذ، ولا ادل على ذلك ماتسجله مواقف النخبة العلمية والثقافية، والمسجلة في رسائل، كانت ترسل للتأييد من طرف الافراد او الجماعات. وهذه رسالة المكالتي، كما تفيد بعض التقييدات، هي عبارة عن موقف جماعة من العلماء وجلة القوم في فاس،جعلوا الاديب الاريب ناطقا بلسان حالهم. وقليل هم، اولئك الذين التزموا صف الحياد في هذه المسألة[٢]

وقبل ان تودع هذه الحركة الشعبية، بقيادة المجاهد العياشي، علينا ان نتعرف على اسلوب مراسلاته، اعتبارا لما رسمناه سلفا لهده الاوراق، بحيث لم تكن الحركة العياشية، هي محط توجهنا وغاية المراد، بل كانت تعنينا وبالدرجة الاولى حركة أخرى، هي حركة الأقلام إلى جانب الصهيل والرماح. وقد رأينا، ولو بصورة إجمالية كيف كانت المراسلات تجري بين هذا الطرف أو ذاك. وعلى أية حال، فلترجئ خلاصة الأمر إلى حين.

كانت علاقة العياشي ببعض القبائل والأهالي والمدن، مطبوعة بطابع التقدير والطاعة والتبعية في غالب الاحايين، كفاس ومكناس، وتطوان وسلا، وقد لمسنا من خلال رسالة المكلاتي – وهي ناطقة باسم النخبة العلمية بفاس – الشعور

---

[١] الخبر عن ظهور الفقيه العياشي، ص ٢٢٥.

[٢] ولقد أورد اليفراني لهذا الأديب مقطوعة رائية قالها ماوسيا صديقه القاضي على بن عمر أن السلاسي، بعد أن سجنه السلطان زيدان ووضع له السم. (فقال منشدها أنشدتها له بمحبسه فبكى حتى ظننت أنه سيهلك، ثم أفاق وتلا الآية لله الأمر من قبل ومن بعد ثم بعد أيام راجعني رضي الله عنه جوابا بأبيات ..) نزهة الحادي، ص ٢٤١.

فمن أبيات المكلاتي:

تصبر لدهر راح يمنحك الأسى وأنت عظيم، والعظيم صبور

ومن مراجعة السلاسي:

متى وعسى يثنى الزمان عنانه بعثرة جد، والزمان عثور

كما أورد له مقطوعة أخرى في ص: ٢٦٢ في مدح المجاهد العياشي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

العام الذي يساور المسلمين إزاء الحالة المتردية التي كانت عليها ديار الإسلام في مغرب ما بعد المنصور وأبنائه وأحفاده.

وقياسا على هذا فإننا سنتوقف قليلا عند تطور العلاقة التي ربطت العياشي ومدينة تطوان، من خلال رسالة بعثها المجاهد إلى الأهالي، والذين كانوا يعيشون حالة من الانقسام الظرفي، سياسيا واجتماعيا. وهي حالة لها نظائرها – آنئذ – في جل المناطق ذات الإمتياز والنفوذ. ويعتقد بعض الباحثين[١] أن مدينة تطوان لها ما يشابهها على عدة مستويات في علاقتها بالعياشي من المدن المغربية، كمدينة سلا، وفي هذا الصدد يقول (لتطوان، كمركز للحركة العياشية، تشابه كبير مع سلا، وأساس هذا التشابه أن كلا من المدينتين يطل على البحر. وفي كل منهما سكان أصليون وفد عليهم سكان جدد الشيء الذي خلق بعض الاضطراب..) [٢] وبالطبيعة والتاريخ والجغرافيا، فإن هناك – كذلك – تفاوتا واختلافا بين المدينتين. وهكذا فإن الإطار السياسي لهذه العلاقة وحسب ما هو مفصل في تاريخ تطوا ن لفقيد العلم والتاريخ محمد داود[٣] كانت تتحرك داخله مجموعة من العوامل المتداخلة والمتناقضة في آن واحد، فأبناء النقسيس هم الذين كانوا يسيطرون على مركز السلطة أيام الحركة العياشية وفي مرحلة مدها التصاعدي، اعتبارا للعامل الاستراتيجي الذي كان حاسما في الميدان، ألا وهو الجهاد، وأبناء النقسيس من ذوي البأس الشديد في ساحة النزال. ولم يلبث هذا العامل الجهادي، أن اختفى وحل محله عامل التجارة، كما يقرر ذلك صاحب"الحركة العياشية" اعتمادا على تاريخ تطوان. وتبعا لهذا التراجع في القيادة، فإن نزاعا قد نشيت أظافره بين الأهالي، مما أدى بانفلات زمام الأمور من يد النقسيسيين. وهنا تحرك العياشي ليستغل الإنقسام الداخلي في المدينة، وبعث مرسوله (أحمد بو علي في تنظيم انقلاب ضد النقسيس نجح في التخلص منه، وحل محله

---

[١] الحركة العياشية ص ١٦٣/١٦٢، وعلى سبيل الإطلاع فإن الناصري قد خصص صفحات عدة للعياشي/ ٦ ص ٧٣/٢٤ – ٨٥.

[٢] م.ن.

[٣] تاريخ تطوان، ويكاد القسم الثاني من المجلد الأول أن يسيطر الحديث فيه أولاد النقسيس(ص ١٧٣،١٧٥،١٧٦،١٧٨،١٨٠،١٩٤،٢٠١،٢٤٦،٢٤٨ أما في ص ٢٤٩ فيتحدث محمد داود عن خيانة أولاد النقسيس لوقوفهم إلى جانب الأنجليز والنصارى الإسبان، ضدا على المجاهد العياشي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أحمد بو علي وسليمان بن يوسف في حكم تطوان باسم العياشي..) [١] وهذا التدخل المباشر من العياشي، جاء كرد فعل حتمي ضد النقسيسيين والذين انشقوا وتمردوا على المجاهد وحركته.

بعد أن استفحل التدهور الذي ساد العلاقة الدلائية بأختها العياشية. هذا هو الاطار، باختصار، لرسالة العياشي إلى أهالي تطوان. وقد مهد لها بما أصبح متداولا في مراسلات هذه الفترة، من حديث مرسل عن الجهاد ومشروعيته، وما حققته الجنود الإسلامية من انتصار على يديه وبقيادته. وهذا يستوجب من المرسل إليهم، الشكر لله والطاعة لمن "أذاقهم طعم العافية، تكريما وتخصيصا" كما يقول بلفظه. وبعد ذلك، خلص المجاهد العياشي إلى القول بما يفيد التوجيه والوصاية بمرسوله الذي أشرنا إلى موقعه من هذه العلاقة، كبذيل عن القيادة النقسيسية.وقد اختاره وتوخاه –كمايقول– لما لنا من المحبة فيه وفي جنابه وفي كل من يعد من اوليائه واصحابه، نود ان يكونوا كلهم على الحالة المناسبة لذالك، سالكين من الهدى المرضي احسن المسالك. فإن وقع عن ذلك انحراف وخروج عن هذه وانصراف،اشد قربكم من هذا السيد قبح ذلك، كما يشتد مع مقارنة البياض سواد الاسود الحالك، فيتألم لذلك من يجبك اشد الالم ويشق عليه الخبر الوارد بذلك مهما الم.ولا محيد عن قيامه بواجب المحبة بمبلغ الامكان. ولا اقل من النصيحة التي هي من الدين بمكان، فلهذا،كتبنا هذا اليكم بجرد احضره الوقت، وحادث استوجب الوقت..) واستنطاقا لالفاظ الرسالة، يتبين خط النزاع الفاصل بين طائفة العياشي وزمرة ابناء النقسيس.واستينادا الى ماورد في تاريخ تطوان،فإن هذا النزاع لم يستفد منه غير الأطراف الاجنبية. وقد كان النصارى الاسبان يتوجسون خيفة من قوة العياشي واسعداده لحماية الثغور مهوى القلوب ومط الانظار، في خطة الجيران الاجانب، الاقارب، منهم والاباعد. وهكذا تحدث بذلك مصالح اولاد النقسيس مع مصالح اسبانيا، وصار الجميع يقاوم اصحاب ابي عبد الله العياشي، وهكذا تحول الاعداء الى اصدقاء، والمواطنون المجاهدون الى خصوم واعداء)[٢] ونستشف من الفاظ الرسالة كذلك مرارة العياشي حيال ماقاموا به ضدا عليه أو محاربة

---

[١] الحركة العياشية، ص ١٦٤.

[٢] تاريخ تطوان/القسم الثاني من المجلد الاول ص ٢٤٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لاشياعه، وهم كما وصفهم (يحرسون ساحتكم ويشترون بغيبتهم راحتكم، قد تركوا الوطن، وهجروا السكن، طلبا لاقراركم بين أهاليكم وديياركم فما عاملتموهم بمقتضى معاملتهم، ولا جاملتموهم بحسب مجاملتهم،بل ليزال متشكي منهم يتضرر من عدم انصافكم وقلة الاعانة للحق واعترافكم،لا تعاملونهم حتى بالكلمة الحسنة، ولا تيقظ غافلكم عن الصواب من سنة..) ويختم العياشي رسالته بما تمليه عليه واجب النصيحة،كما قال.اما تاريخ الرسالة، فهو كما بآخرها، (عام احدى وأربعين والف). هذه هي رسالة العياشي الى أهالي تطوان،وهي كما رأيناها بسيطة في افكارها، وبسيطة في أسلوبها بالمقارنة مع السائل السابقة في هذا الموضوع، وذلك راجع الى كون العياشي مجرد فقيه تصدر للجهاد، حتى أصبح من الثوار القلائل في تاريخنا.وليس معنى هذا أن الجواد لا يكبو، أو أنه حقق ما كان إليه يصبو، وقد تكالبت عليه، في المرحلة الأخيرة – زمر وطوائف، من جميع الإتجاهات والأطراف، مخافة أن ينتصر المجاهد الشعبي، حيت تحركت الضغائن في نفوس الشيعة من الدلائيين (فغدروا به وقتلوه – رحمه الله – بموضع يسمى عين القصب، واحتزوا رأسه وحملوه إلى سلا.. فاتح سنة إحدى وخمسين وألف. وقد رمزو – كما يقول اليفراني – لتاريخ وفاته بقولهم: مات زرب الإسلام)[1] ويكفي العياشي فخرا، أن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي، كان يخلع عليه لقب أمير المؤنين وأنه نور من الله في البلاد الغربية[2] ولقد سبق لنا، في القسم الخاص بحياة التستاوتي أن تعرضنا لهذه الشهادة الصوفية في حق رجل كان يلخص الإجماع الشعبي في عصره، استجابة لصوت الأمة، وبحثا عن سبيل الفرج المرتقب، بعد أن يئس الناس من السلطة المركزية وفروعها. ونختم هذه الجولة القصيرة في ساحة الأقلام والرماح، بما جاء في رسالة الشيخ إبن ناصر الدرعي، إلى خريج مدرسة العياشي في الجهاد الخضر غيلان: (..فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني أحبك في الله وأن لساني لهج بالتضرع إلى الله تعالى، في نصرك على الكافرين، منذ خرج الإنجليز، والباعث على أعلامك بهذا أمران، أحدهما قوله (ρ) إذا أحب أحذكم أخاه فليعلمه، والثاني اختيار همتك للجد فيما أنت بصدده من الجهاد، وعدم الإلتفات إلى ما تورط فيه

---

[1] نزهة الحادي، ص ٢٧١، انظر الخبر في كتاب الخبر عن ظهور الفقيه العياشي ص ٢٧٦.

[2] أشار إلى ذلك اليفراني في النزهة، ص ٢٦١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

غيرك من الإغترار بالفاني، فأنت ما ذمت على هذه الحالة على طريقة صالحة وعباد الله الصالحون كلهم معك. ورحم الله صاحبك، الذي أسس لك هذه الطريقة الصالحة، ورباك عليها أعني أمير المؤمنين نور البلاد الغربية، سيدي محمد العياشي جزاه الله وإياك عنا وعن المسلمين خيرا، فهو سيدنا وسيد غيرنا الذين ندين له بمحبته، ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسيل) [1] وإذا ما رجعنا إلى تاريخ الرسالة، وإنها قد أرسلت إلى الخضر غيلان من مصر سنة ١٠٧١، وربطنا هذا التاريخ بما كان عليه المغرب آنئذ، ندرك البعد السياسي لشهادة الصوفي الكبير، في حق من يحب أن تناط بهم أمور المسلمين. وهذا موقف سيكون له ما بعده ذلك أن المغرب، كان يتمخض عن ولادة دولة جديدة على أنقاض الفترة المظلمة التي سودت أيام المغاربة ولياليهم. وقد يقال بعد كل هذا، أن السيادة السياسية قد انتقلت من ميزان إلى آخر فقد كانت في يد المتصوفة وأرباب الزوايا، بعد تلاشي عنصر الشرف الذي قامت عليه الدولة السعدية، وها هي السيادة الآن سيمسكها بيد من حديد سادة أشراف، هم العلويون.

٢- إذا كانت الفترة السابقة على العهد العلوي، قد طبعت، سياسيا واجتماعيا بما جاء على لسان الأقلام والرماح، من معارك وفتن واضطرابات، فإن جيل ما بعد الحركتين: الدلائية والعياشية، سيحمل معه خصائص الفترة ومميزاتها، على مستوى الثقافة والسياسة والإبداع. خاصة أولئك الذين ولدوا قبل اغتيال المجاهد العياشي ببضع سنين كاليوسي والتستاوتي ومن تزامن معهم في الطفولة والشباب. وقد عاش هذا الجيل، منذ هذا التاريخ إلى أن غربت شمس الدلائيين من الزاوية الدارسة. شريطا من الأحداث ماكان لينساه أبدا. بل أن هذا الرصيد، بمعطياته ومستوياته، هو الذي تفاعل مع الذات والشخصية، ليصبح فيما بعد، القوى الفاعلة في الثقافة والتصوف والسياسة. بل أن هذا الجيل أيضا سيظل في نظر الدولة الجديدة صورة للمعارضة غير المباشرة. من هنا يمكن أن نفهم الخلفيات التي أحاطت بمواقف اليوسي تجاه قضايا عصره، وتجاه معارضيه من ذوي العلم والسلطان. وقل مثل ذلك، في صديقه التستاوتي الذي امتد به الزمان إلى الفترة الأخيرة من حياة السلطان اسماعيل.

---

[1] والرسالة في طلعة المشتري/١، ١٦٨/١٦٩(ط/ حجرية).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هـذه "الخضـرمة" التاريخيـة، هـي التـي تميـز كتابـات اليوسـي وصـديقه التستاوتي، مع الفارق الموجود، بطبيعة الحال تبعا للخطوط الفاصلة بين شخصية هذا وذاك علما وسلوكا وادبا.

ننطلق من هذا المرتكز التاريخي، حتى نستطيع ادراك البعد الذى يمتد، عموديا وافقيا، من فترة قد اصبحت في ذمة التاريخ، الى فترة جديدة، جاءت على انقاض ماقبلها من ازمنة الحركات والتمردات والثورات. وانطلاقا من هذا البعد المترامي والمتداخل، يمكن لنا ان نفهم رسائل اليوسي ورسائل التستاوتي واخرين ، اذ لايمكن لنا بحال من الاحوال ان نعزل هولاء واولئيك عن مكونات العهد السالف، سياسيا، واجتماعيا، وصوفيا. وقد كان هذا المثلث تلتقي بأضلاعه في أغلب الأحيان، في قبضة الشخصية الواحدة، كما اسلفنا القول. فهل يمكن ان نعزل اليوسي عن منطقة الحنين الى الزاوية الدلائية ؟ وهل يمكن ان نفصله عن حرارة القبض والبسط المنبعثة من شخصية ابن ناصر الدرع الكبير؟ وقد علمنا موقفه من بعض الاحداث والشخصيات. والقياس يطرد ويجري على صاحبنا، صاحب "نزهة الناظر".

هذا المرتكز التاريخى، هو الذى سيمدنا بمركز اخر ثقافي، كان مساعدا على ازدهار فن الرسالة في عصر الرجلين، ذلك ان فترة ماقبل العلويين، قد شهدت ازدهارا وتحركا لامثيل له في ساحة المراسلات. وقد اشرنا الى بعض المصادر التي سجلت لنا هذا التحرك المثير في ساحة النثر المغربي. فالبدور الضاوية، وكتاب الخبر عن ظهور الفقيه العياشي، وما في نزهة الحادي، وطلعة المشتري، من رسائل في السياسة والادب والتصوف، كلها شاهدة على هذا الازدهار. وكلها تشاكلت لتبني الاسس التى قامت عليها النهضة الادبية خلال هذه الفترة، وقد جاء بعدها جيل جديد اخر، تزامن في الظهور مع التأسيس الفعلي للدولة العلوية.

واذا كانت الزاوية الدلائية، كبنيان وسياسة قد اصبحت في خبر كان على يد السلطان الرشيد، فان بعض المخرجين منها وتلامذتهم قد وجدوا ضالتهم في الزاوية الناصرية، كتعويض روحي عن الفراغ الذي تركتها الاولى بزوالها من منطقة التاريخ والجغرافيا، وقد اسهبنا في القول، عن هذه الزاوية عند الحديث عن التستاوتي ومراحل حياته الروحية. كما اشرنا الى العلاقة السندية والتاريخية التي تجمع بين الدلائية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الدارسة وبين اختيها: الناصرية في تمكروت والفاسية بدرب القلقليين بفاس. وعلى أعمدة الزوايا الثلاة قامت النهضة العلمية في زمن الفترة والظلمات[1].

وإذا كنا قد ربطنا الإزدهار في الرسالة، في هذا العصر، بما صاحب الفترة المشار إليها، من أحداث وتغيرات، فإن الأمر يزداد خصوصية أكثر، عندما نقف على رسائل ابن ناصر الدرعي ومدى تأثيرها على رسائل اليوسي وصاحبنا التستاتي.

ونظرا لمكانة الشيخ مخمد بن ناصر الدرعي، ونفوذه الروحي على، ونفوذه شرائح كثيرة من مجتمع القرن الحادي عشر، بل امتد إلى ذوي السياسة والسلطان فإن حجم المراسلات التي صدرت منه وإليه إتما كان يزداد انطلاقا من هذا الموقع الروحي الذي تنزل فيه بعد خراب دولة الدلائيين، إذ صح التعبير. لكن ابن ناصر الدرعي، لم تكن تراوده – قط – النفس الأمارة بالسياسة والسلطان. فحسبه أنه زعيم روحي يبشر بقيم القوم وتعاليهم وعلى هدي الحقيقة والشريعة معا.

إن الشيخ ابن ناصر لم يترك لنا رسائله مجموعة في كتاب، بل إن أحد أحفاذه هو الذي قام بجمعهما وتصنيفها وتبوبها، حسب الموضوعات والأغراض والهيآت. وكان معتمده في ذلك، ما وجده مقيدا بخط ولد الشيخ أحمد ناصر الخليفة من بعده. وفي مقدمة هذا المجموع، الذي أسماه صانعه ب "أتحاف المعاصر" برسائل الشيخ ناصر، نقرأ ما يلي:

"فهذا تأليف جمعت فيه رسائل جدنا الإمام الولي المهام، صالح العلماء وعالم الصلحاء، الشيخ أبو عبد الله بن ناصر، رضي الله عنه، إلى أهل عصره من علماء وقضاة وتلاميذ وأصحاب، وملوك وأشراف، وعوام وعراف، يتخللهم فيها بالمواعظ تذيب صم الصلاب، وتنسي عند سماعها زهرات الحياة الدنيا: من ياقوت وعسجد وخود كعاب، لأن غالبها، بل كلها أحاديث نبوية وآيات محكمات من الكتاب... ثم انى وقفت على أكثرها مقيدا بخط خليفته من بعده ووارث سره لما أدرج في لحده، أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر قدس الله روح الجميع في الجنة. لكنها غير مرتبطة ولا مهذبة، بل عذراء في خدرها منتقبة، فشرعت في تكميل ما أخل

[1] وينقل الناصري عن القادري قولهم "لولا ثلاثة لا نقطع العلم في المغرب في القرن الحادي عشر، لكثرة الفتن التي ظهرت فيه .." الطلعة، ص ١٥٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

به وتشييد ما أسسه واعتنى به، ليحصل النفع بهما مع اعترافي بأن الفضل للمتقدم، والعالم غير المتعلم..) [١] وبعد هذه الديباجة، يعرض علينا – هذا الحفيد – طريقة العمل التي صنع بها هذا المجموع من الرسائل. ورتبته على خمسة أبواب، ومن الله أرجو الإعانة والصواب:

– الباب الأول في رسائله إلى علماء وقته من قضاة وغيرهم، ونصحه إياهم

– الباب الثاني في رسائله إلى أخيه وأولاده وذويه ونصحه إياهم

– الباب الثالث في رسائله إلى أصحابه وتلامذته ونصحه إياهم

– الباب الرابع في رسائله إلى أمراء عصره، ونصحه إياهم

– الباب الخامس، في أجوبة عن مسائل سئل عنها في فنون شتى.وسميته "أتحاف المعاصر، برسائل الشيخ ناصر"[٢]

وأن القراءة السريعة لفهرس هذا المجموع الخطي، من رسائل بن ناصر تسجيل بوضوح مستويات الخطاب في الرسائل النصارية. حيث يختلف أسلوبها من مستوى بعينه إلى مستوى آخر بذاته. وقد استوقفتنا بعض رسائله عند حديثنا عن شخصية بن ناصر، في الفصول الأولى من هذا البحث، والخطاب فيها كان موجها إلى أحد القضاة الذين أخذتهم العزة بالجور والجبروت. وقد رأيناه قبل قليل أيضا يخاطب الخضر غيلان الذي تسلم راية الجهاد من يد المجاهد العياشي. ولا يخفى ما تحمله هذه العبارة في نهاية كل باب من أبواب الرسائل المجموعة "ونصحه أيامهم" فقد كان لذوي العلم والرئاسة، كما كان ناصحا لذوي السلطان والسياسة. بل أن يكون ناصحا لمريديه وأتباعه وذويه. وممن راسلهم من العلم وأهل الأدب والفضيلة أمثال اليوسفي والتجموعتي والشرقي، ثم التستاوتي، كما سنفصل ذلك في بابه. كما أن

---

[١] اتحاف المعاصر برسائل الشيخ بن ناصر (مخ الخزانة الملكية رقم ١٢٦٩٣، ص ٣)
من عمل: محمد بن موسى بن ناصر.

[٢] نفسه ص ٣. وقد نقل عنه الناصري في الطلعة ١/ص ١٧٤وما بعدها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هؤلاء قد حبل المراسلة، وعلى رأسهم السيد أبو علي الحسن بن مسعود اليوسفي[1] وإذا، كان بن ناصر رأس الناصرية، فإن النفس الغالب على رسائله يستنشق روحه من المعجم الصوفي : وكنموذج على ذلك، نقرأ رسالته إلى "من بشفشاون من الفقراء أهل الصدق والوفاء" كما في مطلع رسالته واختيارنا لهذه الرسالة، يوضح الخريطة الجغرافية لمنطقة النفوذ الروحي لهذا الشيخ وزاويته. فما بين تمكروت وشفشاون من الأميال لا يقاس إلا بالبعد الفاصل بين الشمال والجنوب. وقد كان من أهل شفشاون من يقطع أكباد الإبل، وفي مغرب القرت الحادي عشر، قصد التبرك بالزاوية ورئيسها الصوفي بن ناصر الدرعي[2].

وفي الرسالة أشياء تفصح عنها الإشارات والعبارات، وما أخال بن ناصر إلا قارئا منقدا سلوك المخاطبين وأخلالاقهم في التعامل فيما بينهم : (أما بعد، فلا أراكم إلا قد فشلتم وتنازعتم في أمركم، وأخلدتم إلى الأرض واتباع الهوى، واستبدلتم بالصبر جزعا، وبالقناعة طمعا، فأفيقوا من حيرتكم وانتبهوا من رقدتكم، وهبوا من طول نومتكم، فإن الأمر جد لا هزل. وعقوبة الفقير الناقض لميثاقه شديدة. فمن لم يبادر للتخلص من ذلك وقع في مهواة من البئر لا قعر لها. وتحابوا (فيما) بينكم وتطاعموا وتزاوروا وتصابروا وتناصحوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا. وتآمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر...) وتخلص الرسالة من أسلوب النصيحة إلى مقام آخر، يحذر فيه ابن ناصر أهل شفشاون من جماعة تمتهن حرفة الطريق الصوفي لخدمة أغراضها، مستعملة في ذلك وسائل التضليل والخداع.

(أما الكذابون في النسبة، الناصبون لاقتناص الأغراض الدنيوية كل شرك، فاحذروهم ثم احذروهم، ولا تأمنوا أحذا جاءكم منتسبا إلينا يطلب طمعا، فإن أساس طريقتنا قطع الطمع في المخلوفين، ولا ينبغي لأحد من أولادنا أن يكون خداعا ولا

---

[1] لقد وردت في إحدى رسائل بن ناصر إلى اليوسفي عبارة "ولقد بلغني قبل هذا اكتاب عدة كتب واحبتك عنها. ج١ص ٢٦١، من الطلعة. مما يدل على أن هناك رسائل يوسية لم يتضمنها عمل الأستاذة لقبي في رسالتها عن رسائل اليوسي " وهذا السهو منها له نظير فيما له نظير فيما له علاقة جمعت بين اليوسفي والتستاوتي. كما ستبين ذلك.

[2] نزهة التستاوتي ١/ ورقة ٢٥، ص ٤٧.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مخدوعا للخداعين. والسلام...)[1] وهذا الخطاب من الشيخ ابن ناصر، بمستوياته الإرشادية والتحذيرية إنما يمثل موقفا في غاية الكشف والاستبصار، والصوفية هم علماء النفس الإسلامي لأنهم يقرأون بحدوساتهم ألواح قبل رسول الأشباح.

ويذكر التستاوتي في تقييده عن الوفادة الأولى إلى الزاوية الناصرية، أنه وجد لدى الشيخ جماعة من "**فقراء شفشاون**". وقبل أن ينصرف الجمع إلى مواطنهم وبلدانهم، أوصاهم ابن ناصر باجتناب الفواحش والمنكرات يقول التستاوي : "(.. ثم حض الفقراء على اجتناب المنهيات وامتثال المأمورات، وأوصاهم بتقوى الله العظيم، وأمرهم أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم : وقال : – اتركوا الخمر، وكسروا أوانيها، ثم قال، إياكم أعني يا أهل شفشاون..)[2]. من هنا ندرك أهمية الرسائل التي كتبت على هذا العهد، وهو عهد، ازدهرت فيه المراسلات، كامتداد لفترة ما قبل العلويين، ونحن إذا أجرينا إحصاء بالجرد البيليوغرافي، عن هذا النوع من التعبير لكونا ديوانا لا يضاهيه أي ديوان آخر من دواوين الكتابة والإنشاء. بل أن الزاوية الناصرية وحدها : شيوخا وتلاميذ قد أثرت الخزانة الأدبية برسائلها الإخوانية والصوفية إذا ما جمعنا ما في طلعة المشتري، وما في النزهة، والدرر المرصعة، بل وما في رسائل اليوسي المطبوعة منها والمنسية، وما خطة العياشي صاحب الرحلة[3] إذا قمنا بتجريد هذه الآثار مما فيها من رسائل ومكاتبات لتجمع لدينا هرم شامخ من أدب المراسلات[4] واتجاهات هذه الرسائل من الجانب الفكري

---

[1] طلعة المشتري ١/١٧٥، ١٧٦.

[2] نزهة التستاتي ١/ورقة ٢٥، ص ٤٧.

[3] رسائل العياشي تضمنها مخطوط "الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم"

(خع رقم ٣٠٤ ك) وانظر مراسلته مع اليوسي في ص ١٧٩ من المخطوط. وقسم المراسلات في الباب الثاني. وهذا الكتاب في سورته التأليفية يتمشى وصورة نزهة الناظر. يشير الطالب عبد الله بنصر علوي في رسالته عن بي سالم العياشي شاعرا "إلى أن مراسلات العياشي منه وإليه وكذا مراسلات الأسرة العياشية، موجودة ضمن مجموع خطي بالخزانة الحمزاوية رقم ٢٥٥ – ٢ – ٢٨/ مكروفيلم خ ع ٢١١.

[4] لقد جاء الحديث مقتضبا في مقتضبا في مقدمة فاطمة القبلي، عن رسائل اليوسي في إطار عصر هاج ١، ص ١٠٦، لم تحاول ربط الرسائل بالظاهرة العامة الخاصة، لأنها أرادت تحقيق الرسائل وإخراجها للناس. وحسبها ذلك وكفى. وانظر هامش ٣، من ص ٢١٢

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والتصوفي، لا يمكن فهمنه إلا إذا وضعناها في إطار المدرسة الناصرية. فنحن لا نعزل الظاهرة عن مكوناتها، ولا الثمرة عن بذورها : فرسائل اليوسي السياسية – مثلا – كالبراءة وجواب الكتاب، فيها من شخصية صاحبها ما فهيا : علما وصلابة وقوة إيمان. ولكن، فيها كذلك من التأثيرات التي أحدثها – فيما بعد – تصنيف الرسائل الناصرية : كما في الباب الرابع في رسائله إلى أمراء عصره ونصحه إياهم) وقل مثل هذا وأكثر في باقي التلاميذ والمريدين، الذين تخرجوا من المدرسة الناصرية.

وإذا كانت رسائل ابن عباد الرندي، وقد – هي خطاب من شيخ واصل إلى مريد سالك مسترشد، وهذا المريد لم يتعدد نمطه الصوفي كثيرا لأن المرسل إليهم – في الخطاب الرندي لم يتجاوز عددهم أصابع الكف – فإن رسائل ابن ناصر الدرعي امتدت في تأثيراتها لتكتسح نماذج كثيرة من المريدين والأتباع. وبالرغم من كون أعلب رسائله تمتاح من المعين الصوفي إلا أنه – أحيانا – كان يلعب فيها دور المصلح الاجتماعي، بل ودور الموجع الإيديولوجي عبر الخطاب الصوفي. ولم يكن كابن عباد الرندي غواصا في أعاميق النفس ودهاليزها فحسبه أنه يضع لمساته الواخرة على المسامات المعطلة عن التفاعل الصوفي. وهذا الدور التوجيهي يتمثل في أغلب رسائله ومكاتباته. وقد كان اليوسي – أيام مقامه بفاس – بعد حادثة الزاوية الدلائية، يشكو من سوء المعاملة الصادرة عن أهل فاس وعلمائهم، وأمام هذه الحالة، راسل شيخه ابن ناصر، ليخبره بما أنعم الله مع ذلك ما ناله من أولئك الحسدة[1] وجاء جواب ابن ناصر الدرعي إلى اليوسي، جاملا في ثناياه جرعة بلسمية أزالت عن النفس أدران الحيرة واليأس : (فقد ورد علينا كتابك وفهمنا ما تضمنه من الشكوى ومن التحدث بسبوغ نعمة الله عليك، فأعرض عنهم وتوكل على الله وفل "**ثم ذرهم في خوضهم يلعبون، وأن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعلمون محيط**" ولا يحيق مكر السيء إلا بأهله"**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**" وأقبل على ما يعنيك على طاعة مولاك، فله الحمد على ما أسبغ من نعمة ظاهرة وباطنة ...) وعادة ما يختم ابن ناصري رسائله بوصايا أو حكم أو آيات.

---

[1] طلعة المشتري ٢٦٠/١، وقد أشار اليوسي إلى هذه الحالة في رسالته إلى السلطان إسماعيل، والمعروفة بجواب الكتاب، انظر (رسائل اليوسي) ٢٠٧/١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ووصاياه لا تنحو منحى إخباريا، بل هي إنشائية قصدية يراد بها التنبيه على وجه النصيحة الصادقة (وأوصيك – يقول لليوسي – بالتورع فيما يدخل جوفك، وفيما تلبسه من الثياب، فذلك هو أساس الاستقامة والله المستعان وعليه التكلان... وكتب لثلاث خلون من جمادى الأولى عام ثمانين وألف[1] وبهذا الأسلوب الخطابي، كان ابن ناصر الدرعي يشحن مريديه وأتباعه حتى ولو كانوا من جلة العلماء، أمثال اليوسي.

وإذا ما حللنا السابق – انطلاق من شخص المرسل/الصوفي، إلى المرسل إليه العالم الأديب، وانطلاقا كذلك من المحيط – الذي هو فاس، فإننا سنمسك بالخيط السري لفهم الدلالات والإبعاد الخفية والمستترة وراء الوصايا والآيات. ونحن نعلم، إن أسلوب ابن ناصر، في جميع مكاتباته، إنما يعتمد على المرتكزات الثابتة في الخطاب، إلى جانب الاستعمال الآخر في التعبير، كالجمل القصيرة المحددة في صيغ إنشائية غير مقصودة لذاتها. والمرتكزات المشار إليها تتمثل باطراد في السرد التلقائي لأي الذكر الحكيم، وأحيانا تتزواج الآيات وجوامع الكلم، من أحاديث الرسول – عليه السلام –.

واليوسي – وهو من هو – عندما راسل شيخه الصوفي، كان يعيش تحت الوطأة الاجتماعية التي أقحم فيها، وهو الرجل القادم من مكان بعيد، يحمل في داخله مجموعة من المكونات العلمية والنفسية تتفاعل فيما بينها لتسوي الصورة اليوسية للرجل، ومن الصعب عليه أن يقاوم هذا التكتل الحضري وهو فرد وافد من بادية الأطلس الشامخ. وهكذا سقط اليوسي في أوهام هزمت العقلانية فيه[2] لأنه بشر، يضعف بضعف البشرية، ويقوى بقوتها. ولا يمكن أن نحمله أكثر من هذا، كما ذهب

---

[1] نفسه ٢٦١/١.

[2] انظر وصفه لحالته النفسية، في رسالته إلى السلطان إسماعيل الموسومة بجواب (رسائل اليوسي ١٦٩/١).

وانظر بحث الأستاذ التونسي الشيخ عبد الحميد منيف : "المغرب في القرن الحادي عشر" وهو عبارة عن فصلة مستلة من مجلة كلية أصول الدين التونسية. وقد خصص الباحث الفصلين للمغرب في هذا القرن من خلال المحاضرات لليوسي. وقد سبق له أن قام بجمع شعره وحققه، كرسالته قدمها خلال الستينات إلى كلية الآداب بالرباط لنيل دبلوم د/ع.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلى ذلك بعض الباحثين[1]. وإذا، هذا هو الإنذار الذي يحدد الفضاء الزمني والمكاني لرسالة ابن ناصر، ويحدد كذلك المعالم النفسية والصوفية لكل من المرسل والمرسل إليه. إذ ليس من الصدفة الدلالة الواحدة، ثم تختم بجمل قائمة على لفظ الوصية وما في معناه.

إن ابن ناصر، حاول بخطابه الإبلاغي أن يذكر أكبر تلاميذه وأعلمهم، إلا وهو اليوسي، والحالة أنه – أي اليوسي – قد سقط في مهاوي الوسواس الخناس، فتناسي الآيات البنات، والتي لو تلاها لما انهزم أمام كيد الحرضيين بفاس.

ولن نطيل أكثر من هذا، مع مراسلات هذا الشيخ، خاصة وأننا اعتمدنا – فيما سبق – وفي الفصل الخاص بعلاقة التستاوتي الزاوية تمكروت اعتمدنا على الرسائل الناصرية. وإن كان التناول هنالك يختلف عما ما أردناه هنا، من إبراز التأثير الفكري والصوفي لهذه الرسائل في نفوس طائفة من النخبة وأدباء العصر. وقد حددنا إطارا لهذه التأثير، لا يخرج به إلى مجال الترسل الأدبي، علما منا بأن ابن ناصر ما كان إلا شيخا يوزع الأوراد، يقيم الشرائع ويحيى ما اندثر من السنن والآيار. وإن كان أسلوبه أحيانا يسيل بمائية البلاغة الجارية، كما في رسالته إلى أهل شفشاون السالفة الذكر[2].

وهناك خاصية أخرى تميز رسائله الصوفية، بالإضافة إلى ما أومأنا إليه، عند حديثنا عن رسائله إلى اليوسي، وهذه الخاصية تتناول هيكلة الرسالة بشكل عام. فقلما كان يرسل الخطابات الطويلة في هذا المضمار، حيث أن أغلب رسائله إلى مريديه وأتباعه قصيرة لا تطول. بل تقصر أحيانا، للتحول إلى ما يشبه التوقيعات كما

---

[1] في العدد الخاص باليوسي، من مجلة المناهل حاول بعض الباحثين (ع الرحمن الفاسي – والأستاذ زمامة) أن يوهموا الدارسين بأن اليوسي كان يعاني من عقد نفسه تجاه علماء فاس وحضارة فاس، وهو البدوي المشحون بقيم البداوة والخشونة.

[2] نحن لا نخالف ما ذهبت إليه القبلى من أن أثر الزاوية الدلائية واضح في رسائل اليوسي وغيره، باعتبار أن أدباء الزاوية الدلائية تعتبر بمثابة مدرسة أدبية عرفتها هذه الفترة. ومن هذه الناحية فإن رسائل اليوسي من جهة الأسلوب الأدبي متأثرة بالمدرسة الدلائية والتي بدورها في الترسل خاصة تسير على هدي الخطة السعدية، كما اشرنا سابقا. انظر رسائل اليوسي ١/١١٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في الأجوبة التي احتواها كتاب "نزهة الناظر"، وأقصر هذه التوقيعات الصوفية ما في هذا الجواب عن كتاب السابع الذي راسله به أحمد بن عبد القادر التستاوتي :

(.. وعليك السلام، ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فقد أذنت لك وسوغت. وكتب محمد ابن ناصر كان الله له آمين[١]).

ومن المراسلات من كان يوقعها بنفسه وبخطه، ومنها من كان يمليه، أو يأمر أحد أبنائه ليكتبها نيابة عنه[٢].

هذا هو ابن ناصر لدرعي، مؤسس الزاوية الناصرية، وصاحب الرسائل الصوفية وغير الصوفية، وهو الممدوح بالدلية اليوسية التي عارضها غير واحد من أدباء هذا العصر. دلله على قوة الشخصية الروحية التي كان يمتاز بها محمد ابن ناصر[٣].

وما اليوسي، وصاحبنا التستاوتي إلا قبسين من مشكاة أنوار هذه الزاوية الناصرية. وهما من أبرز أدباء هذه الفترة التي تمتد ما قبل التأسيس العلوي للدولة إلى أيام التركيز والقوة على عهد السلطان الكبير إسماعيل. ولا يمكن للباحث أن يدرك حقيقة الأمر في شخصية هذين الرجلين، إذا لم يربطهما بجذور هذه الفترة ومكوناتها وخلفياتها. وكذلك فلا يمكن الفصل مطلقا – ونحن ندرس أدب التستاوتي – بين هذا الثالوث.

- الشيخ ابن ناصر الدرعي وزاويته
- الشيخ أبو علي اليوسي

لأن رسائل التستاوتي مرتبطة برسائل اليوسي، ولأن اليوسي هو الواسطة الروحية بين التستاوتي وابن الناصر الدرعي. وهذا الربط الجزئي هنا، في باب

---

[١] نزهة التستاوتي ١/ورقة ١٩ ص ٣٦.

[٢] في أجوبة ابن ناصر إلى التستاوتي ما يعادل نصفها أو أكثر، هو بالنيابة عنه، من الجواب الثامن إلى الجواب عن الكتاب السادس عشر.

[٣] أنظر "في ظلال الزاوية الناصرية" الفصل الثاني من القسم الأول من هذا البحث.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المراسلات، قد يتحول إلى ربط كللي يحيط بتجربة التستاوتي الصوفية والأدبية على السواء.

كان من اللازم علينا، ونحن نرصد ظاهرة المراسلات في هذا العصر أن نجعل من رسائل ابن ناصر الدرعي، الحجر الأساس في بناء الفكر الصوفي والاجتماعي لشخصيات، ستلعب دورا حاسما ففي توجيه الثقافة المغربية خلال تاريخ ما بعد الحركتين : الدلائية والعياشية. ولم نكن نقصد بهذا الربط العضوي ما يمكن أن يعبر عنه بالمدرسة الأدبية، لأن مؤسس الزاوية الناصرية – كما اشرنا مرارا– ما كان ليرمي، وهو الصوفي السني، إلى تأسيس مدرسة أسلوبية أدبية. بقدر ما كان يريد تأصيل فكر صوفي سيلعب دور التوجيه الاجتماعي والسياسي في مغرب القرن الحادي عشر، إلى جانب النماذج الأخرى التي كان لها دور الفعل والتوجيه.

أما إذا حاولنا الحديث عن رسائل التستاوتي في إطار عصرها، من الناحية الأدبية، وبناء على الملاحظات السابقة من كون هذا العصر، قد عرف تحركا مثيرا. في أدب المراسلات، وبجميع أغراضها وأصنافها، من إخوانية وصوفية وعلمية، وسياسية، نعم إذا حاولنا هذا، فإنه من الواجب علينا، أن نجعل من مراسلات العياشي، ومكاتبات اليوسي، نماذج تحتذي في هذا السياق. لأن الرجلين، اليوسي والعياشي، يعتبران، في ميزان القيمة الأدبية، أمام النثر المغربي في هذه الفترة. وهذا راجع إلى عدة عوامل، تضافرت وتكاملت لتصنع شخصية كل من أبي سالم، وأبي علي اليوسي.

ولقد تساءلت، مرارا، وأنا أدرس العلاقات التي كانت سائدة بين شخصيات هذه الفترة عن الأسباب التي تغيب فيها أبو سالم العياشي من الحضور في نزهة الناضر، علما منا، بأن التستاوتي، قد أفرد له ترجمة قصيرة ونوه به وبعمله وأدبه، بل أنهما قد التقيا وتذاكرا معا. وأبو سالم هذا، ومن الحق بهم ممن عاصرهم أحمد بن عبد القادر التستاوتي يقول :

وقد كان عبدُ الله نجل محمدٍ سليل أبي بكرٍ منيباً وهاديا[1]

[1] نزهة التستاوتي، ج ١ ورقة ١٦٢، ص. ٣٢٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وفي شرحه لهذا البيت من منظومته نقرأ ما يلي : "وعبد الله هو الشيخ الإمام العالم العامل الحاج سيدي عبد الله العياشي. وقد رأيته واجتمعت به، ولا رأيت به باسا – رضي الله عنه – وقد اجتمع مع الأشياخ بالمشرق والمغرب، وأكثرهم له نفعا للشيخ عبد القادر الفاسي، والشيخ محمد ابن ناصر.

وله تواليف ورحلة عظيمة. وأبوه هو الشيخ السيد محمد بن أبي بكر العياشي، مات بعد الخمسين. وولده عبد الله المذكور، مات سنة تسع وثمانين وألف رضي الله عنهما"[١].

هذه اللمحة البدرية، في ترجمة التستاوتي للعياشي، هي التي جعلتني أطرح التساؤل عن غياب صاحب الرحلة من نزهة الناظر. ومهما يكن من أمر هذه الصحبة بين الرجلين، فإن الحقيقة التي لا يجب إنكارها، هو أن التستاوني مدين في تكوينه وتوجيهه الثقافي والأدبي إلى هذين الرجلين : اليوسي والعياشي.

وإن كان أبو علي الحسن بن مسعود يتربع كرسي الأستاذية المباشرة لما بين التستاوتي واليوسي من العلاقة الوطيدة. وقد عقدنا لهما بابا مفردا في بابه. كما أن الحديث عن رسائل الرجلين، سيأخذ منا وقت آخر عند عرضنا لرجالات العصر من خلال نزهة الناظر.

وكنت أود أن أجد ما يشفي غلتي، بخصوص رسائل العياشي في البحث الذي نوقش أخيرا في كلية الآداب بفاس عن أبي سالم العياشي شاعرا[٢] إلا أن صاحب البحث لم يكتب عن هذا الجانب سوى فقرتين من صفحة واحدة، (ولأبي سالم العياشي مجموعة من الرسائل الإخوانية، يتحدث فيها عن الشوق والمودة والهجر والعتاب. ومن أبرز رسائله الموجهة إلى عثمان بن علي اليوسي، وعبد الرحمان بن

---

[١] نزهة التستاوتي، ج ١ ورقة ١٦٢، ص. ٣٢٢.

[٢] الرسالة تقدم بها الطالب عبد الله بنصر علي، تحت إشراف الدكتور محمد الكتاني. ونوقشت يوم الجمعة ١٤٠٤ موافق ٦ يوليوز ١٩٨٤. وقد أعارها لي في صيف ٧٤ الأستاذ عبد السلام الهراس. فله الشكر.

ومما أثار انتباهي هو اعتماد الباحث على نزهة الناظر دور أن يجعلها من المصادر التي ترجمت للعياشي. لهذا قلت بأن ترجمة التستاوتي للعياشي بمثابة اللمحة البدرية : قلَّ من الباحثين من تنبه إليها، ممن درسوا العياشي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عبد القادر الفاسي والحسن بن مسعود اليوسي... وتتميز هذه الرسائل بمزاوجة اشعر والنثر والعناية بالتعبر والالتزام بالفواصل والأسجاع...)[١].

ومراسلة العياشي موجودة إما في المجموع الذي تضمن رسائل الأسرة العياشية[٢] أو في الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم "خاصة في الباب الثاني من أبوب هذا الكتاب[٣] في رسائله ومكاتباته ووصاياه) وفي هذا القسم نقرأ المراسلات والمراجعات التي دارت بين اليوسي والعياشي[٤].

كما أن الرحلة المطبوعة قد تضمنت بعض المراسلات العياشية، وتتصدرها مكتنا تباته الإخوانية إلى عثمان بن علي اليوسي. وقد التزم فيها العياشي أسلوب الترسل المعهود لدى بلغاء المدرسة الدلائية والمدرسة السعدية على السواء. وسنختار من هذه المراسلات ما يمثل بوضوح هذا الاتجاه الأدبي في كتابه الرسائل الإخوانية. والعياشي، قد قصد إلى هذا قصدا، ليظهر لصاحبه "**أبي عمر عثمان بن علي**" فنونا من المخاطات والمداعبات والمعاتبات نظما ونثرا ووشحته –يصرح العياشي – بمواعظ تلين لها القلوب القاسية، وزواجر تتذكر بها العقول الناسية، وأمثال غريبة، وحكم عجيبة... [٥].

والرسالة تجمع بين الوصف الموضوعي لجانب من جوانب الرحلة، والتي أراد تطعيمها بهذه المكاتبات والمراجعات، لتكون مادة للعلم والثقافة والأدب. وفي هذا يقول العياشي، مقدما لهذا الباب، في مستهل ما كتب به من طرابلس إلى أشياخه وإخوانه بالمغرب– (إذ لا يخلو ذلك من فوائد وأغراض لأجلها كتب الرحلة)[٦] وتجمع كذلك بين الصدق الذاتي لحالات الحاج المسافر، عبر الفيافي والقفار، دون أن يتسرب إلى نفسه شعور باليأس والقنوط، فيقيم الشعائر، ويتدارس مع الجماعة المصاحبة مسائل في الفقه والدين.

---

[١] أبو سالم العياشي شاعرا /١، ص ١١٧ (نسخة مرقونة)

[٢] نفسه. والإحالة في هامش الصفحة ١١٧ رقم (١)

[٣] نفسه. والإحالة في هامش الصفحة ١١٧ رقم (١)

[٤] الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم، مخطوط خ ع رقم (ك : ٣٠٤)

[٥] رحلة العياشي ١٧٦/١ (مصورة بالأوفسيط، من إخراج محمد حجي)

[٦] رحلة العياشي ٦٩/١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ونظير هذا اللون في فن المراسلات، قد نجده عند الشيخ زروق، في الرسالة/التقرير، التي بعثها إلى واحد من أصحابه وقد أطلعه فيها على حالة التصوف بالديار المصرية، والحالة أنه كان راجعا من الديار المقدسة. ما أكثر من هذه المراسلات في كتب الرحلات الحجازية[1].

ويبدو من معاني الرسالة، ومضمونها، أن المرسل إليه أبا عمرو عثمان بن علي اليوسي، كان واحدا من ركب الحاج المغربي، إلا أنه عدل عن الفريق وأصبح العياشي بلا رفيق، والرفيق قبل الطريق.

... أما بعد، فنحن والحمد لله في أودية نعم الله نتقلب، وللمزيد منه مع الأنفاس نتطلب، قد صيرنا الهموم كلها هما واحدا، وأعرضنا عما كان على مقصودنا زائدا، نقطع المجاهل ونرد المناهل، وننعطف مع منعرج اللوى، حيثما التوى. ونسلك بين كثبان الرمل في مثل خط النمل، ونتبع آثار الرواحل، ولا نعد المراحل. وطبنا بذلك نفسا، ولم نرفع سواه رأسا :

على مثل ذا، فليبك من ضاع عمـــــــــــــــــــــره وحق على النوم إذ ضاع سعيه إذا رامها صدته عنها رياسة

وليس له فيها نصيب ولا سهم
وليس له اسم في المعالي ولا وسم
كفعل الذي من أجلها كتب الرسم

هذا ولم نزل في طريقنا نتذكر رجوعكم من الطريق، وعدولكم عن ذلك الفريق، فنتأسف على ذلك غاية، ونراه على تمكنكم في الرياسة أعظم آية، وما كان أحوجكم على اللحاق بنا، والسير معنا...) وعلى هذا الأسلوب تتحرك فقرات الرسالة، ينتقل فيها صاحبها من خطاب التشويق والترغيب إلى خطاب اللوم والعتاب. والعياشي في كل ذلك يولد المعاني، ويتفنن في المباني. (ومما يوقد نار أشجانكم ويثير رياح أحزانكم، ويكثر تأسفكم به على مرافقتنا، وتلهفاتكم على عدم موافقتنا، وتقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا، ما أنعم الله به علينا من المشي في ركب قل ما يتيسر مثله، قوة وكثرة ونجدة، خال من

[1] راجع كتاب "أحمد زروق والزروقية" لعلي فهمي حثيم. فالرسالة مثبتة في بابها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأوباش وكثرة من يغدو في لاش لا تكاد تسمع فيه سوت مخاصمة ولا منازعة[1].. ولا تخلو الرسالة، وهي صادرة عن ركب الحاج المغربي، الذي يستقبل مقام التوبة والمراجعة، لا تخلو من قبسات الوعظ والتأمل الدينيين، لأن المقام يقتضي مقالا مناسبا، مراعاة لمقتضى الحال كما يقال. وهكذا، يرسل العياشي إلى صاحبه "زاد المعاد" ملفوف في قوالب الأمر والنهي والتحذير والتبشير، مما يسجل النزوع الصوفي في كتابات العياشي، فهو كثير الاستشهاد بكلام القوم، كما مر فأبيات ابن الفارض السابقة، إضافة إلى ما في الرسالة من آيات مقتبسات، وحكم ابن عطاء الله السكندري، وغير ذلك.

هذا الجانب التصوفي يشغل من الرحلة حيزا غير قليل. سواء تعلق الأمر بالحديث العلمي عن التصوف وطرائفه وأشياخه، أو جاء الحديث الصوفي داخل المكاتبات والمخاطبات، كما في هذه الرسالة (والله الله يا أخي في إصلاح نفسك والزيادة على أمسك وإعداد الزاد ليوم رمسك، ولا تركنن إلى شيء دون الله، ولا تتهمه فيما وعدك، ولا تستهن به فيما أوعدك، واتهم رأيك واستعص سعيك، ولا يغرنك انتشار الصيت وارتفاع الجاه الدنيوي، فإن الرجل يملأ صيته ما بين المشرق والمغرب، ولا يزن عند الله جناح بعوضة... وهذه عجالة كتبتها وأنا متقدم أمام الركب، ولو اتسع الوقت لزدت وفيها إن شاء الله كفاية...)

وفي ختام الرسالة يتوجه العياشي إلى صاحبه بجمل قصيرة ومسجوعة وذات مزاوجة وازدواج، وهو في ذلك يقترب من سجع الكهان أحيانا، ويمتاح من منهل القرآن أحيانا (فقد جاء الفرح، وزال الترح، وظهرت البشارات، على قالبك، ورمز حالك : يا أهل الهم، وحمالة الذم، إياكم والعجلة، فإنها خجلة، وتبثوا وعلى المنهج أثبتوا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا ويخمد حربا كان مشعولا، وكن ابن وقتك، وخف من مقتك، واسبل الستر، واكتم السر، وهلل وكبر ولا تدبر... وهذا كله لا يفهم، وليست له حقيقة فيستفهم، فلا تتعب نفسك في فهمه، ولا تشتغل بمدحه ولا ذمه. ولا تنسانا من

[1] الرحلة ٧٨/١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

صالح دعواتك، في أدبار صلواتك، خصوصا في أوقات الخلوات، والخروج إلى الفلوات...) [1].

وما أحسب العياشي، بهذا الأسلوب المرتكز على خصوصيات بلاغية وإنشائية، وما أحسبنه وهو يعظ ويأمر وينهي، ويوصي ولا يستوصي إلا الحكيم البليغ صفي بن أكثم، وأحسبه – كذلك – خطيبا يهش يحمله وعصاه على صاحبه وركب الحجاج.

هذا لون من ألوان المراسلات الإخوانية، فيها من الصنعة ما فيها. لأن المقام يقتضي هذا المقال. لكن العياشي، كغيره كان يراعي حال المخاطب، كما يراعي حال الخطاب.

وفي الرحلة مكاتبات عائلية تجري على سنن الأسلوب العادي، فهو يقول في رحلته "**ومما كتبته لأهل دارنا**"[2] كتحديد لمستويات الخطاب والمخاطبين. وفي نظر الباحث الاجتماعي والتاريخي تعتبر هذه الرسائل العادية ذات قيمة كبرى لأن العياشي لم يكن يقصد فيها التعبير عن قوة التعبير، بل كان هدفه إخبار المخاطبين بحالاته وأحواله وما رآه وسمعه ولاحظه، وقد تأتي في سياق هذه الرسائل العادية حقائق تاريخية واجتماعية واقتصادية تفيد الباحث المؤرخ لهذه الفترة وفي تلك البلدان الموصوفة، كما في هذه الرسالة الموجهة إلى أهل داره. فهو يحدثنا عن أمور اقتصادية، وعادات اجتماعية ومظاهر ثقافية، (ثم بلغنا مدينة واركلا بعد اثني عشر مرحلة أخرى، وصادفنا فيه وقوافل الأعراب جاءت تمتاز تمرا، وقدموا بغنم كثير وسمن غزير فاشترى الناس من ذلك فوق الحاجة، وتنعموا فيه أربع ليال... ومن هنالك أخذت في شراء القمح لفراغ الزاد الذي قدمنا به من عندكم، فوجدناها لا بأس بها في الأسعار، فالتمر رخيص جدا فيها وفي واركلا أيضا، والزرع تسع صاع بريال... وقد استفدت سفرا من نوازل البرزلي وهو الأخير، بثمن بخس، واستفدت أيضا مجموعا من كيرا اغتبطت به كثيرا فيه ابن الشاط علي الفروق من تأليف الفقيه

---

[1] الرحلة ١/٨٠.

[2] الرحلة ١/٨٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

راشد في الحلال والحرام. وعلى كل، فنعم الله علينا قد غمرت كل مشقة، وقصرت كل شقة...)[1].

هذه فقرة من رسالة العياشي إلى أهل داره، وقد كان فيها مقررا للحقائق لا مفتقا أزهار الشقائق من العبارات والرقائق.

وهناك رسالة أخرى راسل بها اليوسي، مهنئا ومتشوقا، وهي من الناحية الفنية تقف من الرسالتين السالفتين في الموقع الوسط، فهي خالية من فنون المكاتبات والإفراط فيها، كما أنها ترتفع عن مستوى التقريرية العادية، كما لاحظنا في حالته إلى أهل داره. وهذا الملحظ خرجت به كذلك محققة رسائل اليوسي، في حديثها المختصر عن "الرسالة في عصر اليوسي، دورها ومكانتها"[2].

ونقرأ فيها بعد التجليات والتصليات والدعوات، ما يلي : (أما بعد، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إلاه إلا هو الحي القيوم وأنهي إلى كريم علمكم أنا بحمد الله –تعالى– على خير وعافية، نتقلب في ألاء ربنا ظهرا لبطن من غير استحقاق منا. فله المنة والطول، ونحن على محبتكم ومودتكم، نسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه، ويحشرنا بها في زمرة المتحابين فيه في ظل عرشه وقد كنا انتظرنا مروركم بنا إبان أو بتكم من جهتكم المباركة – تقبل الله منك – لننعم برؤية من رأى، ونتنسم منكم روائح التعريف بأهل حضرة الله، إذ لا يشك أنكم لا تنقلبون من حضرة أولئك المشائخ، إلا بملء الحقائب من تحف المواهب. ومن يحقق بحالة لم يخل حاضروه منها فليهنئك أبا العزم الصادق الذي إذا توجه إلى فضيلة حاز منتهاها، والهمة التي لا ترضى من المراتب إلا بأعلاه يمر علينا بمنة ويسره لاقتناص المحامد ونحن راقدون، وترجع بملء اليدين من الرغائب ونحن غافلون. والمواهب أقسام، والناس في أحوازها أقسام. وهنيئا لركب صاحبوك فأشرقت عليهم أنوار عرفناك، وحفتهم مداد إيقانك :

من فاته الحسنُ البصريّ يصحبه فليصحبِ الحسنَ اليوسيَّ يكفيهِ

---

[1] الرحلة ٨٧/١.

[2] رسائل اليوسي ١/ ٦٦/و١٠٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد صادق بياض هذه البطاقة عن شرح ما يكنه القلب من الاشتياق، والتلهف على ما فات من التلاق فنطو البساط على ما فيه، وليضع المتلهف يده على فيه. والسلام[1].

هذه رسالة كما قلنا يقف ترسل العياشي موقفا وسطا، ولعل الباعث على ذلك، هو أن التهنئة في موضوعها لا تتطلب كد ذهن العائد من الديار المقدسة، بعد عناء الرحلة ووعاء السفر. ولو كان المقام – في التهنئة – غير هذا، لحفلت البطاقة بألوان من البديع لا تحصى. ثم إن الخطاب يستوجب الوقار والاختصار. مما جعل الرسالة مهتمة بالمعنى المراد إيصاله أكثر من اهتمامها بالألفاظ وتسيقها أو تساوقها. ولكن هذا لا يعني أن العياشي تجرد مطلقا من الصنعة الخفيفة، والتي انطلقت من عفوية السياق دون تعمل مقصود، فقد طابق وجانس، وأسجع، لأنه إنما يخاطب رجلا لا كالرجال، فاليوسي كما تصوره العياشي، أمام في الزهد، وأمام في التقي. وهو في هذا وذاك صورة للحسن البصري في مغرب القرن الحادي عشر. ومن هذا الجانب أيضا كان خطاب العياشي يجري على هذا المنوال[2].

إن رسائل اليوسي تعد من المصادر التي تلتقي على صعيد واحد مع رسائل التستاوتي، لا من حيث القيمة أو التفاصل، ولا –كذلك– من حيث الكم والكيف، ولكن من حيث ارتباطها بعصر الرسائل وازدهارها وزواجها بين الأوساط الصوفية

---

[1] رسائل اليوسي، نقلا عن "الثغر الباسم" إلا أن المحققة اعتمدت على نسخة خ ع رقم (ك ٣١٨) ولعله غلط لأن رقم المخطوط هو (ك ٣٠٤) اللهم إلا أن تكون الخزانة الكتانية تحتوي على نسختين من "الثغر الباسم" انظر الهامش (١) من ص ١٠٧ من الرسائل المطبوعة.

[2] لقد أشار اليوسي إلى هذه التهنئة في محاضراته. ومن خلال السياق نشعر بأن اليوسي راقه جدا تشبيهه بالحسن البصري وإنما ذكرت هذا – يقول اليوسي – رجاء وطماعية في اللحاق بالصالحين أو بمحبيهم أو بمحبي محبيهم وتبركا بذكرهم.. (المحاضرات ص ١٦ – الرباط).

ولقد تردد هذا الوصف بالنموذج / المثال، في بعض أمداح الشاعر ابن زاكور لشيخه اليوسي، كما في تفريطة للدلالية بقول ابن زاكور :

بز الذين تقدمـــو واستشهد الأخبار ترشد
فسميه "البصري، ولـو رزق الحيــاة له تردد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والاجتماعية. ومن هذه الزاوية يمكن فهم الرسائل العديدة التي حبرها قلم التستاوتي[١] . أما عن المقارنة بين هذه وتلك، فإن الفرق يبدو واضحا للباحث والقارئ على السواء، فرسائل اليوسي التي تعدت الرسالة الستين[٢] إنما كانت تصدر عن رجل يمثل خلاصة عصره الثقافي، فضخصيته كعالم وأديب، ومكانته في مجتمعه وقومه، إضافة على عوامل أخرى، تفاعلت مع الذات اليوسية، لتكون بمجموعها الرسائل وغيرها.

أما رسائل التستاوتي، فهي صادرة عن رجل ارتمى في أحضان التصوف دون قيد أو شرط، فلم يدخل علمه فقيها علاما، كما فعل اليوسي، بل ألقي فيه بشوق حد التصور. وقد كان اليوسي هو الواسطة كما ذكرنا ذلك مرارا. وإذا كانت رسائل اليوسي، يغلب عليها الطابع الموضعي حسيب التقسيم الذي خرجت به محققة الرسائل :

* في الشؤون العامة وأحوال المجتمع
* في التصوف
* في التوحيد
* في الفقه[٣]...

فإن رسائل التستاوتي يغلب عليها الطابع الذاتي، بل هي من الذات تنطلق حتى ولو كانت في التصوف وما في مجراه. ثم إن التستاوتي قد ابتلى بمحنة كانت مصدرا ثرا للكتابة والمراسلات. الأمر الذي لا نجد له نظيرا في رسائل اليوسي، وإن كان قد ابتلى هو نفسه ببلايا أخرى، بقيت محصورة في نطاق الترحيل والمتابعة من جانب السلطان، من جهة أخرى. أما التستاوتي، كما مر، في الفصل الخاص عن محنته، فقد فصل عن الأهل والدار والأقارب والإخوان طيلة سنتين، ليقضي الله أمرا

---

[١] يحتوي كتاب نزهة الناظر على ما يقرب من (٢٠٠ رسالة) وثلث هذه الرسائل صاجرة من الغير إليه، والثلثان الباقيان من رسائله انظر الجداول المفصلة لذلك.

[٢] ويحتوي كتاب (رسائل اليوسي) المطبوعة على (٦٢ رسالة) مع واحدة أخرى تنسب إليه. وإذا أضفنا إلى هذا العدد رسائل اليوسي المبثوقة في كتاب "نزهة الناظر" وهي (١٣ رسالة) ورسائل أخرى وجهت إلى غير التستاوتي (وهي مفقودة)أصبحت الرسائل اليوسية تقرب من الثمانين.

[٣] انظر الفصل الثاني من "رسائل اليوسي" ٦٥/١، وما بعدها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كان مقدرا عليه. ولكن العصر قد ربح مجموعة من المراسلات انطلقت من حبس فاس الجديد، تعبيرا عن البلية النازلة على صاحبنا.

ولسنا هنا، بصدد التقييم العام لهذه الرسائل، وإنما الغاية هو ربطها تاريخيا برسائل اليوسي، كما ربطنا هذه برسائل ابن ناصر الدرعي. وليس من شك في أن التستاوتي كان على علم برسائل صاحبه، بل إنه كان يقرؤها ويتمثلها، ويتأثر بغاياتها وأهدافها. ومن باب التذكر، فقط، فإننا قد ربطنا بخيط المقارنة بين رسالة اليوسي إلى السلطان إسماعيل والموسومة بـ : (ببراءة اليوسي)، وبين رسالة التستاوتي حول المهدي والمهدوية. وذلك في فصل سابق من فصول هذا البحث[١] وهكذا، نجد بعض الرسائل الصوفية – القصيرة منها وغير القصيرة – يكتبها التستاوتي بتأثير بين مما كتبه اليوسي. وعلى سبيل المثال، فإن رسالة هذا الأخير، والذي عرفت به "**النصيحة الغياثية**"[٢] قد اختصرتها إحدى رسائل التستاوتي إلى ولده إبراهيم. والرسالة تتحدث عن أحوال العبد وعلاقته بربهن وهذه الأحوال قد حصرها اليوسي – وكذا التستاوتي – في أربعة (الطاعة والمعصية والنعمة والبلية)[٣]. إلا أن اليوسي – كما قلنا – كان في نصيحته الغياثية – محللا وشارحا ومقارنا النصوص ببعضها، مع ربط ذلك بالعلاقة التي تربط الإنسان بخالقه، ومن المنظور الأخلاقي الصوفي. أما التستاوتي، فقد كان ملمحا وعارضا باختصار شديد ما يجب على العبد أن يقوم به تجاه الأحوال الأربعة.

وليست الغاية – هنا – تحليل رسائل هذا أو ذاك، انطلاقا من هذا التأثر والتأثير، بل الغاية هو تقرير حقيقة نقدية تربط بين الشخصية اليوسية والشخصية التستاوتية، في إطار ظاهرة المراسلات وأدب الرسائل.

---

[١] رسائل اليوسي ٣١٩/٢.

[٢] النزهة ١، ورقة ٧١ ص ١٤٣/١٤٢.

[٣] انظر الغياثية، من "رسائل اليوسي" ٣٢٠/٢ وما بعدها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

القسم الثاني
(دراسة تحليلية لرسائل التستاوتي)

الفصل الأول : من الذات إلى الموضوع

١- ذاتية التستاوتي

٢- الجانب الصوفي والطرقي

٣- الجانب الاجتماعي والسياسي

الفصل الثاني : القيمة المرجعية لرسائل "نزهة الناظر"

١- القيمة الأدبية والتاريخية "لنزهة الناظر"

٢- عرض لنماذج من رسائل أعلام الوارد في كتاب "النزهة"

٣- مقاربة فنية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفصل الأول :

أولا : ذاتية التستاوتي من خلال رسائله :

– مؤشران اثنان في هذا الاتجاه

١– المحنة

٢– الترحيل

– إحساس بالظلم، إحساس بالغربة القاتلة

– حيرة واضطراب – الموت – الفرح

– تجاوب ملامتي

ثانيا : الجانب الصوفي في الرسائل

– الرسائل الصوفية، انعكاس لثقافة العصر

– قضايا صوفية :

١– الولاية ومراتبها

٢– الظاهر والباطن

٣– جوانب تربوية

ثالثا : الجانب السياسي والاجتماعي من خلال بعض الرسائل في كتاب "النزهة"

– حول ثورة أحمد بن عبد الله الدلائي

– سيادة الصوفي أم سيادة السياسي ؟ !

– موقف من المجتمع ومن الناس

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أولا :

١- من الصعوبات التي تعترضني في نزهتي هذه، مع كتاب نزهة الناظر، ما يتعلق بالفصل المنهجي الدقيق بين بعض الأبواب والفصول، مخافة الوقوع في التكرار، والتداخل المصاحبين. خاصة وأن الحديث عن التستاوتي وأدبه، إنما يأخذ مادته من آثاره الأدبية والصوفية. وقد كانت رسائله المصدر الوحيد لرصد حياته وأطوارها، ولرصد العلاقات التي كانت تربطه بشخصيات العصر، بل لرصد المواقف المختلفة التي كان يتخذها من بعض القضايا الصوفية والاجتماعية والسياسية.

من هنا تظهر قيمة الرسائل في كتاب النزهة، لا من حيث المنزع البياني فيها، بل من حيث التوثيق المرتبط بالعصر والحياة، أطرح هذه الملاحظة، وأنا أبحث عن تقسيم جديد لرسائل التستاوتي، يبعدني عن دوامة التكرار والتداخل. ولقد ساعدني في البحث عن المخرج، التقسيم الذي جدولت به الرسائل عبر إحصاء يستقصي الرسالة والمرسل والمرسل إليه. ومن خلال هذا الجرد سنتناول بعض القضايا التي سيفرضها علينا المنهج المرتضى في دراسة هذه الرسائل، من ناحية مضمونها من جهة، ومن ناحية كتابتها وأسلوبها من جهة ثانية. وإن كنا نميل إلى أن نزهة الناظر كمجموع متكامل له من القيمة التاريخية – خاصة في باب الرسائل- أكثر مما له من القيمة الأدبية الأسلوبية الإنشائية.

وهكذا، وضعت الجداول المرفقة، بناء على التقسيم الآتي :

١- من التستاوتي إلى شخصيات عصره وقد عينهم بأسمائهم.

٢- من التستاوتي إلى شخصيات لم يذكرهم بأسمائهم.

٣- من التستاوتي إلى الأولاد والأهل والأقارب.

٤- من التستاوتي إلى بعض العشائر والبطون.

٥- سلا ورجالاتها في كتاب نزهة الناظر، من خلال رسائلها.

وهذه المحاور هي التي تشكل ثلثي الرسائل في الكتاب. والثلث الباقي هو عبارة عن رسائل وجهت إليه، وهي بدورها تخضع للتقسيم السالف الذكر. وليس من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

باب الغلط والخلط، أن أجعل العنصر الخامس مستقلا عن العناصر الأربعة. فالقصد في ذلك واضح، ولا شك أننا – فيما مضى – بيننا الدور الذي قامت به مدينة سلا – في شخص الأتباع والمريدين – في الطور الأخير من حياة التستاوتي. والتقسيم السابق لا يهدف إلى التركيب، لا من جهة الموضوع ولا من جهة الكتابة الأدبية. هو تقسيم قبلي لهذا التركيب، ولأنه راعى في ذلك :

مـــن	وإلـــى
المرسل	والمرسل إليه

ولم يكن يرمي إلى فحص الرسالة من الداخل، بحثا عن المعنى، ولا من الخارج بحثا عن النسق الكتابي فيهما.

والدافع إلى هذا كله، هو طبيعة المادة في كتاب "نزهة الناظر"، إذ ليس له فهرس يبوب، ولا تصنيف يساعد، فالكل داخل في باب المكاتبات. وقراءاتي المتعددة للكتاب (في نسخة تطوان) أملت علي هذا التقسيم المفروض والمساعد، في آن واحد. إضافة إلى الجدول الكرونولوجي الذي وضعته لتصنيف المادة حسب صدورها في سياق الزمن والتاريخ. ولا يخفي علي المتمرسين بالبحوث، ما في هذا العمل من مشاق استغرقت الوقت الطويل، في خضم "نزهة" مبعثرة ومتداخلة، إلا من التقسيم المحوري الذي هو من وضع أحد الطرفين، إما التستاوتي، وإما الجامع الثاني أحمد بن عاشر الحافي.

وخارج هذا التقسيم الإحصائي، فإننا سنحدث عن رسائل النزهة، من خلال المحاور الآتية :

– **المحول الأول** : ويشمل العناصر الثلاثة :

١– ذاتية التستاوتي من خلال رسائله

٢– الجانب الصوفي للرسائل

٣– الرسائل في إطار عصرها، اجتماعيا وسياسيا.

– **المحور الثاني** : وسيرصد القيمة "المرجعية" لرسائل النزهة :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١- شخصيات العصر من خلال رسائل النزهة :

(محمد ابن ناصر الدرعي – ولده أحمد – اليوسي – القسمطيني-... إلخ)

- **المحور الثالث** : وفيه ستوضع الرسائل في معيار النقد البياني

٢- في سياق المقارنة المركزة بين رسائل اليوسي، ورسائل التستاوتي، أشرنا إلى ما يميز هذه عن تلك، وقلنا بأن رسائل اليوسي، في أغلبها تسير وفق الجانب الموضوعي، تربويا وتعليميا وسياسيا، ما عدا القليل منها استطاع أن يعكس، بإجمال دون تفصيل، بعض الملامح اليوسية، ذاتيا وشخصيا، ومن هذه الرسائل مكاتباته لصديقه التستاوتي.

أما التستاوتي هذا، فإن جل رسائله استطاعت أن تحتفظ لنا بالمميزات والخصائص الذاتية لصاحبها، بل إننا استطعنا أن نجعلها – طيلة هذه النزهة العلمية في كتاب النزهة – المصدر الوحيد في التناول، لرصد الأطوار والمعالم الكبرى في حياته.

وقد حاولنا أثناء ذلك، وفي فصول المبحث الأول، أن نرصد الجانب النفسي والاجتماعي وباقي الجوانب الأخرى من خلال بعض الرسال أو المقطوعات، فصيحة كانت أو زجلية. ولا شك أن مادة الرسائل كانت تشكل مركز الثقل في هذا الرصد.

وما زلت أعتقد بأن التستاوتي، من هذه الزاوية، يمثل الظاهرة المفردة الفريدة، بالمقارنة مع رسائل غيره[١] من معاصريه. وقد رأينا في الصفحات القلائل التي خصصناها لقراءة نفسية التستاوتي وهو في طريقه إلى الطريق الصوفي – رأيناه يعري نفسه أمام شيخه ابن ناصر، مجردا إياها من كل قميص أو محيط، وهو في ذلك – دون وعي منه – إنما كان يكتب كتابة تدخل في باب الاعترافات، وكان يحدوه

[١] تناول الأستاذ الجراري في الفصل الثاني من كتابه (عبقرية اليوسي) "شخصيته" بين الامتياح من الذات والانصهار في المجتمع. وأرجع ذلك إلى مجموعة من الاستعدادات، حصرها في سبعة. ص ٤٨، ولم تمثل رسائله في هذا إلى جزء يسيرا، بخلاف التستاوتي، فرسائله هي المادة الخام، إضافة إلى إشعاره وخطراته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في هذا العمل إيقاع الصدق المتوتر، لينطلق فيما بعد متصوفا خالي الوفاض من أوزار الماضي وأثقاله.

ورأيناه، في باب المحنة، كذلك، شخصية مضطربة المزاج، يهدأ أحيانا ويضطرب أحايين، تارة ينبسط في بساط البسط، وأحيانا يتلوى بين رحى القبض. وليس معنى هذا أن المحنة هي التي شحذت من ذاتيته وألهبنها، بل أن تكوينه الذاتي –ولعاهته دخل نسبي في هذا – كان يتفاعل بحدة مع ما كان يجري على صعيد الذات أو على باقي المستويات.

ففي رسالته إلى اليوسي – وهي الأولى من كتاب النزهة[1] نقرأ بعض الجمل التي لا تخفي ما في دواخلها ودواخل صاحبها. من توتر واضطراب وحيرة وقلق. والتستاوتي، دائما يجعل من اليوسي الرائد الذي لا يكذب أهله، والصاحب الوفي الودود :

(... وبعد، فقد سقاك الله من الشراب الأصفى، ويلغك من المقام الأوفى، فقد ظهر لي أن أبثث لك سري، وأحدثت بما كنه صدري، والغرض من ذلك عدم الغرض ورجاء حصول الغرض، وأنت في هذا الوقت أحق من يشتكى إليه، وتحط رحال المعضلات بين يديه، وأنا بخير وعافية، فلا مصباح إذا طلع الصباح...) [2].

ونراه في رسالة أخرى إلى اليوسي، يركب – في العبارة– الشيء ونقيضه، دلالة على أن نفسية صاحبها تتأرجح في أرجوحة الشك واليقين، والفرح والترح، والغياب والحضور، والحياة والموت، والكدر والصفاء، إلى آخر هذه الثنائية الضدية كما يقال. والرسالة لا تحمل تاريخا معينا، حتى نستطيع ربط الخطاب بظروفه وخلقياته. ولا يمكن أن نجعل هذا الخطاب من قبيل التلاعب الفظي تعبيرا وأسلوبا، لأن الرسالة تنتهي بعبارة دالة على المقصود : "وادع الله لي فإني مع كبر سني ما صليت ولا صمت، ولا ارعوبت. والسلام[3] " ومن خلال هذه العبارة يمكن لنا بالترجيح النسبي وتحديد الإطار الزمني لها، أي أنها ربما قد كتبت في بداية العهد الصوفي،

---

[1] نزهة الناظر ١/ورقة ٢٨ ص٥٣/٥٤.

[2] م.ن والإحالة.

[3] نزهة الناظر ١/ورقة ٣٠، ص. ٥٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أي قبل وفاة الشيخ ابن ناصر ١٠٨٥ هـ لما في تلك العبارة من لهجة اعترافية : (إلى من لا بأس، أن نجعل قدمه على الرأس، الشيخ الإمام أبي علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي... وبعد / أماتك الله وأحياك، ثم أماتك وأحياك، وأكرم بتجليه محياك، واخصب بمشاهدتك إياه روض محياك، فإني كنت فيما كنت أظن أني كنت، إلى أن أسفرت الشمس، وفاح ارج النسيم من القدس، أيقنت أني كنت كما ظنيت ؟ وإلا حاولت مناولة ما به تغنيت، فانعكس الفرح ترحا، وعاد الترح فرحا، وحصل الاعتلال من الماء الزلال، وما كنت أظن أن العسل يشاب، ورأس من لم يبلغ الحنث يشاب، فطال تعبي، وكثر تعجبي. كيف لا أتعجب وأنا أنظر إلى انعكاس القضيات واختلاف المرئيات، وكيف لا أتعجب وأن ليس للإنسان إلا ما سعى...) وعلى هذه الوثيرة الضدية ينشر التستاوتي بين يدي اليوسي شتيت أفكاره وغايات مراده وهو في كل ذلك يحاول أن يصنع لنفسه عالما مثاليا، يتخذ من التصوف أعمدته الأساسية وما أحسبه في هذا الصراع إلا واحدا من روما نسي شعراء المهجر المحدثين، حين يحاولون تفتيت"**الثنائيــة**" الكونية، عن طريق التفاعل بين الشيء ونقيضه. (فما يصنع المحجوب غير حجاب، ولا المعاتب من غير عتاب، ومن أمر بخلع النعال لمعاينة الجمال، ولم يمتثل المقال، أيطمع في النوال على هذه الحال...) وفي آخر الرسالة، يقدم التستاوتي لبعض الأبيات بهذه الجملة المعبرة عن حالته **الذاتية "الصوفية"** وإنما أشكو بثي وحزني إلى الله :

فلا البرق يبدو من تجاه معذبي ويخبرني عما به الدهر قد فعل[١]

إلى آخر الأبيات التي أردفها بأبيات أخرى على روي القافية بعد (أن جرد مخاطبها من النفس، وأتغنى له في حضرة القدس)[٢] – وهناك رسالة كتبها التستاوتي – وقد مرت الإشارة إليها – إلى صديقه أحمد بن محمد الهشتوكي، بعد أن عاش تجربة مرة كادت أن تودي بعلاقته بابن ناصر الخليفة إلى القطيعة الصوفية. ولن نعيد هنا سبق أن محصناه من قول حول قصة هذه العلاقة وما حصل بين الرجلين، حسبنا أن

---

[١] نزهة الناظر ١/ورقة ٣٠ ص ٥٨، والرسالة في المجموع الخطي لكناشة الحافي ص ٦، (في ملك محمد الوافي العراقي).

[٢] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يسجل الذبذبات الذاتية في هذه الرسالة التي تجمع بين الخطاب الذاتي والخطاب الموضوعي الصوفي، وفي مستهل الرسالة، يحكي لنا التستاوتي في سطور قلائل عن الحالة التي اعترته من جراء الحادثة المشار إليها : (وقد كنت برهة من الدهر مترددا فيمن أبثه إسقامي وانثه حر أوامي، وإن كنت أظن بالناس خيرا، لكن خشيت أن أثير عليهم شرا، فكتمت السر وقبضت البنان على الجمر، وما زلت كذلك أقعد وأقوم، وأترقب وأحوم إلى أن يسمح أخي أو العباس العلامة السيد أحمد بن محمد الهشتوكي بقطرة من سحابه، وذرة من لذيذ خطابه، فتبهت من الرقاد، وقلت أرجو أن أنال منه المراد، وأنشدته :

لعمرك قد ذكرتني ما نسيته وأيقظت طرفا طال عن ذلك ما غفل

وقد أن لي أن أشرح له الحال، وأذكر ما قيل من القيل والقال...)[1]

أما الجانب الموضوعي، غير الذاتي، فيها، فقد تناول فنونا شتى من ألوان القول والتصوف والفقه والدين. والذي يقرأ هذه الرسالة – وهي من مطولات رسائله – يدرك مدى التمحور الذاتي فيها، وإن كان الحديث المرسل في السياق هو عن التصوف وما في معناه. لأن الباعث الخلفي ذاتي محض، انطلاقا من أسلوب الخطاب، وانطلاقا كذلك من الذيباجة وبراعة الاستهلال.

أما عن تاريخ هذه الرسالة، فهو متزامن مع الإرهاصات التي نفخت في "**أنا**" التستاوتي الذاتية والصوفية، قبيل محنته بسنتين فقط، أي أن الرسالة كتبها صاحبها في (الرابع والعشرين من صفر عام اثنين بعد المائة)[2] واليوسي كان على قيد الحياة، حيث أن الخط الكرونولوجي لإنتاجه لم يسجل لنا خلال هذه السنة إلا رسالتين، أولاهما التي نتحدث عنها وآخرهما، تلك التي بعثها إلى الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي، وقد انتصر فيها التستاوتي في الصراع الدار الذي كان بين أتباع اليوسي وأتباع ابن ناصر، حول مشيخة وتوزيع الأوراد.

---

[1] نزهة الناظر ١، ورقة ٤٢، ص ٨٢.

[2] م.ن والإحالة .....، ص ٨١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٣- وإذا كان الأقارب يشكلون المجال الأقرب إلى ذات المرسل، فإن المرسلات بين نقطتي وإبعاد هذا المجال، هي أقرب إلى الذاتية من غيرها، إذ ليس هناك غير الأقارب ممن يختارون للصدق في الخطاب، أو الصراحة في الجواب.

ومن هذه الزاوية، فإن رسائل التستاوتي إلى أهله وأقاربه، من أولاده وأزواجه وإخوانه، تعد المصدر الأساسي في فهم شخصيته ومنطلقاتها الذاتية، بل في فهم الكثير مما هو غامض على صعيد القضايا والموضوعات.

ورسائل النزهة، قد احتفظت لنا بعدد ليس بالقليل في هذا المجال، كما توضحه الفهارس المجدولة لرسائله[١].

وهذه الرسائل، لا يمكن الإمساك بخيوطها الذاتية والموضوعية، إذا نحن لم ندخلها في مجال المرصد التاريخي والزمني، وهذا المرصد له مؤشران اثنان :

المؤشر الأول : يتحرك في الإطار الزمني لمحنته ابتداء من عام (١١٠٤ على سنة ١١٠٦)، حيث كان المرسل مبعدا عن المرسل إليهم، أولادا كانوا أم إخوانا، من الأهل كانوا أم من الأصحاب.

أما المؤشر الثاني : فيترصد الترحيل الإجباري الذي كان يتعرض له التستاوتي، إما بالتبعية لليوسي، باعتباره المثقف المقرب إليه، وإما بعد وفاة اليوسي بأزمنة متقطعة وهذه الظاهرة – أي ظاهرة الترحيل – قد ربطناها قبل، بالعوامل المباشرة وغير المباشرة.

ومما ساعد على هذا التحرك الإرسالي، هو وجود التستاوتي على راس أسرة كبيرة العدد، وكأنه كان يلخص أسرة آل المباركين، الذين ينحدرون من الشيخ – الجد – محمد بن مبارك الزعري. وهو في رسائله – كذلك – إلى آل مبارك هذا، إنما يتنزل منزلة الرجل الكبير، كما تفيد بعض المراسلات الأهلية والعشائرية.

وانطلاقا من التعامل مع الجداول المفهرسة لهذه الرسائل، وبخاصة ما كتبه إلى الأهل والأولاد والأقارب، فإننا سنخرج بنتيجة واحدة هو أن الفصل بين الذاتي

---

[١] انظر الجدول الإحصائي عن رسائل الأهل والأولاد والإخوان.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والصوفي فيها يصعب إمساك الخيط فيه، نظرا لتلاحم المعنيين في الرسالة الواحدة. وحتى في المراسلات الصادرة من السجن، والتي هي ادعى إلى التعبير عن الذات، حتى في هذه كان التستاوتي المرسل واحدا، هو التستاوتي الصوفي، والصوفي التستاوتي. ولننطلق إلى الفقرات والنصوص، بعد هذا التنظير القبلي.

إن التستاوتي راسل ولده إبراهيم مراسلات عديدة، فهي حسب الجدول الإحصائي تناهز العشرين رسالة، وبالمقابل فإن ولده محمد الشريف – وقد مات مبكرا – لم يحظ من والده إلا ببضع رسائل عدد أصابع الكف الواحدة. ورسائله إلى هذين الولدين الأبرين، تمثل التستاوتي أحايين متعددة، الأب المتعدد الوجوه، الأب الوالد، والأب الصديق، والأب المتصوف، والأب الغاضب، والأب المربي... إلخ الصور البيانية لهذه الشخصية الفريدة من نوعها.

ومكاتباته لهذا الولد، تتراوح بني البساطة في التعبير، أحيانا، وبين الإيجاز في التصوير، أحيانا، وقلما تفضي لك بحقيقة الذات العارية، ولهذا سبب موضوعي يجعل التستاوتي يصطنع لنفسه أسلوبا تمليه الظروف والحيثيات، ونحن بهذه الملاحظة، لم ندخل بعد المحور الثالث في تقييم الرسائل بمعيار الكتابة الأدبية، بل هي ملاحظة تقدم بها لهذه الرسالة القصيرة، التي انطلقت من حبس فاس الجديد، كالبرق الخاطف(الحمد لله، صلى الله على مولانا محمد وآله، ولدنا إبراهيم – اصلحك الله – سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد : فإن خوف الخلق غفلة عن الله، والغفلة عنه حناية يجب التطهير منها بماء الرجوع إليه والتوكل عليه، فإن من رجع إليه وجده، وقد عجزنا عن دفع الشر عن أنفسنا من حيث نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم، فادفع عنا – يا ربنا – ما علمته من حيث علمته). والسلام[1].

وإذا كان الخطاب المضطرب، مباني ومعاني، إنما هو تعبير عن حالة نفسية مشحونة بالقلق والحيرة والاضطراب، فهذا راجع إلى أن كاتبها يعيش تحت وطأة من التوتر شديدة. وفي هذه الحالة تتزاحم الافكار وتنهال كالشلال الهادر، وتضيق الحروف والكلمات عن محتوياتها واستيعابها. والكاتب في هذه الحالة لا يملك

[1] نزهة الناظر، ١، ورقة ٦٥، ص ١٢٧.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من اللحظة المتأنية ما يجعله يجري على عمله المبعثر أية مراجعة قصد التشذيب أو التشطيب.

وعلى هذا النحو، نقرأ بعض المراسلات والخطابات، كهذه التي خاطب بها التستاوتي ولده محمد الشريف، بعد زيارة له قصيرة لم يستطع خلالها أن يقول له كل شيء، ولعل الحالة لم تكن تسمح بذلك. ومن يدري، فهل يكون الزائر ووالده التستاوتي يتوجسان خيفة حولهما، والزمان زمان المحنة، والمكان حبس فاس الجديد :

(فإنك قد زرت بغتة، وانقلبت فلتة، وما التفت لفتة. وكنت أحب أن أناصحك في أشياء وأحذرك من أشياء..) والرسالة في معناها ومبناها، تعكس الجو النفسي المسيطر على المرسل، وقد فارق الأهل والأولاد، ولا يعلم عن حالتهم ما يبعث على الاطمئنان. وتحت هذه الوطأة ينطلق الخطاب في شكل أفكار مختلطة، قد يكون مبعثها الحذر، والغيرة، والحيرة، والتواصي، والنصيحة والاعتبار. وهذه مرجحات ومؤشرات توحي بأن الرسالة قد كتبت وصاحبها حديث العهد بحبس فاس الجديد. ولا أحد يرعى أسرة التستاوتي الكبيرة غير هذا (الابن الأبر الأصلح) محمد الشريف، كما خوطب من طرف أبيه.

ومن جملة ما قاله الوالد، لهذا الولد الأبر : (واعط لكل ذي حق حقه، من غير إفراط ولا تفريط، وأعظم شيء عليك القيام بحقوق أبيك، فإن الأبوة لها سلطان عليك، وما قام بها أحد إلا ربح وسعد سعادة أبدية، فإذا خاطبت أحدا من أزواجي، فليكن مع دهس وإطراق، وقدر كأني أنظر إليك، فإن للغيرة صولة المصطلم، واحذر الإيماء، ولاطف من كنت الاطفه، كالبدوي وأمه، وأم هاني، والياقوت....) والتستاوتي كان له من الزوجات المثنى والثلاث، فالياقوت وأم هاني وريحانة، إضافة إلى أم الدار، وهي بنت محمد بن يوسف الوابودي (وقل لام الدار بنت محمد أن تتفقد حال الأولاد والبنات وغير ذلك من العيال، وما قدرتم عليه فافعلوه، وما لا فارفعوه إلى الله، ثم إلي، ولا تملوا من الدعاء، ولا تقولوا دعونا فلم يستجب، وريحانة أن خف عليها ووجدت بغلة أو اثنين (...) وتذهب صفية معها، فعلى بركة الله...) وتنتهي الرسالة،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بجمل متقطعة تبحث عن معانيها الباقية في نفس صاحبها (واكتب لأخيك، تكن الحاضنة عليهم فلانة... والسلام)[١].

إن التستاوتي يتحدث عن أشياء لم يفصح عنها بشكل واضح، خاصة وأن إحدى زوجاته، ريحانة، على أهبة المخاض، كما تفيد بذلك العبارة "**وريحانة إن خف عليها**" ومما يؤيد هذا الاستنتاج ما في ديوان التستاوتي (قسم الإشعار) من إشارة إلى مولود له جديد، قد هل إلى الوجود عام " أواخر رجب سنة خمس ومائة وألف"، فبشر به من طرف ولده محمد الشريف ونحن نعلم أن التستاوتي، خلال هذه السنة وما بعدها كان مبعدا عن الأهل والأولاد. يقول التستاوتي مقدما لأبياته الخمسة في مولوده"**مصباح**" (وفي أواخر رجب سنة خمس وماء وألف بشرنا ولدنا محمد الشريف بزيادة ولدنا مصباح، أصلحه الله وبارك في عمره) :

بشرتنا بابن الضيا مصباح بشرت بالإمناح من فتاح

إلخ ..... [٢]

وهذه إضاءة أخرى، تكشف لنا الجو النفسي الذي يسربل هذه الرسالة. ولا شك أن التستاوني كان رهين ظلمة فأشرق عليه هذا المصباح. كومضة أملن يواجه بها ليل امرئ القيس، وليل النابغة الذبياني.

٤- وإذا كان الصوفي – كالرومانسي – (والقياس مع الفارق) يمتلك من الإحساس الحاد، ما يجعله ينظر إلى الزمان والمكان نظرة مشوبة بالنفاذ والاستبصار، فإن هذا يجعله – كذلك – يعيش غربة ذاتية يتوسع مداها بالاصطدام الناتج بين الذات والعالم، لتعارض القيم الصادرة عن الذات/المثال، والمجتمع/الواقع.

وهذا الإحساس عادي في نفسية الصوفي، ملا وما في هذه النفس من حمولات مضادة للواقع الموجود، ولكنه – الإحساس- يتضخم لدى المبدع ويتعالى، بل إنه يصبح مركبا إذا ما وجهت ذاتيته باصطدامات ونكبات... ومن ثم، فإن ما يميز سلوكه – في هذه الحالة وحالات مثيلة – هو الثورة والغضب.

---

[١] نزهة الناظر، ١، ورقة ٦١، ص ١١٩.

[٢] نزهة الناظر، ٢، ورقة ٦٠، ص ١١٦ (قسم الإشعار).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإذا كان من فارق بين الرومانسي والصوفي، فإنه راجع إلى الخيط الإيماني المنفلت من ذاتية هذا، والمبرم في دواخل ذالك. مما يجعل الثورة والغضب أقل حدة مما هي عليها في نفسية الرومانسي.

بهذا المنظور، يمكن فهم بعض الومضات اللاهبة في بعض رسائل التستاوتي، وهو الصوفي من جهة، المبدع من جهة ثانية، من هذه الصفة وتلك، يعيش محنة، يعتبر نفسه فيها مظلوما، وأن الآخرين، هو وقود الناس والحجارة.

يقول التستاوتي من رسالة له إلى "**الإخوان والأولاد**" بعد التحية والسلام : (اعلموا أولادي أني لست ساخطا عليكم ولا أمرتكم بشيء للعظمة مني إليكم، ولكن حيث تباعدت عني طريق اتهمت بها، وما ملكتها وفاتني الوصول إليها، وتقاعست عنها، من كثرة ما دونها من العقبات الصعاب، أردت أن أدقق لكم السير فيها، وأنبهكم على أدنى شيء منها، ليدوم لكم ما فيها، رجاء أن يكون لكم ظفر بها، حيث فاتني الظفر بها...)[1] ، والتستاوتي–الصوفي، في هذه السطور، يعبر تجربته التي خاضها عبر مدارج السالكين والواصلين، وهو صادق في التعبير عن نفسه التي واجهتها الإحباطات والاصطدامات، والطريق وعر محفوف بالمخاطر والدواهي. وليس غريبا أن يكون هذا السلوك من التستاوتي غير مفهوم لدى الآخرين، حتى ولو كانوا أقارب أو عقارب. (وقد فكرت في أمري وما أنا عليه وأولادي وإخوتي وأحبائي وأهل معاشرتي وأصحابي، فوجدتني كأني ميت وما رأيت أحدا يهمه ما همني، بل الكل مشغول فيما أقيم فيه من خير وشر، وأنا مشغول البال كثيرا البلبال، بين أنات ورنات وعبرات وزفرات، ولعلكم لا تحتاجون إلي، بل اكتفيتم بأنفسكم، والله حسيب كل مقصر، ومن غشنا فليس منا، وقد سمحنا لكم وما سمحنا، وتركنا، ومن زهد فينا وباعنا بالبخس من أعراضه، وجعلنا من أقل أعراضه، عما قريب يخلو بمراده وإيراده...)[2] ومهما يكن من تأويل، أو استنتاج فإن الرسالة ناطقة بحال الرجل وأحواله، معبرة عن ذاتية مشحونة بالتوتر والحذر، مسكونة بالغربة القاتلة. وقد ختم

---

[1] نزهة الناظر، ١، ص،١٠١/١٠٢، ورقة ٥٢.

[2] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

التستاوتي رسالته هذه، ببيت من الشعر، وبدعاء تخلص به من غم الحياة وهموم الناس :

ألّمَا على الربع القديم بعسعسا كأني أنادي، أو أكلم أخرسا

(يا رب أسألك اللطف، فقد ضاق صدري، وما وجدت غيرك رحيما يرحمني، فارحم غربتي، فأنت ارحم الراحمين...)[1] وهناك رسالة أخرى تنحو على هذا النحو، وتمتاح من الذات، وتنهل من هذا المنهل الآسن، ولكن التستاوتي، يثور ليقذف ما في نفسه ويتطهر، وكأنه بذلك التصعيد يفتح في ذاتيته ثقوبا يتنفس منها الصعداء. وليس في الرسالة ما يفيد بأن المرسل إليه هو شخص معين بذاته، ومصرح بهويته. وأمثال هذه الرسالة في قسم الرسائل عديد وكثير، فقد يكتفي المرسل بعبارة "**ومما كتب به لبعض الإخوان**" كما في صدرها وتقديمها. وإذا كان التستاوتي يتجنب دائما – في هذه الرسائل– أسلوب التصريح وتقديمها. وإذا كان التستاوتي يتجنب دائما – في هذه الرسائل – أسلوب التصريح بذكر المخاطب، فإنه – كذلك – يكتفي بالتلميح للتعبير عن المعاني والأفكار : (ولا يصح أن يسير الضرير فإن كنتم – يا هؤلاء – ابصرتموني في لجة من الماء، فقد رأيتني في مستوقدة من الظما، فلا نحكم على أني رويت بعد رؤية ما رويت، ولو سطع لما قلتم ساطع حجة ارتفع الشك وبانت المحجة، والصادي والغرثان، لا يكتفيان بسماح الخرير، أو رؤية الخشكنان[2] وأعوذ بالله من هذه السجعة الأخيرة، وقد أخلت بالوتيرة المنسابة في السياق، وعلى كل حال فقد يكون التستاوتي ابن بيئة، واللفظة بنت معجمها ومجتمعها.

وقد صدر التستاوتي رسالته بأبيات ستة، لعلها من نظمه، كما أنها خالية من التحية والتسليم، إلا من الحمد له والتصليات، مستبدلا ذلك بجملة دعائية، هي ترجمة عفوية لما يجيش في صدره : (رحم الله أمرءا نظر إلينا بعين الرحمة، وكشف عنا هذه الغمة، سمعنا ما سمعنا، واشتقنا فما رأينا، فإن يكن حقا، فلا بأس بإفشائه،

---

[1] م.ن والإحالة.

[2] كلمة فارسية مؤلفة من خشكو بمعنى يابس، ونان بمعنى الخبز = الخبز اليابس من إفادات الأستاذ المشرف : محمد بن تاويت.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإلا فلا فائدة في ادعائه، وليس المتيقن كالراجي، والمستصبح كالداجي...)[1] وقد نتساءل عن هذه الخيوط المتشابكة في هذه المزاوجات والسجعات، عن المعاني الخبيئات وراء الألفاظ، ثم نتساءل عن خلقية هذه الرسالة ذاتيا وصوفيا، حتى نستطيع أن نحيط بمجالها الغامض، غموض نفسية التستاوتي. وقد يساعدنا في ذلك الإطار العام الذي حددناه لرسائله الذاتية والشخصية.

وفي بعض المراسلات، نجده يفصح عن ذاته في الأبيات الشعرية المذيلة بالرسالة، أكثر من إفصاحه عنها في فقرات الخطاب لأن أسلوب النثر فيها يكون محمولا على التعبير بالإشارات الصوفية، على عكس ما في الأبيات من معاني وجدانية ذاتية، كهذه الرسالة التي خاطب بها (الأخوين الأكرمين) عليه، (والأحبين) إليه، وهما شقيقاه محمد الحاج العياشي.

(أما بعد، فمن بعد كان بعد، وقد شئنا وما شئنا، فاضمحلت المشيئة وفنيت الإرادة، وانفصلت عرى الاختيار، "بسيف" وربك يخلق ما يشاء ويختار... وقد كاد برق الآمال يخطف البصائر والأبصار، وعجزنا أن ننقد من هذه الورطة أنفسنا... فلا إلى الدنيا انتسبنا، ولا إلى الآخرة انتدبنا، وزادنا ما نحن فيه من الأوصاب، مباينة المنازل والأحباب)[2] هذه هي الحيرة الذاتية الكبرى التي كادت أن تؤدي بنبض اليقين الصوفي في قلب الرجل الواقف على حافة الشك واليأس، ولا ننسى – وقد لمحنا ذلك في رسالة سابقة – هذه الدوامة المشدودة بطرفي الثنائية الضدية، على مستوى اللفظ والمعنى (شئنا وما شئنا... فلا إلى الدنيا انتسبنا، ولا إلى الآخرة انتدبنا...)، والرجل معذور، فهو يعيش تجربة التفرقة والشتات، في النفس والذات، والزمان والمكان، والأهل والإخوان :

فصبري كشملي قد تبدد كله ... تبدد إخواني وأنسي وسلوان
فمن أهل ودي من له الرمس منزه ... ومن أهل ودي من ثوى غير أوطاني

---

[1] نزهة الناظر، ١، ورقة ٦٢، ص ١٢٢.

[2] نزهة الناظر، ١، ورقة ٧٣، ص ١٤٣/١٤٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

..... إلخ[1]

والرسالة وأبياتها، تحددان بجلاء بين مجال المؤشرين اللذين صنعنا منهما لإطار الخلفي لهذا الجانب الذاتي في رسائل النزهة.

وقبل أن نودع هذا العنصر الذاتي في رسائل التستاوتي، تعرض لرسالتين – فقط – أودعهما التستاوتي موقفين يلتقيان على صعيد المفارقة والمصاحبة في آن واحد. فهناك الموت – هادم اللذات، وهناك الجمال والحب المنبعان الأولان للذات. والموت والحب من القضايا التي شغلت المبدعين الذاتيين، والأدباء من الصوفيين، كالتستاوتي والآخرين.

٥– إن قضية الموت، سبق لنا أن تعرفنا على موقف التستاوتي منها، قبل أن نودعه في قبره، وكنا نتحدث – آنئذ – عن الطور الأخير من حياته، وما صاحبه من نكبات عائلية أبرزها وفاة ولده محمد الشريف ووفاة إحدى الزوجات من أهله لكننا – هنا – سنربط قضية الموت – من خلال بعض الرسائل – بالمنظور الذاتي للرجل، مع ما يصبغ هذه الذاتية من شفافية صوفية إيمانية، هي الفيصل الوحيد بين موقف المتصوف من الموت، وموقف الرومانسي منها كذلك.

والطريق في هذا الموقف، هو أن الأهل والإخوان والأصحاب والأقارب، قد وصل إلى إسماعهم خبر ينعي حياة التستاوتي، وأنه صار إلى ما يصير إليه المؤمن والكافرون على السواء. ولكنه كان "**نعيا كاذبا**". فالتستاوتي كان باقيا على قيد الحياة يرسف في أغلال السجن، ينتظر بلهفة المومن، ساعة الفرج. ونقرا في التقديم الذي صدر به الرسالة ما يلي :

"وما كتبت به للإخوان والأولاد والأهل والجيران، حين وصلهم الخبر بأني توفيت، وليس ذلك بصحيح...".

ومن هذا التقديم يكون الخطاب في الرسالة ليس مخصوصا بأحد، بل هو يشمل الجماعة العريضة التي تنتمي إليه. والحالة أن هذا النعي الكاذب قد خلف وراءه أثرا بالغا في النفوس، فبكت وتباكت (وليت شعري – يقول التستاوتي– ما يجدي

---

[1] م.ن والإحالة...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

البكاء، ولو كان نافعا لحصل به النفع لأهل المصائب قبلنا، ولا يعجبنا البكاء علينا ولا التأسف. اللهم إلا أن يكون شفقة علي مما ألاقيه بعد الموت من الأهوال التي تذيب الجبال فنعم، وإلا فلا فائدة في شيء من ذلك) (لأن التستاوتي يومن بأن الموت من القضايا الحتمية في الحياة، وهي قاضية على كل أحد دون سابق إنذار، إلا أن يكون من العارفين الذين يتهيأون لها، كما يقول التستاوتي الصوفي، والعارف بتمثل وقنوع الشدائد قبل نزولها، فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان في نفسه... وقد كنا برهة من الدهر ندلكم على الخير، ونحرك بواعثكم إلى الله ونرغبكم فيما عنده، ونعرفكم بقضائه وقدره، وهل أخبرتكم أني آمن من الموت، وأنه غير مدركي ؟ بل نحن معرضون للفنا ولا بد من المسير إلى الله تعالى، وليس لما قضى الله معدل، فكان ينبغي لكم أن تتلقوا أقدار الرب تعالى بالصبر، وإن كان لا بد من البكاء فيستحب أن يكون جاريا على نهج السلف الصالح...)[1]، ويستطرد التستاوتي بعد ذلك ليعرض مواقف السالكين والواصلين من الموت، كل من موقعه الصوفي (وأما من كان مثلنا منهمكا في شهواته غافلا في حركاته وسكناته يكره الموت لعدم صدقه وقلة ذوقه وعدم محبته إلى الله تعالى وشوقه...) وفي آخر الرسالة يوصي التستاوتي الأهل والأولاد والإخوان والجيران ليستعدوا لمواجهة الموت بالعمل الصالح (فشمروا على سياق الجد، واعلموا أني وإياكم راحل من هذه الدار، وسائر إما إلى جنة أو إلى نار...)[2].

وإذا كانت الرسالة السالفة محمولة على الخطاب العام لكل من ورد التصنيف المقدم به الرسالة، من أهل وإخوان وأولاد وجيران، فإن رسالة أخرى قد خص بها التستاوتي ولده إبراهيم، تدور حول الفكرة ذاتها عن الموت الفاصل بين حياة وحياة[3] إلا أن الفارق بين الرسالتين راجع إلى طبيعة الخطاب، من عام إلى خاص، حيث أن الولد إبراهيم قد حظي – كما قلنا – بنصيب وافر من رسائل والده ومكاتباته.

---

[1] نزهة التستاوتي، ١، ورقة ٥٣، ص ١٠٣.

[2] م.ن والإحالة.

[3] يقول الدكتور علي زيعور، محللا تجربة الموت لدى الصوفي، من منظور جديد (ومشكلة الوجود هي سر مأساة الصوفي. وسر مأساته كامن في وعيه الحاد بالموت، وبأنه يعمل للموت لا للحياة... كان الصوفي يستعجل الموت ليثبت لنفسه صلاح توجهه نحو طلب الانعتاق من العالم الحسي. ماساته أنه يعيش كي يموت، ويموت كي يعيش) "الكرامة الصوفية والأسطورة" ص ١٣١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأغلب هذه الخطابات كان صادرا عن ذات متصوفة إلى أخرى تتحسس طريقها إلى طريق القوم، من هنا كان مستوى أسلوب هذه المراسلات. وعلى أية حال، فإن السياق في هذه السالفة له رافد مما ورد في الرسالة السالفة عن النعي الكاذب، وإن لم يصرح التستاوتي بذلك أو ولده، فيما لدينا من رسائله إلى ولده.

وإضافة إلى هذا الخبر ومخلفاته، فإن الرسالة – كادت – أن تلخص لنا الظاهرة الذاتية في رسائل التستاوتي، والتي هي متراوحة بين المد والجزر، والبسط والقبض والحياة والموت، والشك واليقين، والقلق والإيمان، إلخ.... هذه الثنائيات أو المتناقضات القائم عليها عماد الكون والوجود. وما الإنسان إلا نسخة من هذا الكون وهذا الوجود.

ويعترف التستاوتي في رسالته – هذه – بأن ما يصدر عنه من حالات هي خارجة عن طاقته الإرادية، ولذلك فإن العذر منه مقبول، ولا يلام المصدور على ما يخرج من تأوهات زفرات، فهو مدعاة للشفقة أكثر منه مجلبة للنقد والإيلام :

(وقد حصل لي اليقين بإخبارك والاطمئنان بموردك وإصدارك. وما تشاهده مني من الاضطراب والقلق والاقتراب، فإني فيه معذور، وبالحالة الغالبة مقهور، وأرجو أن يكون ذلك من باب الإنس والإدلال بالملك المتعال...) وهذا التبرير الصوفي إنما يستمد مصدره من الإجازة الصوفية التي وشحه بها الشيخ ابن ناصر، عندما خاطبه بقوله : "**أنت من أهل الإنس والإدلال**"[1].

وبعد ذلك يحاول التستاوتي، وبطريقة غير مباشرة، أن يجيب عن تساؤل ولده بخصوص النعي الكاذب الذي روع الفؤاد بخبره :

(ومن أولى مني بالموت اشتياقا، والفوت احتراقا، وأنا اضعف الناس، وأبعدهم عن الكأس، وأخبر بأشياء لا تنال إلا بالفضال، من الملك المتعال، أو مثلي يمسح بجرائمه وينسلخ عن رخصه وعزائمه، فكم أهلك من مثلي ومن بعدي ومن قبلي ؟ وإذا حصل لنا الموت على حسن الخاتمة، وعذبنا بعذاب العالمين قاطبة، فقد أحسن

---

[1] انظر النزهة ١، ورقة ٢٦، ص ٤٩، وهذه الكلمة ترددت مرارا في نزهة الناظر، وحولها انظر الفصل المخصص للتستاوتي وعلاقته بالزاوية الناصرية...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلينا المتفضل المنعم، وعمنا شيء لا يوازي من النعم فأفهمه يا بني) ولا شك أن بعض الجمل هنا، قد حملت ما لا طاقة لها به، لأنها قد شحنت بتضخم "**الأنا**" الصوفية الذاتية لدى التستاوتي، فما معنى قوله "**وعذبنا بعذاب العالمين قاطبة**" فهل يستشر الرجل بأنه حامل لآثام العالمين وخطاياهم وبذلك استحق العذاب فداء لهم ؟ وإذا صح هذا فما أشبه التستاوتي بالسيد المسيح ؟

ولكن ليس على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج، مادام الرجل يعترف بأن ما يصدر عنه مصدره الذات اللاإرادية (فافهمه، يا بني واعلم أنها نفثة مصدور نزت من قلب مضرور)[1].

ذلك هو التستاوتي وموثقه من الموت – موته، من بعد ما سمع ما سمع عن النعي الكاذب. وموقفه هذا لا ينبغي أن يفهم إلا في إطار تجربة المحنة الذاتية التي كان يعيشها تحت وطأة من الشدة قاسية.

٦- بقي لنا أن نختبر إحساسه الذاتي من منطلق آخر، وموقف – كذلك – آخر وإن كان هذا الموقف جاء لاحقا بزمن على المحنة الذاتية الخاصة عامي ١١٠٤/١١٠٦، ونعني بذلت ما كان يعني به التستاوتي من علاقة حميمية بالمرأة وجمالها.....

ولن نتحدث عن هذ الموضوع بتفصيل، إلا ما تسمح به رسالة واحدة أو اثنتان، علما منا بأن التستاوتي كان كثير الباءة كما نص على ذلك العميري في فهرسته، والتستاوتي بدوره ترك لنا مادة شعرية غير يسيرة عن المرأة بشكل عام، وعن زوجاته بشكل خاص، مما سنتناوله في القسم الخاص عن الشعر – شعره – وعن موضوعاته.

إن نزهة الناظر، تشتمل على رسالتين طريفتين، حول قصة "الزهرة" التي فاحت في قلب التستاوتي بعبيرها الخاطف، فلم يشعر إلا وقد انسلت الزهرة بعبيرها من أحشائه وحناياه.

---

[1] نزهة الناظر، ١، ورقة ٥٤، ص ١٠٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولنبدأ بالرسالة الأولى، التي يخبر فيها شقيقة محمد بن عبد القادر المعروف ب"محمد الحاج" عن زواجه الجديد، بـ "الزهرة" التي يرجع أصلها إلى عمر الفاروق، وهي من أولاد الشيخ يحيى بن علال العمري[١] وفي هذا الجواب يخاطب التستاوتي شقيقه بقوله (وإن تطلعت هممكم للتطلع على المرأة المتزوج بها، فهي كما قلت :

تزوجتها من آل كدار طفلة ... لها العرق بالفاروق – قد قيل – ناشج
وناهيك من رفع إليه انتهاؤه ... ويشمل ذا حسن من الهم فارج
..... إلخ[٢]

وما أظن أن النسب وحده كاف لأن يتزوج رجل – كالتستاوتي وقد وافى الستين – بالزهرة/الطفلة، كما وصفها البيت السابق. وهذا ما تجيب عنه الرسالة الثانية، التي ترسم بجلاء الإحساس الذاتي بالمرأة وجمالها. والرسالة جاءت بعد تلك، أي بعد أن حصلت البينونة بين التستاوتي وزهرته الجميلة. وليس في الرسالة الفريدة من القرائن التي تجعلنا نطمئن إلى الأسباب التي وراء هذا الحادث الذي فسخ المصاهرة بين أحمد بن عبد القادر وأولاد الشيخ بن علال العمري[٣] ، ولا شك أن مثل هذه المصاهرة من جانبها الموضوعي والاجتماعي هي تأكيد للنفوذ الروحي الذي كان التستاوتي يبسطه على بعض العشائر والبطون. وبعد التقديم – كالعادة – المبين لما في الرسالة وخلفياتها (... وفي سنة عشر ومائة وألف كتب لأولاد الشيخ يحيى بن علال العمري معتذرا عما وقع بيني وبين ابنتهم..)

بعد هذا التقديم، يتحدث التستاوتي بخطاب ملؤه التأسف والندم مبديا رغبته وتعلقه بالمصاهرة المذكورة (هذا وأنا في ما مضي قد كنا رغبنا في معاشرتكم ومصاهرتكم، لأنكم من بيت شامخ القدر عالي المجد والفخر. وكنا نأمل إذا تناولت

---

[١] النزهة، ١، ورقة ١٩٦، ص ٣٩٠.

[٢] النزهة، ١، ورقة ٥٣، ص ١٠٤.

[٣] "آل كدار"، هم أولاد الشيخ يحيى بن علال العمري ١. ولقد أشار إليه التستاوني في شرحه لرجال "ممتع الأسماع. وفيه يقول : (وكدار هو الشيخ كدار بن الشيخ يحيى بن علال بن موسى، دفين تزغوين، عمري النسب، وشهرته تغني عنه التعريف ١، مات سنة ١٠٢٤)، النزهة ١، ورقة ١٦١، ص ٣١٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نحلنا من أزهاركم العطرة الشذا، جاءت بعسل فيه الشفا من الأذى، فكان ما كان، ووجدنا زهرته على أكمل المراد وأجمل الاعتقاد...) وحتى إذا حملنا هذا الخطاب محمل المجاز والكناية. فإن الكناية الحقيقة الذاتية تطفح في كل جملة ولفظة أو كلمة. وهل ينكر أحد ما للزهرة الجميلة من تطبيب للذات المريضة بالزمن والنكبات ؟ لأن الشذا منها روح وريحان وجنة نعيم. والسؤال : : لماذا البينونة بين الزهرة الأكسير، وبين التستاوتي المتصوف الأسير ؟ ها هو الجواب، الإيحائي، وقد تفتن صاحب الرسالة في لولبته عبر تساؤلات بلاغية، لا تشفي الغليل :

(لولا ما كان من دلها الواقع في ذلها، والعذر لها. إن الملامح تفعل بالألباب، وتسلب الأحلام من غير ارتياب، ثم إني – والله – لا أدري أمن سكري بلحاظها أوقعت نفسي في البعد عن حياضها. ؟ أم من عدم شكري لنعمتها حصلت في فخ فرقتها ؟ أم عاقني عائق جدي فعوقبت بفقدي...) وقد يكون هذا الفقد هو الحصيلة الإجمالية لتلك التساؤلات الجميلة. والتي تكشف عن الرقة البالغة الحساسية في هذا الرجل الكبير، فإحساسه الحاد بالجمال هو الذي أملي عليه ما يقول، دون أن يراعي المقام في الخطاب. وهذا يدل كذلك على أن التستاوتي في كل ما يكتبه صادق أمين. وماذا بعد هذا الصدق الذي نتضح به هذه العبارة "**وعلى كل حال نزلت بنا مصيبة، وأصبحت النفس من ذلك كئيبة**".

وإني أتمثل التستاوتي رجلا مزاجيا، يثور ثم يهدأ، ويسكن ثم يضطرب، ويشك ثم يومن، ويحب ثم يكره، ويكره في حب... وهو في كل هذا وذاك لا يخرج عن دائرة الصدق الذاتي. من هنا، يأتي الاستغراب الشديد، عن مثل هذه المواقف التي تقصينا جزئياتها في هذه الرسائل. ولنتابع الآن حبل التمني الذي انطلق من ذاتية الرجل الصوفي، وقد انقطع عنه عبير الشذا – وفيه شفاء من الأذى – (ولو استردت منا الأيام ما أخذت، وجادت لما به بخلت، لا شرقت منا عليكم كواكب الأفراح، وانجابت بيننا وبينكم غياهب الأتراح، وكان من حقنا الصبر عليها، والإقبال بالملاطفة إليها... فاستروا ما رأيتم من العيوب، واغفروا ما كان من الذنوب) وهيهات، فالزهرة – أيها الشيخ، في مقتبل الربيع، ولكنك أنت كالصفصافة السامقة في الخريف... وليس بين يديك إلا أن تستنطق القوافي والأشعار (ثم تنفست وترنمت فقلت وعلى الله توكلت :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

زللت ولا أدري أمن سحر لحظكم وقعت ببين مشعل في الحشا نارا
أم الشكر لم يوجد لنعمة وصلكم فعوقبت من دهري بما منه قد دارا
ولست أبري النفس من سوء فعلها وفي الغيب ما منه الفؤاد له حارا
..... إلخ[1]

وهكذا جاءت الرسالة بأبياته الشعرية، كتعبير عن التعلق الذاتي بالجمال البشري، وكاعتراف واضح بضعف الإنسان أمام جبروت الحب وسلطانه. وقد استوقفتنا معانيها ومبانيها، لا لأنها صادرة عن إنسان فقط، بل إنها صادرة عن شيخ صوفي وافى الستين من عمره، دون أن يمنعه ذلك عن البوح الجميل بإحساساته وخلجاته الذاتية الرقيقة.

اكتفي بهذا القدر الوجيز، عن الجانب الذاتي من خال رسائل التستاوتي، وهو جانب له قيمته في فهم الشخصية ومكوناتها الذاتية والموضوعية. وما كنت في ذلك إلا مختزلا ومنتقيا، وواصفا. ولو فعلت غير ما فعلت، لضاق بنا هذا الحجم الصغير الذي خصص لرسائل النزهة عبر محاورها المرسومة سلفا ثم إننا قد اعتمدنا على هذه الرسائل –كما صرحت مرارا– في المباحث السابقة، وحتى الجانب النفسي حاولنا رصده عند حديثنا عن الانقلاب الذاتي الذي حصل للتستاوتي بعد اتصاله بالزاوية الناصرية، سواء في عهد التأسيس على يد الشيخ محمد بن ناصر، أو في عهد الامتداد على عهد الخليفة من بعده، ولم أحاول قط – هنا – أن أود إلى هذا الموضوع رغم ارتباطه الحميمي بشخصية التستاوتي وذاتيته. هذه الذاتية التي فجرتها – صوفيا واجتماعيا – الأيام والليالي من عامي السجن في حبس فاس الجديد. وكنت أخطو هنا وهناك بحساب، كي أحس بالفاصل المنهجي بين هذا العنصر وذاك من عناصر التصميم.

٧– وإذا كان التعبير عن الذات، بصدق وإخلاص، هو ما يميز التستاوتي في رسائله بخاصة، وفي أدبه بوجه عام، فهل يمكن تصنيفه من هذا الجانب مع المتصوفة ؟ أم مع الملامتيين ؟ أو الرومانسيين ؟

---

[1] الجمل والفقرات الواقعة بين علامتي التنصيص، من كتاب النزهة١، ورقة ١٩٦، ص. ٣٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والافتراض الثالث – لا محل له من الأعراب هنا، وأن ذكرناه فعلى سبيل الحديث عن النظائر والأشباه. وإذا، فأين يتموضع هذا الذي تفنن في التعبير عن ذاته، وقد بالغ أحيانا في تسويد لوحات حالها وأحوالها ؟ وهل هذا راجع إلى الإحسان باللوم النفسي والذي يتفجر في صمت من ذات الملامتي. وقد قال شيخ الملامتية أبو حمدون القصار[١] "**الملامة ترك للسلامة**"[٢] أم أن التستاوتي كان لواما غير متستر، فخرج بذلك عن طيعة أهل الملامة وارتضى لنفسه إلا أن يكون صوفيا وجدانيا، كما روى أحمد بن فاتك[٣] عن الحسين بن منصور (الحلاج)[٤] أنه سئل :

من الصوفي ؟ فقال : "**وجداني الذات**"[٥].

إن الجواب بالتحديد عن التساؤلات السابقة لا يمكن الجزم به، ذلك أن التستاوتي، لم يكن في تعبيره عن ذاته لينطلق من تفكير مسبق وتحت توجيه مذهب بذاته، فلم يكن بالملامتي الذي يخفي سرائره الموصولة بحبل الذي يعلم السر والنجوى، بل كان على عكس الملامتيين الذين يتظاهرون للخلق بما يقربهم إلى الحق. ومن هذه الكوة نفذت إليهم السهام الجارحة أطلقها عليهم ابن الجوزي في كتابه "**تلبيس إبليس**"[٦]، لأنهم كما يعتقد ابن الجوزي (يظهرون من أنفسهم أقبح ما هم فيه ويكتمون أحسن ما هم عليه، وفعلهم هذا من أقبح الأشياء...)

وإني أرى أن التستاوتي لم يكن مفصولا عن التراث الصوفي، فهو على علم بهذه الآراء وتلك، ولكنه كان ينطلق من ذاته داخل واقع بعينه ومن عالم المحن التي

---

[١] هو حمدون بن أحمد بن عمارة القصار، مات إحدى وسبعين ومائتين، ودفن بنيسابور، انظر ترجمته في طبقات السلمي، ص ١٢٣، وعن الملامتية، تراجع المصادر التالية :

– طبقات الصوفية للسلمي – عوارف المعارف للسهروردي – كشف المحجوب للهجودي (ط/ع)

– والفتوحات الملكية لابن العربي الحاتمي. وانظر كتاب "الملامتية والصوفية" لأبي العلاء عفيفي القاهرة، ١٩٤٥.

[٢] كشف المحجوب، ص. ٢٦٤، وانظر هوامش الصفحة (١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥).

[٣] م.ن.

[٤] م.ن.

[٥] م.ن.

[٦] تلبيس إبليس ص ٣٦٣ (ط/دار الكتب العلمية – بيروت.)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ألمت به، ولهذا وذاك، فقد نراه يأخذ أحيانا جانبا من الملامتية، وأحايين جوانب من أفكار القوم الصوفية. وكان يصبغ هذا اللون وذات بذاتيته المشتعلة بلهيب التجربة القاسية. وهذا لا ينفي أن يكون الرجل ممن تسربت إليه أفكار الملامتية، فتشربها عن غير وعي منه. والحالة أن مثل هذه الأفكار سبق للمغرب أن تعرف عليها بواسطة تيارات وافدة[١].

وبهذه التساؤلات عن طبيعة الذاتية التستاوتية من خلال بعض الرسائل نحاول في الأوراق التالية، إبراز العنصر المكمل للجانب الذاتي، إلا وهو الجانب الصوفي في رسائل التستاوتي.

ثانيا :

١- إن بعضا من قضايا التصوف عامة، والتصوف الطرقي بخاصة، التي تبرز في ثنايا الرسائل التستاوتية له ارتبط عضوي بوجه من أوجه الثقافة السائدة وهو وجه لا يمكن لنا أن تتفرى تقاسيمه دون البحث عن المكونات الفكرية/الصوفية التي

[١] انظر الوافي ٧٢٨/٢، ورسالة اليوسي عن العكاكزة، والبحث الذي كتبه عن هذه الطائفة عبد الله نجمي، في مجلة كلية الآداب ع ٥ و٦، ١٩٧٩. وفي كتاب "التشوف" للتادلي ما يفيد بأن "الملامية" قد ظهرت في المغرب على عهد المؤلف : انظر إخبارية العباس السبتي في ملحق الكتاب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

شكلت شخصية التستاوتي، ومن ثم فإن الحديث، سواء كان صوفيا أو كان ثقافيا عاما، إنما هو انعكاس لحالة المجتمع من جميع جوانبه الحياتية المتفاعلة مع حاضر الماضي وماضي الحاضر والمستقبل.

وتبعا لهذا الترابط الجدلي، فإن القضايا التصوفية التي تثيرها بعض الرسائل إنما تعكس الهموم الصوفية التي كانت تشغل التستاوتي وغيره من أرباب الفكر الصوفي في مغرب القرن الحادي عشر، ولا تخرج هذه الاهتمامات عن دائرة الإفرازات الذاتية، وكذا عن المعطيات الثقافية للتراث الصوفي على وجه التحديد.

وفي اللمحة الوجيزة التي قدمنا بها لمنظومات التستاوتي، أكدنا على أن تلك المنظومات ما هي إلا قراءة متأنية لبعض مصادر التصوف الإسلامي، في مشرقيتها ومغربيتها. ومن خلال هذه القراءة كان التستاوتي يحصد الزاد المعرفي لتستكمل شخصيته الصوفية. وإذا كنا قد أدرجنا المنظومات بوجه عام في إطار "**ظاهرة المصر الثقافية**"، فإننا هنا سنجعل منها الرصيد المحرك لبعض قضايا التصوف في رسائل نزهة الناظر. بالإضافة إلى ما لم ينظم، من مصادر التصوف الإسلامي في عمل التستاوتي، كالإحياء، والفتوحات، وتفسير الورتجبي، ونشر المحاسن لليافعي، وعوارف المعارف للسهروردي... إلخ. هذه المصادر التي نجد لها أصداء في مكاتبات الرجل ومجادلاته الصوفية. وقد رأيناه في باب المنظومات يتعامل مع رجالات التصوف في المشرق كما في المغرب، فقد تعامل مع رجال "**الحلبة**" ورجال "**التشوف**" ورجال "**ممتع الأسماع**" و"**طبقات**" الشعراني وعهود الأشياخ له...، وقد انتظم في هذا السلك المصوفي أيضا عقد جواهر المعاني في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ولا يخفى على الباحث ما لهذه القراءات، والشروح الضافية لها، من تكوين وتأثير على الشخصية الغارقة في بحران الصوفية ولطرقها. وإذا أضفنا إلى هذه المكونات الاستعدادات الذاتية وما كان للزاوية الناصرية من توجيه لها، وأضفنا إلى الجميع محصلات الواقع الصوفي لمجتمع القرن الحادي عشر، بتفاعلها السلبي والإيجابي مع أحداث العصر... أدركنا بجلاء البواعث التي حركت القضايا الصوفية في رسائل التستاوتي، فالحديث عن "**الولاية**" و"**القطبانية**" و" الأوتاد" و"**التربية الصوفية**" و"**الحقيقة والشريعة**" و"**الظاهر والباطن**" و"**المقامات والأحوال**" إلخ .... كل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذه القضايا والموضوعات – وغيرها – لا يمكن للباحث أن يتابع حركيتها خارج المجال الذاتي والموضوعي المرسوم. ومن ثم فإن الرؤية المعيارية يجب أن نخفف من حدتها وتسلطها في النقد والانتقاد، إذ لا يمكن لهذه الشخصية أو تلك، أن تخترق المجال وتكسر حدوده بحثا عن العقلانية الصارمة، وحتى اليوسي – وهو من هو في عصره– قد جذبه التيار، وبدرجات متفاوتات، ويكفي أن نستعرض بعض الر سائل الصوفية[١] التي كان يراسل بها أتباعه ومريديه، لندرك إلى أي حد كان التصوف في مغرب القرن الحادي عشر آخذ بزمام السلطة الروحية، والاجتماعية، بل حتى أولئك الرجال الذي كانوا يمثلون الدولة ونظامها الثقافي والسياسي، قد انزلقوا وانجذبوا إلى التيارات الصوفية. وقد رأينا فيما مضى – من هذا البحث – كيف كان المؤرخ الرسمي يتصيد من الخوارق والكرامات ما يساعده على التفسير والتنظير لقيام دولة وسقوط أخرى[٢]....

بهذه الإمضاءات القبلية سنتناول بالقراءة ما خطته أقلام التستاوتي من رسائل تقصر وتطول، تفصح وتلمح، تهدأ وتعنف، تسمو وتسف، وإذا كانت رسائل اليوسي الصوفية هي من "صبغة" الرجل العالم الرصين، فإن رسائل صاحبه الصوفية، هي من "صبغة" المتصوف ذي المزاج الحاد، والذاتية المفرطة التي ألهبتها نيران المحنة وما تركته من شظايا ورماد.

يمكن تقسيم رسائل التستاوتي الصوفية إلى قسمين موازيين ومتوازيين في آن واحد، وما يفصل بينهما سوى الفاصل الإنشائي أحيانا، بالإضافة إلى طبيعة الخطاب الصوفي في هذا القسم أو ذاك.

* رسائل ذات طابع جدلي صوفي.

* رسائل ذات منزع صوفي تربوي – أخلاقي –.

---

[١] انظر الجزء الأول من رسائل اليوسي (الرسالة العاشرة، ص ٤٠٨،، والرسالة الثانية والعشرون، ص ٤٦٧) ولم يفت اليوسي، مع إيمانه الصوفي، أن يندد بالمشائخ التي تعيد عن أصول الشرع بما تمارسه من بدع منكرة.

[٢] راجع ما كتبه اليفراني عن الإرهاصات الأولى لبزوغ نجم السلطان إسماعيل، في كتابه : "**روضة التعريف**". ١، ص ٣٢، ٣٣، ٦٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكما اعتمدنا، في الجانب الذاتي لهذه الرسائل، من الجداول الإحصائية فإننا سنفيد كثيرا منها في هذا المجال الصوفي، اعتبارا لما لاحظته وأنا استقصي الموضوعات والقضايا الصوفية من خلال المخاطبات والمراسلات. وتبين لي بأن أغلب هذه المكاتبات ذات الطابع الجدلي في المنازعات الصوفية والطرقية، هي من الرسائل التي كتبها التستاوتي إلى شخصيات لم يذكر بأسمائها، واكتفي في بعضها بالكنية والكناية[1] باستثناء ما كتبه إلى الهشتوكي السالف الذكر، وما كتبه إلى جماعة صوفية في فاس هم من أتباع ابن عبد الله أحمد بن معن[2] المترجم له في كتاب "**المقصد الأحمد**" لمؤلفه عبد السلام بن الطيب القادري. مع رسائل قصيرة أخرى وجهها إلى بعض الإخوان...

أما القسم الثاني، من هذه الرسائل، فهو في خطاباته لا ينصرف إلى الجدل الصوفي، وإلى المنازعات الطرقية، بل كان ينزع منزعا ذاتيا صوفيا انطلاقا من الخطاب الإنشائي الذي خاطب القلب والوجدان تارة، ويستهدف تارة أخرى الوعي الصوفي لدى المخاطب، ومخاطبة الوعي الصوفي لا يكون إلا بالتربية الصوفية الصادرة عن شيخ راشد إلى مريد مسترشد، وبين أيدينا من هذا الصنف رسائله إلى ولديه إبراهيم ومحمد الشريف ورسائله إلى أخويه العياشي ومحمد الحاج....، ولا ننسى ونحن نتحدث عن الشيخ والمريد وما يكون بينهما من مراسلات – لا ننسى ما كتبه إلى أهل العدوتين ورجال العدوتين [3].

---

[1] انظر الفهرس الإحصائي المبين للرسائل الموجهة إلى شخصيات صوفية لم يذكرها التستاوتي بأسمائها.

وهناك رسالتان قصيرتان عاريتان من الدلالة الإرسالية، رغم ما فيها من الحمدلة والتصلية والبعدية (النزهة ١، و٥٢ ص ١٠٢).

[2] لقد تبين لي بالمقارنة بين نسخة الرباط (١٣٠٢/د) ونسخة تطوان. إن بعض الرسائل المحمولة على صيغة (فلان بن فلان الفلاني، وفلان بن فلان الفلاني) أو على صيغة (أبي فلان الفلاني) – هي موجهة إلى جماعة ابن عبد الله أحمد بن معن. وكما بخط الحافي في الطرة من نسخة (الرباط ١٣٠٢/د)، فإن صيغة فلان بن فلان الفلاني الأول هو السيد أحمد اليمني، وإن الثاني هو أحمد بن عبد الله بن معن صاحب الزاوية المخفية. أما الرسالة الأخرى إلى أبي فلان الفلاني، فإن الطرة قد كشفت عنه، وهو السيد اليمني السالف الذكر في الرسالة الأولى.

[3] إن ما يقرب من ١٧ رسالة صوفية إخوانية، خاطب بها التستاوتي أهل العدوتين (الرباط وسلا) ممن أخذوا عنه الطريق.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهناك رسائل هي منزلة بين المنزلتين، لا هي صوفية محضة ولا هي دينية خالصة، فالخطاب فيها يتراوح بين العبادات والمعاملات وبين الأحوال والمقامات، وإن كان الغالب فيها يمتاح من قلب الوعظ والإرشاد، كما في رسالته إلى أزواجه، ووصيته لأخيه محمد الحاج قبيل رحلته إلى الديار المقدسة، وهناك وصية عريضة استوصاه بها أحد المريدين فكتب إليه بضع ورقات[١] عن قواعد الإسلام والساعة وشروطها، وآداب الزيارة...، وقد أرادها صاحبها"**وصية تشتمل على أمور مفاخر الدنيا والآخرة سنية**"[٢].

٢- لعل أول رسالة، في نزهة الناظر، ستكون المؤشر لظهور ما أسميناه بالجدل الصوفي، هي التي تحمل تاريخ عام ١٠٩٠ لكن خطابها لم يرتفع إلى حدة الرسائل اللاحقة. والرسالة موجهة إلى بعض المشامخ الصوفية في مدينة فاس، وعلى رأسهم صاحب الزاوية المخفية أحمد بن عبد الله الشهير بابن معن. وقد كان لهذا الشيخ مريدون وابتاع، من بينهم، كما في صدر الرسالة أحمد اليمني[٣]، والسيد المهدي[٤]، والسيد أحمد بن عبد القادر القادري[٥]، وابن عمه السيد عبد السلام[٦]، مؤلف كتاب المقصد الأحمد، كما سبق أن أشرنا إلى هذا الكتاب... وقد ألحق التستاوتي بعض الأسماء بالسابقين من المرسل إليهم...

بالإضافة إلى رسائل أخرى وجهت إلى أسماء معينة، وعلى راس هؤلاء السيد موسى الراحل الدغمي. انظر الجدول الإحصائي.

[١] رسالته إلى أزواجه وأولاده وبناته وخدمه وجواريه، وهي في شكل مقالة توجيهية، كتبت بتاريخ ١١٠٥ أيام إقامته في السجن انظرها في النزهة ١، ١٨٤، ص ٣٦٥. وعن وصيته القصيرة إلى أخيه، فلتراجع في نزهة الناظر ٧٦/١، ص ١٥٠.

أما الوصية الأخرى فقد كتبها إلى السيد المنصور المغفري بطلب من هذا الأخير، ولها نسخ خطية في المكتبة العامة بالرباط وهي من محتويات كتاب النزعة ٧٣/١، ص ١٤٤.

[٢] نزهة الناظر ٧٣/١، ص ١٤٤.

[٣] أحمد اليمني، انظر ترجمته وعلاقته بأحمد بن عبد الله في الالتقاط ٢٨١/٢...

[٤] السيد المهدي، محمد المهدي بن أحمد الفاسي، الالتقاط ٢٧٢/٢...

[٥] أحمد بن عبد القادر القادري : الالتقاط : ٢/ ٣١٩.

[٦] عبد السلام القادري : الالتقاط : ٢٧٥/٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلا أن المعني بالدرجة الأولى في هذه الرسالة هو الشيخ ابن معن، والذي كان يمثل في فاس طريقة صوفية تجمع بين الشاذلية والقادرية، فهي شاذلية في تربيتها، قادرية في ولادتها[1] وفي هذا الصدد، يقول صاحب المقصد الأحمد، مشيرا إلى التصنيف الصوفي لطريقة شيخه المترجم له في الكتاب (... ثم عاد لكلامه الأول، وقال لي "طريقنا جلاحية) فعلمت ما هو فيه، وأعرضت عما أريد، مخافة أن أشوش عليه، وكنت ساعتئذ لم أفهم معنى قوله "**طريقنا حلاجية**"، ثم علمت أنه يريد الفناء في التوحيد والغيبة عن الأكوان، والتجريد، والاستغراق في بحر الوحدة، وشهود ذات الله وحده وهو الجذب الكبير...)[2].

هذا القوس، الذي فتحته – مستطردا– كفيل برسم الدائرة الصوفية التي سيدور عليه الخطاب التصوفي بين رجل ورجل، ولو من جهة واحدة، أعني من جانب الخطاب التستاوتي وحده، فقد تتبعت كتاب "المقصد" قصد العثور على إفادة في الموضوع، يمكن الربط بها بين هذه المراسلة وغيرها، فلن أخرج بطائل.

ومهما يكن من أمر، فإن المشرب الصوفي واحد بين الرجلين، رغم ما يفصل بينهما من معلم في الطريق، فالتستاوتي ناصري الزاوية، وهذا حلاجي المخفية، كما في زاوية القادري.

ولا بأس أن نشير إلى أن هذا الرجل كان له من النفوذ الروحي في فاس، ما لصاحب الزاوية الفلفلية. وهما معا كانا يتنازعان السلطة الصوفية في المدينة. وكلاهما معا كانا يمثلان التصوف المدني. أما التستاوتي فقد كان ينتمي إلى المدرسة البدوية في التصوف. وكما كان اليوسي على رأس المدرسة البدوية في العلم، فإن التستاوتي سينحاز صوفيا إلى الزاوية البدوية. وقد يقال : ما علاقة التصوف بهذا التقسيم المصطنع ؟ وما علاقة المتصوفة بهذه المدينة أو تلك الحاضرة؟؟؟

والجواب هو ما محصناه في باب "**من المحنة إلى الولاية**"، حين عرضنا لرسالة التستاوتي التي واجه بها الذين استبشروا بمحنته وسجنه : (فأهل فاس يقولون

---

[1] انظر المقصد الأحمد (ط/حجرية) ص. ٣٠٤.

[2] المقصد الأحمد..... ص ٥٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نحن حبسناه، أو بأيدينا ضربناه، ولو اعتذر إلينا وتاب خلصناه، ومن حينه أنقذناه وقد كتبت لهم كتابا، فما ألقيت مجيبا ولا سميعا ولا منيبا)[١].

وفي بعض رسائل اليوسي – إلى التستاوتي – إشارة إلى شخص ورد ذكره بلفظ (ابن عبد الله)، وقد يكون التستاوتي راسل اليوسي أيام إقامته بفاس، وبعد حادث الزاوية بأعوام، مبديا له الرغبة في التعرف على هذه الشخصية التي لم يفصح عنها اليوسي، بل اكتفي بهذا التعبير المختصر (وستعرف ابن عبد الله قريبا إن شاء الله)[٢]. فمن هو ابن عبد الله هذا ؟ إن لم يكن صاحب الزاوية المخفية...؟ ! أطرح هذا التساؤل المفتوح، حتى تتضح القرائن والمرجحات، وإن كان الظن الغالب، هو أن الإشارة في رسالة اليوسي عائدة إلى الضمير المتصل بصاحب الخطاب في رسالة التستاوتي، المتحدث عنها...

وبالنظر إلى هوية المرسل إليهم، يتبين لنا أن الرسالة تخاطب الشيخين اللذين هما على رأس الزاويتين الشهيرتين بفاس، الزاوية المخفية، والزاوية الفاسية. والجماعة الأولى أو الثانية قد عرف بها التستاوتي تعريفا قصيرا، في شرح منظومته اليائية فهو يذكر أنه أخذ عن الشيخ عبد القادر الفاسي[٣] والتقى به – كما سلف القول[٤] – لكنه لم يصرح خلال تعرضه لمؤلف كتاب ممتع الأسماع السيد محمد المهدي وعلاقته بالسيد اليمني، وعلاقة هذين بالشيخ بن عبد الله، أنه التقى بهذه الطائفة في فاس كما التقى بأصحاب الزاوية الفاسية. لنقرأ ما كتبه عن البعض الذين ورد ذكرهم في صدر الرسالة....

والسيد المهدي المشار إليه، هو الماجد العالم، صاحب ممتع الأسماع لله. اعتمدته في هذا النظم، وهو الآن حي سنة تسع ومائة وألف... وهو ابن أخي العالم الشهير سيدي عبد القادر الفاسي – رحمهما الله – ورضي الله عنهما. والابن المشار إليه، هو السيد أبو العباس أحمد بن السيد محمد ابن عبد الله المذكور، وهو الآن

---

[١] نزهة التستاوتي١، و ٦٦، ص ١٣.

[٢] رسائل اليوسي في نزهة الناظر ١، و ٧٠، ص ١٣٨.

[٣] عبد القادر بن علي (الفاسي)، الالتقاط ٢١٧/١.

[٤] انظر نزهر الناظر (قسم المنظومات) ١، و ١٦٣، ص ٣٢٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حي، وهو ممن ارتفع صيته في هذا الوقت بفاس، وبينه وبين الفخر الشهير أبو العباس اليمني مصلحة وأخوة مشهورة بفاس – أصلحهما الله وأدام بهما[1].

هذا ما كتبه التستاوتي عن هذه المجموعة، بعد الرسالة المؤرخة بـ (١٠٩٠) بما يزيد على ١٩ عاما، لما ورد في كلام التستاوتي عن مؤلف ممتع الأسماع، وأنه كان على قيد الحياة سنة تسع ومائة وألف وهذا التاريخ يقترن بوفاته، كما في الالتقاط[2] فهل نستفيد من هذه السطور من كلام التستاوتي، إنه قد التقى في فاس بجماعة ابن عبد الله ؟ والحالة أيضا أنه أبدى لليوسي رغبته في التعرف على صاحب الزاوية المخفية ؟ كما في الإشارة التي وردت في رسالة هذا الأخير.

لا شك أن التستاوتي قد حصل له شيء من هذا في فاس وهو حديث العهد بطريق القوم، أما الشيخ الآخر فهو "**ممن ارتفع صيته في هذا الوقت بفاس**" كما يقول التستاوتي بلفظه. ورسالتنا التي انطلقنا منها – شاهدة على ذلك وماذا في الرسالة، من القضايا الصوفية، التي جعلنا لها إطارا من أفكار الرسائل وخطاباتها ؟

إن الرسالة لم تكتب بلغة تقريرية واضحة، حتى يفهم منها أنها دائرة في مجال المنازعات الصوفية، فغاية ما هنالك أن التستاوتي يظهر للمخاطبين غاية تعلقه وكامل أدبه، طالبا منهم الدعاء الصالح له (نحب منكم أن تحبونا في الله وتعاملونا في الله بدعائكم الصالح، ونحن والله بحسب الظاهر قد تعرضنا للفتن وقد خشينا أن نكون من المستدرجين، والظن بالله جميل وما تعودنا منه إلا الإحسان، فسبحان الظاهر الباطن المسرج سراج المعارف ببيوت قلوب أوليائه، والمظهر شعاع ذلك من كوات جوارحهم لغير أهل الكشف اليقيني، حتى استدلوا به على وجود المعرفة، فسموهم العارفين، وغرس بحكمته أشجار مقامات اليقين بأرض القلوب، وسقاها من رحمته فأينعت وفاح شذاها من مظاهر السمع والبصر واللسان وغيرها من الجوارح السبعة، فاستبان للعاجز عن الإطلاع إلى معاينتها أنها ثابتة، والشاهد يغني عن الغائب، والأعمى يعرف الملموس باللمس، والمطعوم بالذوق، ولا حنث يلحق الحالف على طلوع الشمس في اليوم الشديد الغيم، لأنه وإن لم يشاهد قرصها فقد عاين أمورا بينات

---

[1] نزهة الناظر ..... ١، و ١٦٢، ص ٣٢١.

[2] التقاط الدرر (مطبوع) ٢٧٢/٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بقطع معها بطلوعها....) [١] وإذا ما أجرينا غربال الحقيقة على هذه البذور من المجازات الصوفية، حصلنا على بعض الأفكار الواضحة، هي أن أولياء الله والعارفين به كالشموس لا يمكن أن تحجبها غرابيل المحسوسات المحجوبة بالعوراض من الحالات البشرية....

والسؤال الوارد هو من هو العارف المقصود بالخطاب، ومن المنكر المتجاهل "**تجاهل العارف**" ؟ هل هو التستاوتي أم الآخرون ؟ وينتقل التستاوتي من المجاز إلى الحقيقة، ليكشف عن المراد في تلك الصور المشحونة بالإيحاءات والدلالات، يقول في نفس الرسالة (وإذا دققنا النظر وجدنا معرفة العارف أسهل من كل شيء ثم إن دققناه ألقيناه أصعب من كل شيء لأنه مستمد من الظاهر الباطن....)[٢] . ثم بعد ذلك، يطرح التستاوتي قضية أخرى هي وليدة المقالة السابقة عن الوالي والعارف، وهذه القضية قد بناها التستاوتي على القياس، أي أن في اختلاف العلماء – كما يقال – رحمه الله، كذلك فإن اختلاف أهل الباطن رحمة أيضا، (ولولا الشرع تعذر المدح والذم، واختلاف الألسنة والألوان، وتبين أحوال الأكوان مدارج يترقى بها إلى اختلاف الحقائق والرقائق...)[٣] وفي النهاية يكشف الخطاب عن الخطاء ويتبين المخطئ من المصيب، وقد يكون التستاوتي واحدا منهما، وقد صدر منه في حق أولياء الله والعارفين – بفاس– ما جعله يطرح الاعتذار دون انكسار، ولعله قد بدا يستشعر الوصول إلى مقاماتهم، ففني في الحق عن الحلق ولو كانوا من العارفين، لنستمع إليه ولنقرأ ما يقول (ومن توالى عليه المدد الرباني والفيض الرجماني وتسنم قنن التوحيد، وجلس على كرسي التفريد والتجريد رآى الأشياء مضمحلات في أحدية ذات المحبوب، وشاهد متصرفا واحد في المكروه والمرغوب، ومن تكلم عن علم وأخطأ يسامح إن رجع إلى الصواب، ومن ادعى اليقين وهو ليس كذلك عوقب بأشد العقاب، وأنا استغفر الله وأتوب إليه، و)[٤]. وتنتهي الرسالة بما ابتدأت من ذكر للمحبة الواصلة بين المرسل والمخاطبين، لكنها محبة شرعية وليست مطلقة (وأعلمكم

---

[١] نزهة التستاوتي ١، ٧٧، ص ١٥٢.

[٢] نزهة التستاوتي ١، ٧٧، ص ١٥٢.

[٣] م.ن والإحالة.

[٤] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أني أحبكم المحبة الشرعية، وغيرها كالاكسسير ما رأينا من عشر عليه، والنادر لا يتوجه الحكم إليه)[١] .

هذه الرسالة التي انطلقنا منها لتحديد بعض القضايا الصوفية التي ستشغل بال الرجل في كثير من رسائله الأخرى.

ولم نخرج على الأخريات اللائي كتبها إلى أحمد بن ناصر الدرعي لأننا قد خصصنا حيزا من هذا البحث للعلاقة بين التستاوتي والزاوية الناصرية، سواء في عهد التأسيس أو في عهد الامتداد. ثم إن تاريخ هذه الرسالة ١٠٩٠ يحدد الانطلاقة التشوفية في حياة التستاوتي، فبعدها بسنوات كتب رسالته عن المهدوية، وبعد هذه – كذلك – بسنوات حصل سوء تفاهم بينه وبين الخليفة أحمد بن ناصر. وكل هذا قد أفضنا فيه القول في بابه.

٣– لنحدد – مسبقا – القضايا التي سنرصدها في رسائل التستاوتي الصوفية، خاصة منها تلك التي تنزع نحو الجدل الصوفي، إذا صح التعبير، فهنالك الحديث عن :

١– الولاية والقطبانية

٢– الحقيقة والشريعة : الظاهر والباطن

٣– التربية الصوفية ومشيخة الطريق

بالإضافة إلى العناصر المتفرعة من هذه القضية أو تلك.

لن نطيل القول في موضوع الولاية الصوفية، إلا بقدر ما تسمح به أنماط التعبير عنها في بعض الرسائل، مكتفين بما قدمناه عن المحنة كضريبة للولاية في حياة التستاوتي[٢] والحديث عنها – هنا – سيكون صوفيا بالدرجة الأولى كما تعرضه بعض المراسلات. ولن ينسينا هذا عن التذكير بما أشرنا إليه – آنئذ – من أن فكرة

---

[١] م.ن والإحالة.

[٢] انظر : محنة الولاية في الطور الثالث من حياة التستاوتي. من هذا البحث.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الولايـة فـي حيـاة القـوم إنمـا هـي ممارسـة معنويـة لسـلطة روحيـة تتعـاون والسـلطة الدنيوية[١].

وإذا كـان التصـوف فـي غاياتـه وأهدافـه يرمـي إلـى تحقيـق عـالم مـن الصـفاء، وهـذا العـالم لا يتحقـق إلـى فـي "**مدينـة الأوليـاء**"، علـى غـرار المـدائن الفاضـلة لـدى المفكرين والفلاسفة، إذا كـان هـذا هـو أعـز مـا يطلـب فـي دنيـا القـوم، فإنـه لا بـد مـن البحـث عـن رؤسـاء روحيـين يتصـرفون فـي هـذه الـدنيا الصـوفية، ومـا يلقـاه إلا الـذين صـبروا ومـا يلاقاهـا إلا ذو حـظ عظـيم مـن أوليـاء الله. ولـن نـذهب بعيـدا فـي هـذا التفسـير، حتـى لا نسـقط فـي الفهـم الأحـادي للظـاهرة الصـوفية بوجـه عـام ولظـاهرة "**الولاية**" بوجه خاص، لما لهذه الفكرة من رصيد في الأخبار والآثار[٢]، ذلك أن لفظ "**الولاية**" بمصاحباته المعنوية، قد ورد فيه لفظ "**الولايـة**" بالاشتقاق. الأمر الذي يوحي بأن الولاية الصوفية قد اغترفت غرفات من هذا الغدير الشيعي[٣].

والصوفية يربطون – وخاصة منهم أهل الفكر والنظر الفلسفي – بين الولاية ومفهوم "**الإنسان الكامل**"[٤]، إذ الولاية لا تتحقق إلا في الكمال الإنساني والذي يرقى ويرقى إلى أن يتصل بنقطة البداية في مقام النبوة[٥] من هنا تندلق الكرامة الصوفية، كما تتفجر المعجزات النبوية. ولتأكيد هذه المقاربة يذهب المفسرون المتصوفة إلى أن المراد بالحديث "العلماء ورثة الأنبياء"[٦] هم العلماء العارفون بالله، والذين هم أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون...

---

[١] يقول حسين مروة في "النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية" (ج ٢، ص ١٧٢) والأساس الواقعي لفكرة الولاية هذه هي محاولة انتزاع السيادة، أو الزعامة الدينية المطلقة من أيدي الخلفاء... لذلك كان استحداث "الولاية الصوفية" مشكلا من الأشكال المتعددة والمتنوعة التي ظهرت لتحطيم إيديولوجية الدولة...)

[٢] انظر الصلة بني التصور والتشيع الباب الثالث – الفصل الأول (ص ٣٤٧/ وما بعدها)

[٣] انظر الصلة بني التصور والتشيع الباب الثالث – الفصل الأول (ص ٣٤٧/ وما بعدها)

[٤] الإنسان الكامل، هو كتاب لعبد الكريم الجيلي، وقد جمع الدكتور عبد الرحمن بدوي النصوص الفلسفية والصوفية التي تناولت هذا الموضوع، في كتاب بعنوان (الإنسان الكامل في الإسلام) انظر ط/٢، ١٩٧٦/ الكويت.

[٥] انظر الفتوحات المكية (الطبعة المحققة) السفر الثالث، ص ١٦٠.

[٦] م.ن المستقر الثالث، الباب التاسع، ص ٧٨ وما بعدها....

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وليس من شك في أن فكرة "الولاية الصوفية" قد تقمصتها شخصيات عبر التاريخ الصوفي للمسلمين، وعلى رأس هذه الشخصيات الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلاني والذي عبر – بما لا يدع مجالا للإنكار – بأنه قطب الدائرة في مدينة الأولياء.

والقراءة السريعة لتائيته الصوفية، تبلور لنا هذا المنحى العلائي، الذي تضخمت عبره "**الأنا/الصوفية**" إلى أن تعالت مخترقة سدرة البشرية :

وقفت بباب الله وحدي موحدا ... ونوديت، يا جيلاني ادخل
ونوديت يا جيلاني ادخل ولا ... لحضرتي
تخف ... أعطيت اللوى من قبل أهل الولاية
وما قلت هذا القول فخرا وإنما ... أتى الأذن حتى تعرفون حقيقتي

وما قلت حتى قيل لي لا تحف ... فأنت ولي في مقام الولاية
.....إلخ[1]

وشخصية الجيلاني، ستظل النموذج الأمثل لفكرة الولاية في أذهان كثير من المتصوفة، في المشرق والمغرب على السواء، وقد أصبحت له – بعد وفاته – مزارات كالسفارات في كل قطر من أقطار المعمور الإسلامي[2].وعلى سبيل التذكير فقط، فإننا قد ربطنا فيما مضى، بين شخصية الجيلاني عبد القادر، والتستاوني أحمد بن عبد القادر، وما أخال إلا أن هذا الأخير كان يمثله في كل لحظة وحين:

"**وتشبهوا إن التشبه بالكرام فلاح**"

وبعد سنتين من رسالته إلى متصوفة فاس، يكتب التستاوتي رسالة أخرى "**إلى بعض فضلاء الوقت**"، في موضوع مباشر عن المنازعات الصوفية المحركة لما أسميناه بـ "**الجدل الصوفي**"، وإذا كانت الرسالة السابقة تطفح بفيض من اللطف والتأديب الصوفيين، فإن هذه الرسالة ترتفع فيها الحدة الرادعة. وقد نستفيد من هذا –

---

[1] السفينة القادرية ص ١٦٥ (من تأليف عبد القادر الجيلاني) ط مكتبة النجاح – ليبيا.

[2] انظر الفصل الثاني عن الأولياء من "كتاب" دراسات في العقلية العربية" ص ١١١. للمؤلفين : سلوى الخماس وإبراهيم بدران.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وعبر أسلوبها وألفاظها – إن هذا الموسوم بالفضيلة في التصدير، قد صدرت منه في حق التستاوتي أشياء ينتزه عنها "**العارف بالله**" بله الولي من أوليائه. إلا أن الرسالة تفيد بأن هناك "**تنازعا في العلم الصوفي**" بين المرسل والمرسل إليه. وكلاهما لم يسلم لصاحبه التسليم الكامل (وليت شعري هل يجد العارف وقتا يشتغل فيه بعيب الناس دون مراقبة الأنفاس، ولعلك رحلا أو واصلا، أو غافلا، فالراحل إلى الله لا يلتفت لسواه، والواصل إليه مشغول بما يورد عليه، والغافل عنه مطرود منه لا يعول عليه ولا يلتفت إليه... [1][2] والتستاوتي بهذه الافتراضات المشككة، يقطع طريق الولاية على صاحبه الموسوم بالفضيلة، لأنه قد ضرب للغير مثلا، ونسي خلفه (وفهل هذبت نفسك وصفيت معناك وحسك ؟ فمتى أبيح لك ثلم الأعراض، وأعطي لك معالجة الأمراض ؟ وهل أحطت علما بالطوبات وكشف لك ما حجب من المغيبات ؟ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب. فمن أين لأحد الإطلاع على المراتب، والاستكشاف على المعايب، فليتك حاولت الإنابة عن السباحة في هذا البحر العميق, وسألت السلامة من هذا المدحض والضيق[3]. هكذا يرتفع الخطاب في الرسالة من أسفل إلى أعلى بين المرسل والمرسل إليه، لعلم التستاوتي بأن صاحبه لم يصل بعد إلى ما يصبو إليه، لأن الواصل عليه أن "يتخلق بالأوصاف المحمدية ويتحقق شريعته الطاهرة" ومن لم يكن كذلك (فقد جعل نفسه هدفا، وخيف عليه تلفا، على أن القلقلة في الكلام أضغاث أحلام) ويتبين من هذه الشروط الموصلة إلى درجة الواصلين بأن تحقق الولاية للصوفي ليست بيسيرة المنال، ولا يدركها إلا من اتصفت نفوسهم بالرحمة والاستقامة. ولا تنفع الوراثة مع الاعوجاج لأن الحراثة لمن لم يكن بصناعتها عليما)[4].

إن مدينة الأولياء، كما هي في الخطط الصوفية، ليست سائبة في رئاسة والتسيير، إذ المسؤولية فيها مقسمة وفق المراتب والمناصب والمقامات والدرجات، وما على الصوفي إلا أن يجاهد ذاته ونفسه من أجل أن ينال – في مدينة الأولياء درجة

---

[1] "ولعلك راحلا أو واصلا ... "هكذا في الأصل، وهو خطأ نحوي....

[2] نزهة التستاوتي ١، و ٤٠، ص ٧٨.

[3] م.ن والإحالة.

[4] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من تلك الدرجات –. وهكذا وضعت مصطلحات صوفية لهذه المناصب الروحية، فهناك الإبدال، والأوتاد، والنقباء، والنجباء، والأقطاب[١]...

والمراتب الصوفية إنما تخضع لهرم صوفي تصاعدي، يتسنم في علاه الرجل الذي تحققت لديه القطبانية الكبرى.

وإذًا، فإن من القضايا التي شملت بال الصوفية في مغرب القرن الحادي عشر ما يندرج في دائرة المراتب الصوفية. في مقابل الآخرين من الفقهاء والرجال السياسين الذين تربعوا على السلطة الدنيوية، ليقع التوازن بين جدلية الدنيا والآخرة في النظام الحضاري للدولة الإسلامية. عر التاريخ، منذ أن اشتدت حدة التيارات حول الخلافة الإسلامية.

والتستاوتي – كمتصرف مغربي، وداخل البنية الصوفية لمجتمع القرن الحادي عشر كان مشدودا إلى مدينة الأولياء بمراتبها ومناصبها كغيره من الأشياخ المغيبين عن الواقع الساخن بالأحداث والمتغيرات[٢].

وبين يدينا رسالة خاطب بها "**الصفي الوفي فلان بن فلان**" في رجب الفرد سنة خمس ومائة وألف، وقد ابتداها بتنبيه دال، قد يكون مؤشرا الباقي الدلالات الأخرى الصوفية في الرسالة (اعلم، أصلحك الله أنه لا يقلد مجتهد غيره...) وإذا كانت هذه القاعدة في علم الظاهر، يعمل بها، فهي محمولة على الدليل، فإن التستاوتي استصحبها للقياس عليها في علم الباطن القائم على دليل الحدس والاستبصار، وهو دليل لا تنتظمه المسالك الواضحة البراهين، بهذه القاعدة يبني التستاوتي أفكار رسالته إلى فلان بن فلان، (وإذا صح أن المجتهد لا يقلد غيره فيما وضح دليله، فكيف يحمل التقليد على من أدلته غيب)[٣].

وإذا كانت الرسالة السالفة أبانت عن ترجيح كفة صوفية على كفة أخرى، بين المرسل والمرسل إليه، فإن هذه الرسالة في معطياتها الذاتية والصوفية، هي بمثابة

---

[١] انظر "مراتب الصوفية" في كتاب (الصلة بين التصوف والتشييع) ص ٤٥٧ وما بعدها.

[٢] أنظر أحداث عام ١٠٩٢، في الالتقاط، والنشر (الالتقاط، ص ٢٢٢، والنشر ٣٠١/٢).

[٣] نزهة الناظر ١، ٥٠، ص ٩٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

النقيض في الموازنة بين الطرفين. فالتستاوتي، كما بتاريخ الرسالة (١١٠٥) ينطلق في خطابه الصوفي من التجربة الذاتية التي يعيشها خلال هذه السنة، ومن ثم فإن ما وقع له، اعتبر من منظور الآخرين وكأنه تصرف أو (تصريف) صوفي لحق به من طرف ولي كبير من أولياء الله الصالحين. ومن هذا المنطلق الذاتي دارت الأفكار الصوفية في هذه الرسالة دورانا بين مدارات الولاية، والقطبانية، وما في مجاليهما من الأوتاد وأصحاب الوقت...

والرسالة هذه، يجب أن تقرأ قراءة صوفية، ومن منظور صوفي يستمد إشعاعه من الطاقة الروحية التي كونتها تجارب المتصوفة السابقين عبر تنظيراتهم وأفكارهم التي اعتمدت في التخطيط لبناء "**مدينة الأولياء**".

والفكرة المبدئية التي تتمحور حولها باقي الأفكار في رسالة التستاوتي، هي أن "**رجال الله**" لا يعرضون أنفسهم قصد الأخبار والذيوع، فهم أبدا متسترون ومحجوبون، إما عن الخاصة وإما عن العامة، وإما أنهم في حجاب عن الجميع. بل إن رجال الله يتسترون عن قصد فيما يفعلونه ويمارسونه من سلوكات. وفي هذه الحالة فإن التعرف على هؤلاء لا يتأتى إلا عن طرق الكشف الصوفي الصادر عن بعض (الخواص ممن منحه الله ذلك وأجلسه على بساط الاختصاص)[١].

كما عبر عن ذلك صاحبنا في رسالته بلفظه. وكان يتمنى على الله أن يحصل على (ملاقاة رجل من الأوتاد، واخدمه على رؤوس الإشهاد، وهذه المسألة معتاصة جدا، ولم نجد لها في الظاهر والباطن بدا، ولا يحصل الخلوص إليها والإقدام عليها إلا من طريق الوحي أو الكشف الصحيح، وقد طويت صحف الوحي، ودعوى الكشف غيب، وتصحيحه بلا مصحح عيب... وإلا فقد قيل أن لله عبادا حجبهم عن الخاصة، وعبادا حجبهم عن العامة دون الخاصة، وعبادا حجبهم عن الخاصة دون العامة، وعبادا لا يعرفون أنفسهم ولا تعرفهم إلا الملائكة الملائكة الكرام، وتجول أرواحهم في الملكوت الأعلى وهم لا يشعرون[٢][١]...

---

[١] م.ن والإحالة.

[٢] وانظر جمهرة الأولياء للحسيني ص ١٠٠. حيث نجد أن التستاوتي ينقل عنه بالحرف الواحد، في موضوع رجال الله يقول صاحب الجمهرة لله رجال لا يعرفهم إلا الخاصة، ولله رجال يعرفه الخاصة والعامة، ولله رجال لا يعرفهم الخاصة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والتستاوتي في هذا الطرح الصوفي إنما يصدر عن الرصيد التراثي الذي اطلع عليه من جهة، كما أنه يصدر عن استبصار ذاتي بالقضايا الصوفية التي يعالجها. ولم لا يكون الرجل يستفتح من "الفتوحات المكية" وغيرها من تراث القوم، والحالة أن الرسائل الصوفية لا تنطلق – فقط – من ظاهرة الإبداع الإنشائي، بل أنها تعبير عن اختمار ثقافي في موضوع صوفي.

وابن العربي في فتوحاته يصور هذه الطائفة من رجال الله المحجوبين عن العباد، وكأنهم "**حور مقصورات في الخيام**" لأنهم في مقامهم – كما يقول ابن العربي– أقرب إلى "**مقام القرية في الولاية**" ولهذا، فإن الله قد (حبس ظواهرهم في "**خيمات العادات والعبادات**" من الأعمال الظاهرة، والمثابرة على الفرائض منها والنوافل، فلا يعرقون بخرق، فلا يعلمون. ولا يشار إليهم بالصلاح، الذي في عرف العامة، مع كونهم لا يكون منهم فساد. فهم الأخفياء، الأبرياء، الأمناء في العالم، الغامضون في الناس فيهم...)[٢] .

ويتابع ابن العربي حديثه عن "منازل صون الأولياء" الذين (صانوا نفوسهم عن نفوسهم، فلا تعرفهم نفوسهم، فهم في غيابات الغيب، محجوبون، هم ضنائن الحق، المستخلصون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، مشي ستر وأكل حجاب، فهقه حالة هذه الطائفة المذكورة في هذا الباب)[٣].

والباب المشار إليه، في كلام ابن العربي، قد خصصه لـ "**معرفة الأقطاب المصونين وأسرار صونهم**"[٤] إلا أن صاحب الفتوحات يعتبر "**الملامية**" هي الطائفة المقصودة بالذات، وهي التي تحتل مقام القرية في الولاية (اعلم – أيدك الله أن هذا

ولا العامة. ولله رجال أظهرهم في النهاية، ولله رجال لا يعرفهم سواه. ولا يطلع على ما بينهم وبينه إلا الحفظة الكرام الذين وكلوا بحفظ السرائر، ولله رجال اختص بمعرفتهم.

[١] م.ن والإحالة. وانظر "كشف المحجوب" في تفضيل "الأنبياء والأولياء على الملائكة" ص. ٤٧٧ (ت/د اسعاد عبد الهادي فندي)

[٢] الفتوحات المكية (السفر الثالث) من الطبعة المحققة، على يد الدكتور عثمان يحيى.

[٣] الفتوحات المكية ..... السفر الثالث، ص ١٥٨/١٥٩.

[٤] م.ن، ص ١٥٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمين بـ"**الملامية**" وهم الرجال الذين حلوا من الولاية في أقصى درجاتها، وما فوقهم إلا درجة النبوة. وهذا يسمى مقام القربة في الولاية....)[١].

ومن غريب الصدف، أن التستاوتي في هذه الرسالة أشار إلى هذه الطائفة بلفظ آخر، في سياق حديثه عن الرجال المحجوبين عن أنفسهم وعن الناس وعن أصحابهم. لكن التستاوتي في هذا الربط بين هؤلاء والطائفة الملامية إنما أيستعمل صلة الوصل الذاتية، كعادته (ومن حقق هذا المقام، علم أنا في نعمة يعجز الإنسان عن شكرها، واللسان عن حصرها، فكونها من الله نعمة، وهو يزعم أنها سوط نقمة ضرب فيه المؤدب، منازعة للألوهية، ودعوى حضر للخصوصية. وقد حصل لنا من ذلك فوائد أجل من الجرائد، منها صدود الناس عنا، وإساءة ظنهم وتقصيرهم منا، ووقوعهم في أعراضنا من غير اطلاع على أغراضنا...)[٢] ثم يستطرد التستاوتي ليقيس حكما على حكم، وحالة على حالة مع الفارق الذي خفي على الرجل، (وقد كانت الأكابر من "المخربين" يصنعون أشياء ينكر ظاهرها ويحمد باطنها، لتحصل لهم هذه الفوائد، كإبراهيم الخواص[٣] سرق ثياب ابن مالك فأخذت منه وضرب، وكان يعرف بلص الحمام، وقال لنفسه "**الآن استرحتمنك**")[٤]. ولعلنا نتساءل عن هؤلاء المخربين الذين ورد ذكرهم في رسالة أخرى، كتبها قبل هذه بـ ٣ سنوات. والرسالة خاطب بها صديقه الهشتوكي[٥] وفيها يشرح التستاوتي (مذهب أهل التخريب – رضي الله عنهم – وهو – مبني، يقول التستاوتي – على إظهار المساوئ وإخفاء المحاسن، وأنواع التخريب كثيرة، والمخربون كثيرون، ولا يزالون يتعاطون ما يؤدي إلى إساءة الظن بهم، وسقوطهم من قلوب الخلق، ورميهم لهم بالعظائم، لا يحتفلون بمدح الخلق ولا بذمهم، استجلابا لكمال الإخلاص، ولا يبالي أحدهم بكونه عند الخلق زنديقا، إذا

---

[١] م.ن، ص ١٥٣.

[٢] نزهة الناظر ١، و ٥١، ص ٩٩/١٠٠.

[٣] إبراهيم الخواص : هو في الطبقة الثالثة من (طبقات الصوفية) للسلمي، ص ٢٨٤، ويذكر القشيري في رسالته ص ٤٠ أنه من أقران الجنيد والنوري. مات بالري سنة ٢٩١.

[٤] نزهة الناظر ١، و ٥١، ص ١٠٠.

[٥] نزهة الناظر ١، و ٤٢، ص ٨١. وما بعدهما.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كان عند الله صديقا...)[١]، إذا كان هذا هو مطلب أهل التخريب، فإنهم قطعا ملامتيون، أو ملامية كما يسميهم ابن العربي في الفتوحات، والجرجاني في التعريفات، يقول هذا الأخير في "**تعريفاته**" (الملامية) هم الذين لم يظهروا مما في بواطنهم على ظواهرهم، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الأخلاق، ويضعون الأمور مواضعها حسبما تقرر في عرضة الغيب، فلا تخالف إرادتهم وعملهم إرادة الحق تعالى وعلمه، ولا ينفون الأسباب إلا في محل يقتضي نفيها، ولا يثبتونها إلا في محل يقتضي ثبوتها[٢] ويلتقي الجرجاني مع ابن العربي في التصوير المجاوي الذي أعطى لهذه الطائفة، فقد شبههم ابن العرب بالحور المقصورات في الخيام، أما الجرجاني فيقول في حقهم (وهؤلاء هم الذين جاء في حقهم أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري)[٣].

ومما لا شك فيه، هو أن عبارة "**أهل التخريب**" الواردة في رسالة التستاوتي – إلى صديقه الهشتوكي – لا يمكن أن تكون من استعمالات التستاوتي اللغوية، خاصة وأنه يشير في هذه الرسالة إلى مصدر ينقل عنه، هو كتاب "**نشر المحاسن الغالية**" لليافعي. ولعل لفظ "**التخريب**" هو من محاسن اليافعي[٤].

وإذا تساءلنا عن هوية أهل التخريب، أفلا يحق لنا أن نتساءل مرة ثانية[٥] عن مدى التعاطف الصوفي الذي خص به التستاوتي الطائفة الملامية ؟ علما منا – كما أشرنا إلى ذلك في الجانب الذاتي من رسائله – بأن التستاوتي لم يكن ملامتي

---

[١] م.ن والإحالة.

[٢] كتاب التعريفات، ص ١٠١ (طهران).

[٣] ن م.

[٤] عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، عدني النشأة والمولد (٦٩٨-٧٦٨ هـ)، نسبة إلى بن يافع بن حمير، توفي بمكة من مؤلفاته مرآة الجنان وعدة اليقظان في معرفة حوادث الزمن، ونشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ أصحاب المقامات العالمية. انظر الأعلام، ص ١٩٨/١٧٨.

[٥] في تحليلنا للجانب الذاتي من رسائل التستاوتي، طرحنا سؤالا على ذاتية التستاوتي، هل هي رومانسية، صوفية، ملامتية ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المذهب، وإنما كان يستجيب ذاتيا لما كان يمارسه الملامتيون من أحوال وتصرفات[١].

وانطلاقا من هذه الاستجابة – أو التعاطف – فإن التستاوتي كان متأثرا إلى حد بعيد بالمنزع الملامي الذي كان يصدر عن هذه الطائفة. وهذا يفسر نزوع التستاوتي إلى التلذذ بالآلام الذي صاحبه منذ أن لبس حرفة الصوفية على يد الشيخ ابن ناصر الدرعي. وكان يحدوه دائما الصدق والإخلاص، في كل تجربة يحكيها أو رسالة يكتبها، كهذه الرسالة التي ختمها بأبيات من المنفرجة لابن النحوي مخللا إياها بهذه الكلمة الصوفية :

(ما أعذب الصدق، وأعذب منه الغيبة بالحق) [٢].

٤– وإن العصر الذي عاش فيه التستاوتي – من الناحية الفكرية والاجتماعية – كان مشدود إلى الخطين المتوازيين، وبينهما برزخ من المفارقات كبير، والمتصوفة في هذا العصر وابتاعهم، كانوا مشغولين بالمدينة الفاضلة التي يحلمون بها في عالم الروحانيات، وليس بد – أمام هذا الانشداد والانجذاب أن يحدث من نهافت على هذه السلطة الروحية، والتي لا تتحكم فيها ضوابط من الظاهر أو الباطن. وقد كانت رسائل اليوسي – الصوفية – منددة بهذه الظاهرة، الملحوظة في سلوكات بعض الأدعياء[٣]. وصاحبنا التستاوتي، رغم موقفه من الولاية وأصحابها، والطي اتسم بالتحفظ أحيانا، والتسليم الكامل أحيانا، لم يفته أن يسجل في بعض رسائله ظاهرة التهافت على الولاية، بل إنه يتعجب من تطاول البعض من المتهافتين، فطالوا بادعائهم مدارج القطبانية. وهذه بلوى – يقول التستاوتي – ابتلى بها هذا العصر (وقد عمت البلوى أصحاب فقراء الوقت، فكل واحد يظن بصاحب القطبية وما اقتصر على الولاية[٤]) ذلك أن "**القطب**" في مفهوم التستاوتي هو أعز من الكبريت الأحمر، كما في

---

[١] انظر الباب الثامن، من كتاب عوارف المعارف للسهروردي " في (ذكر الملامتي وشرح حاله) ص ٧١. وانظر "تلبيس إبليس" لابن االجوزي، وانتقاداته للملامتية، ص (فصل ومن الصوفية الملامتية)، ص ٣٦٣.

[٢] نزهة التستاوتي ١، و ٥١، ص ١٠٠.

[٣] انظر الرسالة الغياثية من (رسائل اليوسي) ٢، ٣٤٧، وما بعدها.

[٤] نزهة التستاوتي ١، و ٥٠، ص ٩٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

رسالته إلى الهشتوكي، لأنه (النائب عن الله في التصريف قدمه على قدم النبي الشريف، يملك الأحوال والمقامات، والتولية والعزل من سائر الحيوانات، فهذا يسلم له الأمور، ويقدم في الورود والصدور....) تلك هي وظيفة القطب في مفهوم التستاوتي، وتلك مرتبته من الأنبياء، أما شروطه فيجعلها التستاوتي منوطة بالتخلق بالأوصاف النبوية، والإقتداء بالأفعال المحمدية، وهذا هو الكبريت الأحمر، من ظفر به فقد حصل له الحظ الأوفر[1]) وفي شرحه لبعض الأبيات من منظومته : "**عقد جواهر المعاني في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني**". نلاحظ – في كلام التستاوتي – مفهوما للقطب أكثر غنوصية مما سلف، لأنه في معرض الحديث عن "**قطب أقطاب الوجود**" الشيخ الجيلاني، كما صرح بنفسه، ومن ثم فالتستاوتي يعتقد أن (القطب هو الذي تنتهي إليه رياسة الأمة ظاهرا وباطنا[2] ، وهذه الرياسة لها تخريج يعتمد دليله من الحديث الوارد في موضوع الوراثة النبوية. وهكذا تتراوح القطبية في كلام التستاوتي بين النيابة عن الله أحيانا والنيابة عن الرسول أحيانا أخرى.

وإذا كانت المفاهيم – حول الولاية – في رسائل التستاوتي، هي ما قررناه اعتمادا على النصوص الكثيرة، فإننا نشير إلى أنه كان ينطلق في جدله الصوفي من ما عده يطرد ذكرها في هذه الرسائل، إلا وهي "**حسن الظن بالله وبعباده**"، مما يعطي لمواقفه نزعة التسليم بدل الإنكار، لكن هذا التسليم مقيد بضوابط من الشرع المنصوص عليها بالإجماع. (وقد ورد – يقول التستاوتي – عن محي الدين بن العربي رضي الله عنه أنه قال " لو كنت في زمن الحلاج لأخذت بيده، والعارف يرى نفسه دون كل شيء، فإذا سئل عن أحد قال الأدنى لا يعرف مرتبة الأعلى، ومن وقع في أمر مختلف فيه لا حسبة عليه، ومن أخبرنا عن حال نفسه صدقناه، ولو ادعى القطبية ما كذبناه، ما لم يظهر من مدعي ذلك منكر متفق عليه، فيتولى الرد عليه من انبسطت يده بالشرع العزيز مع السلامة من الشهوة، وإلا يفعل ذلك تشفيا بل امتثالا لأمر الله....).

---

[1] نزهة التستاوتي ١، و ٥٠، ص ٩٨.

[2] ن م ١، ٤٤، ص ٨٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والخلاصة، في هذا الجانب التصوفي في رسائل التستاوتي الصوفية، هو إن الحديث الجدلي عن الولاية وما في مجراها هو الطابع المميز للرسائل المذكورة، خاصة منها الموجهة إلى شخصيات صوفية لم يذكرها التستاوتي بأسمائها وهذه ملاحظة أبديناها في بداية هذا الرصد التحليلي لهذا الجانب. وهو رصد نسبي ومختزل لأن رسائل الرجل في هذا المدار أكثر من أن يحصيها النظر العابر، كهذا. ولكننا لخصنا نظرته عبر رؤية تصاعدية سجلتها بعض التواريخ في رسائله وقلنا – آنئذ – بأن ظاهرة الجدل الصوفي، في إطار المنازعات الطرقية.... إنما نشأت في كتابات التستاوتي بعد أعوام التسعين بعد الألف، وهي أعوام فعلت فعلها – ذاتيا وموضوعيا – في شخصية الرجل.

ولا يمكن للباحث أن يرصد الطاهرة بالوصف المجرد لاغير. وإلا فما هو التفسير الذي سيعطي لهذه الظاهرة. والحالة أن الحديث عن الولاية، كفكرة مثالية لمدينة الأولياء، إنما صاحب حياة التستاوتي منذ أن لبس الخرقة – كما قلنا.

وقد اقتصرنا في هذا الرصد على بعض الرسائل دون غيرها، إما لأننا تناولناها فيما قبل، للتشابه الحاصل في بعضها. ولم نحاول الامتداد في أدب التستاوتي بوجه عام، قصد استكمال الرؤية في إبعادها التعبيرية، ذلك أن شعر التستاوتي لم ينج من هذا الإحساس الصوفي المتعالي، وإرجاعنا ذلك إلى القسم الأخير من هذا البحث.

وحتى تتضح الرؤية أكثر – في هذا الباب، فمن اللازم أن نعتبر ما كتبناه سلفا، في باب المحنة والولاية " في حياة التستاوتي كجزء قبلي لهذا الرصد التحليلي، الذي قدمناه بين يدي الرسائل الصوفية.

وهناك جانب آخر، في رسائل التستاوتي لا يتصل بالمنازعات الصوفية بالدرجة الأولى بقدر ما يستمد مادته من النزاع الديني بشكل عام، وهذه الرسائل يمكن أن تكون واجهة أخرى للصراع في هذا العصر، بين علماء الظاهر وعلماء الباطن، فالتستاوتي، إنما يخاطب فيها علماء أو فقهاء لهم موقف من التصوف ورجالاته. إلا أن حدة هذا النزاع – في المغرب – لا يرقى إلى ما كان عليه في المشرق، نظرا لما كان يميز الشخصية المغربية الصوفية من اعتدال وتوازن في هذا الميدان، فترى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المتصوفة وهم فقهاء، وترى الفقهاء، وترى الفقهاء وهم آخذون بنصيب من تصوف الجنيد السالك. وقلما كان يحتد النزاع ليصل إلى القطيعة الكاملة بين الاتجاهين. ثم إن المغرب لم يعرف النزعة الصوفية المتطرفة في شطحاتها ومشاربها، كما عرفها المشرق الإسلامي.

وتبعا لهذا الربط – في الجدل الصوفي، بين الطاهر والباطن، فإننا سنتناول بعض الرسائل التي تعكس بصورة أو بأخرى موقف التستاوتي من الصراع الأبدي بين الحقيقة والشريعة، أو بين علم الظاهر وعلم الباطن، دون أن نخوض في باقي الجوانب الدينية المبثوثة هنا أو هنالك من رسائل أخرى، كقضية تغيير المكر وشروطه، وعلى من يجب، ومن هـ المؤهلون ذلك إلخ... آخر التعريفات الدينية التي تسجل اهتمامات التستاوتي الدينية بشكل عام.

وعلى عادة الرجل، فإن بعض هذه الرسائل، سيبقى المرسل إليه فيها محجوبا، بفلان أو فلان، أو كنية بقريبنة، أو لقب بغير قرينة.

٥- إن موضوع الحقيقة والشريعة، في الفكر الإسلامي، لا يمكن –بال– بسط التصورات فيه، في عجالة كهذه، فهو من أعمق القضايا التي شغلت بال الدارسين، شرقيين أو مستشرقين، ولن نحيد عن الصواب إذا قلنا بأن إشكالية الظاهر والباطن، الحقيقة والشريعة تعد من أعوص ما تناوله الفكر الإسلامي لامتداده الغنوصي إلي أغوار الأفلاطونية المحدثة، واستنباته في الواقع السياسي الذي ألهب من أواره، وإن احترقت بذلك ذوات ربانية كالحلاج والسهروردي وغيرهما من شهداء الحقيقة الباطنية.

ومع اعترافنا لكثافة الحجم قي هذه القضية، الشائكة، فليس بد من إلقاء ولو نظرة على الملابسات التي أصابت ولادة الثنائية الأزلية بين أصل الرسوم وأصل المفهوم. أهل الظاهر وأهل الباطن، أهل الحقيقة وأهل الشريعة. والسؤال المطروح هنا، متى ظهر الانفصال بين الثنائية المتكاملة. والإجابة تقتضي رصد التطورات التي عرفها الفكر الصوفي، منذ أن كان زهدا، إلى أن تحول فلسفة غنوصية تستقي معرفتها من التيارات التي عرفها العالم الإسلامي في حلبة القضايا الفكرية الأصلية منها والوافدة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومما لاشك فيه، هو أن الطور الأول السلوكي للتصوف الإسلامي لم يكن يعبأ – أو لم يكن يدرك – بما تحمله ثنائية الظاهر والباطن، لقرب الفترة من عهد الصحابة ومن الرسول عليه السلام. ولما تداخلت القضايا الفكرية، واحتدت النزاعات المذهبية، وتقاتلت الطوائف السياسية، ودخل العصر الإسلامي بفتوحاته إلى عالم رحب، تسللت إلى عمق الفكر الإسلامي بذور فلسفية طعمت التجربة العقلية بمقولات وقضايا كان من أبرزها ذلك الأثر البالغ الذي غير من مجرى الفكر الإسلامي، على صعيد الفلسفة والتصوف المصاحبين.

ولكن المتصوفة لم يعدموا مسالك الدلالة على شرعية فكرة الظاهر والباطن، فعمدوا إلى تأصيل مصطلحاتهم بما ورد في بعض الأحاديث[١] من أن القرآن ظاهرا وباطنا، ومنهم من ينسب هذه المقالة إلى علي بن أبي طالب، وبلفظ آخر يقول (ما من آية – في القرآن – إلا ولها أربعة معان : ظاهر وباطن، وحد ومطلع[٢]).

وإذا صحت التأصيلات السابقة، فإن القضية، يجب أن ينظر إليها في إطار حقيقة المعرفة عند هؤلاء، وأولئك، أهل الظاهر من الشريعة، وأهل الباطن من المتصوفة.

وانطلاقا من تباين التصورات لهذه المعرفة الدينية فقد تباينت كذلك المفاهيم التي فسرت النصوص القرآنية، بل حتى على المفاهيم حول العبادات وأسرارها ويكفي أن نلقي نظرة على المصادر الصوفية أو على بعضها لنتتبع الصورة أكثر ، فالصوفية قد لا يكتفون بالمعاني القريبة للنصوص، ولا بالمعاني الخارجية لبعض العبادات، من صلاة، وصوم، وحج.... وزكاة. ويمكن اعتبار "إحياء علوم الدين" للغزالي من المصادر التي لم تحد، في مفاهيمها للنصوص عن المعاني القريبة إلى أهل الظاهر، أما ابن العربي في الفتوحات المكية فإنه يحمل النص الديني حمولات إسقاطية على مجمل التأويل البعيد. وهكذا فقد وضع الصوفية لأنفسهم قواعد للتأويل

---

[١] انظر تخريجه ف هامش "الإحياء" ٩٩/١، ط دار الرشاد الحديثة. والحديث أورده الحاتي في الفتوحات (السف الثالث، ص ١٨٨) في سياق الحديث عن (مراتب رجال الله في فهم مراتب القرآن).

[٢] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الصوفي، جعلوها مدخلا للتفاسير القرآنية التي جاءت في خط متواز مع ما وضع للقرآن من محاولات تفسيرية اعتمد فيها على الأصول الفقهية المعروفة[١].

وإذا، فإن المدار في هذه الثنائية عائد إلى مصدر المعرفة عند الطرفين، إذ المعرفة الصوفية للحقيقة والحق، لا يمكن بحال، أن تكون متشابهة مع ما يدعوا إليه أهل الرسوم، وقد قلنا فيما سبق، بأن "الصوفية" يعتقدون أنهم الورثة الحقيقيون للإرث النبوي بالولاية الكاملة. والولي عن طريق الكشف والإلهام هو المقصود بما تفيده الآية (والراسخون في العلم) لأنه يمتلك المفتاح الوهمي لحل المغلق في هذا العلم[٢]. وتكون النتيجة هو أن مستويات المعرفة الدينية تنطلق في خط متصاعد يترقى ليصل إلى تخوم المعرفة الصوفية المسيجة بالحدوسات والكشوفات. ولن يرضي هذا بحال أهل الظاهر والرسوم.

تلك باختصار شديد، الملابسات الفكرية وغيرها التي صاحبت نشوء الثنائية بين الحقيقة والشريعة، ولم نحاول تمطيط الإطار النظري أكثر، حفاظا على حجم التوطئة المناسبة. كما أننا لم ندل برأي في الموضوع ضدا أو انتصارا، لأن المقام لا يسمع بذلك، وإن كنا نعلم أن المغالاة حصلت بين الطرفين، فقد غالى المتصوفة في شطحاتهم، كما غالى الفقهاء في قسوتهم، وكان ابن الجوزي ممن لبس عليهم، فجعلهم من المغرر بهم. في تلبيسات إبليس[٣] ثم إن القراءة الواعية لمصادر التصوف الإسلامي تجعلنا نطمئن إلى أن غالبية المتصوفة كانوا يقيمون للشريعة الوزن الكبير، إلا من زاغ عن الطريق بشطحاته، وسلوكاته المخلة بالحدود. والتي اعتبرت من طرف الفقهاء زيغا وضلالا واضحين. وقد يكون السبب في ذلك، ناتجا عن الرؤية الفقهية المحجوبة بالظواهر عن الإبعاد الصوفية التي يرمي إليها أصحاب الطريق. هذا، عن

---

[١] انظر "مشكاة الأنوار" للغزالي، وتفسيره لآية النور، وانظر الفصل المخصص للتفسيرات الصوفية في (الصلة بين التصوف والتشيع)، ص ٤١٤.

–وانظر كتاب زيمور، (التفسيرالصوفي للقرآن عند الصادق)، ص ٦٥ ونسب لجعفر الصادق تفسير "بعنوان هفت الأذلة "لتحقق عارف تامر.

[٢] النزعات المادية ٢/٢١٠ وما بعدها.

[٣] تلبيس إبليس ص ٣٢٤، وقد خصص ابن الجوزي ما يقرب من نصف حجم الكتاب، منتقدا فيه بالنكير الشديد مسالك الصوفية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

القضية، في المشرق الإسلامي، وماذا عنها في بنيات الفكر المغربي ؟ والجواب، هو المدخل إلى تبيان الموقف منها، في رسائل التستاوتي.

إن الأمر يختلف – في المغرب – عما عهدناه في المشرق الإسلامي، تجاه هذه القضية فالمغاربة، منذ أن تأسست البنيات الدينية فيه، اتخذوا من المذهب المالكي[١] الفيصل في المسائل الدينية والفقهية، بل وحتى ف القضايا السياسية والفكرية.

ومن هذه المسلمة يمكن لنا أن نفهم الخطوط العريضة التي رسمت الطريق للفكر الصوفي في المغرب، وهو لا يعدو أن يخرج عن دائرة التصوف السني[٢]. وقد رسم محاوره ابن عاشر في أبياته الشهيرة[٣].

وعند توقفنا – اليسير – مع أحمد زروق ورسائله، يتضح لنا، الدور الكبير الذي لعبه هذا المغربي في حفظ التوازن بين الشريعة والحقيقة، وقد استحق بذلك أن يكون "محتسب العلماء والأولياء". وبالرجوع إلى كتابه الصغير عن (قواعد التصوف)[٤]، نستطيع أن نتلمس الخطى الواضحة التي رسمتها قواعد زروق للتصوف المغربي، وبقيت تتردد هذه القواعد عي الكتابات المغربية الصوفية، في رسائل ابن ناصر الدرعي، وفي رسائل اليوسي[٥] والشيخ زروق، كان على بينة من المدارس الصوفية ومصادرها، ومن ثم، فإنه حاول أن يرسم المستويات المعرفية للنظرية الصوفية، ففي القاعدة رقم (٥٩) يطرح زروق التصورات المختلفة لفهم الطريق الصوفي، فهناك تصوف للعامي، وتصوف للفقيه، وتصوف للحدث، وتصوف للعابد، وتصوف

---

[١] انظر في هذا المجال أبحاث الدكتور الجراري عن الوحدة المذهبية.

[٢] انظر أبحاث المرحوم علال الفاسي عن التصوف الإسلامي في المغرب، في مجلة (الثقافة الغربية)، الأعداد ١، ٢، ٣.

[٣] انظر الجزء الأخير من شرح ميارة على منظومة ابن عاشر (كتاب مبادئ التصوف وهوادي التعرف)، ط الفاسية.

[٤] نشر بمصر بتصحيح محمد زهري النجار، بمكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٦.

[٥] انظر النصيحة الغياثية من الرسائل ٣١٩/٢، وانظر الرسالة الوصية، ص ٣٦٦، وفي المحاضرات ص ٦٣ باب عن الحقيقة والشريعة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

للناسك، وتصوف للحكيم، كما للمنطقي تصوف وللطبائعي تصوف[١]..... ويرمي زروق بهذا التفصيل الشمولي أن يعمم المعرفة الصوفية في تسامح وتباين.

وفي القاعدة رقم ٢٦، يحاول زروق أن يفصل بين الفقيه والمتصوف، فهو يقول بنصه (حكم الفقيه في العموم، لأن مقصدة إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه، من غير زائد على ذلك).

ويتابع زروق تحليله للعائقة بين الطرفين، وهو يقف إلى جانب الفقيه، باعتباره الحارس على الحدود (ومن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي، ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من المتصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه). والكلمة القاعدة في موقف زروق هو أنه يصنع النموذج المثالي للصوفي، ولهذا ينصح المخاطب بقواعده قائلا (كن فقيها صوفيا، ولا تكن صوفيا فقيها[٢]) تلك هي القواعد الضابطة بين العلاقة المطروحة، في قضية الحقيقة والشريعة. والمغاربة كانوا يرددون دائما في مجالسهم هذه المقالة (من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه دون أن يتصوف فقد تفسق، ومن جميع بينهم فقد تحقق[٣] هذه هي الخلفية العامة التي تقف وراء المواقف المطروحة في حلبة الحقيقة والشريعة، في تصوف المغاربة عموما وتصوف القرن الحادي عشر على الخصوص ولن يحيد التستاوتي عن الحدود المرسومة في هذا الإطار الموجه لأنه قبل كل شيء أخذ الطريق عن ابن ناصر، والذي أخذ اللقب الشهير (محيي السنة وميت البدعة). وبالرجوع إلى أقواله في الرسائل وغيرها تهتدي إلى الحقيقة الصوفية التي قامت عليها الزاوية الناصرية، وهي حقيقة لها من التصوف السني الظاهر والباطن.

وهذا الالتزام بالحدود السنية، في تصوف التستاوتي – من خلال رسائله– لا يستوجب إسقاط الحالات الصوفية التي يغلب فيها السائر والسالك والواصل. وضبط

---

[١] القواعد، ص ٣٥.

[٢] القواعد، ص ١٥.

[٣] مقالة تنسب إلى الإمام مالك، وقد حللها زروق في قاعدة رقم (٤) من كتابه، ص ٤. ولهذه المقالة المالكية تأثير كبير في التوجه الصوفي السني بالمغرب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذه الأحوال والحالات يستعصي على الرسوم والقواعد، ولكنه يضاع لمن أوتي الحكمة الدينية، والتستاوتي يؤمن بما قررناه سلفا، عن المعرفة الصوفية عند تدرجها من أسفل إلى أعلى.

ففي رسالته إلى ولده إبراهيم، وهو الإبن والمريد يبسط التستاوتي هذه المراحل التي يقطعها الصوفي قصد الوصول إلى حقيقة المعرفة، المنظور إليها بأعين مختلفات، وهكذا يكون المتكلمون عنها ثلاثة، كما يقول (منهم من يستقي من انهار العلم فكلامه يعوض على ظاهر الشريعة، نقبل منه ما وافقها، وندع ما خالفها ومنهم من يستق من سواقي الخواطر، ويتدفق من سواقي واردات العناصر، فيقبل من ذلك ما ثبت مصداقه، ولاح من سماوات الإشارات إشراقه، ومنهم من تكلم عن شهود وعيان، وتبصر عن عرفان وبيان، فهذا الذي لا يجاري ولا يمكن أن يباري[1]، وقد نجتهد فنقول، بأن الحقيقة الصوفية التي يلمح إليها التستاوتي تتدرج من العلم إلى المعرفة إلى العرفان. والصوفي حالما يصل إلى ذروة العرفانية تستعصي عليه لغة التعبير، فيلجأ إلى الشطحات وإلا، كما يقول التستاوتي فإن (ترك الكلام الحق أولى به من النطق[2] وللتدليل على هذا العجز التعبيري فإن التستاوتي قد ألجأته مداركه الحدسية إلى استعمال عبارة خاصة في هذه الرسالة، وإن شئت قلت ...) وقد تكررت أكثر من سبع دورات متواليات. عبر دوائر الأحوال والمقامات ويستخلص التستاوتي من هذا كله، والخطاب موجه إلى ولده المريد إبراهيم، إلى أن الشأن (ليس معرفة الأحوال والمقامات علما واعتقادا، بل الشأن، معرفتهما ذوقا واستشهادا) أما الخلاصة الثانية في هذه الرسالة فهي التحلي بالاستقامة، وهي كما تمثلها التستاوتي (وضع ميزان العدل بين الشريعة والحقيقة، ومتى كان الميل لأحدهما ظهر أثر ذلك على الجوارح، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، نسأل الله أن يعاملكم بفضله،

---

[1] نزهة التستاوني ١، ٥٥/٥٦، ص ١٠٧/١٠٨.

[2] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأن يرزقكم للتحقيق إلى سواء الطريق[١] . وفي جواب له على بيتين لولده إبراهيم، وهي هذه :

وإن ظهرت بالحمل شمس نهارنا	فرحنا بالاعتدال والقلب شائق
وإن طلعت بالصيف في سرطاننا	هوينا خروجا، والخروج مقارق[٢]

نلاحظ في أسلوب التستاوتي غموضا في التعبير عن هذه القضية، وهذا الغموض تشابكت فيه المصطلحات الصوفية في كثافة متراصة، فقد التأم في الجواب والسياق، حشر من الألفاظ الفنية في معجم الصوفية، كالقبض، والبسط، والخوف والرجاء، والأنس، والهيبة، والفرق، والجمع، والليل والنهار... ولست أدري هل كان التستاوتي في درجة من الوعي الصوفي، وهو يكتب الجواب والخطاب. أم كان هو بدوره أسير الشطحات في حضرة الأنوار المشعشعة من شمس الحقيقة.

لنقرأ هذا الجواب في هذا الخطاب، وما أحسن قولك :

و(إذا ظهرت بالحمل شمس نهارنا) إلخ... فإن شمس المعاملة إذا نزلت بالحمل، الذي هو اجتماع الشريعة والحقيقة، اعتدل نهار الرجل وليل الخوف في حق قوم، وفي حق آخرين اعتدل نهار البسط وليل القيض، وفي حق آخرين اعتدل نهار الأنس وليل الهيبة واعتدل نهار الجمع وليل الفرق. وكل من الفرق يفرح بنزولها في الحمل لأنه يشير بكمال الاعتدال في المقامات والأحوال) [٣]. وعلى صعيد هذه الثنائية – ومن الألفاظ الفنية – يحاول التستاوتي أن يعقد مقارنة متوازية، بين الحقيقة والشريعة، دون أن يجد ما ليس منه بد، أي الفصل بين الظاهر والباطن، الجسد والروح، إلا أنه يتصور هذه الثنائية وهي تتحرك من حال إلى حال و(كما أن للجسد

---

[١] نزهة التستاوتي ١، ٥٦/٥٥، ص ١٠٩/١٠٨.

[٢] نزهة التستاوتي ١، ٤٨/١، ص ٩٣.

[٣] يقول القشيري في "لطائف الإشارات" ٧٨/٥، وهو يفسر آية قرآنية : (إن دامت ليالي الفترة فمن أمين يأتي بنهار التوبة غير الله ؟ وإن دامت ليالي لي الطلب، فمن أين يأتي يصبح الوجود غير الله ؟ وإن دامت القبض، فمن أين يأتي يصبح البسط غير الله ؟ وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي يصبح الوصال غير الله ؟ انظر كتاب "نحو القلوب– الصغير" للقشيري، دراسة وتحقيق : د/ أحمد علم الدين الندي، ص ٥٠.)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أحوالا، ينتقل فيها من حال إلى حال، حتى تكمل قوته، فذلك للروح أحوال، ينتقل فيها من حال إلى حال، حتى يحصل على المراد الذي هو الجمع بين الشريعة والحقيقة في هذه الطريقة فإنهم ترشد إن شاء الله)[١].

وقد ختم التستاوتي رسالته – هذه – بأبيات صوفية الاتجاه، انتظمت في قوافيها الأفكار الصوفية التي بسطها في الجواب السالف، عن الشمس المجازية ومنازلها في قلب العارفين :

أرى الشمس في كل المنازل أشرقت ومنه بروح الجو حقا شوارق

أما البيت الأخير، فيبلور الاتجاه الصوفي لموقفه من الحقيقة والشريعة :

فليس لنا مدح ولا ذم إلا ما يوافق شرعا صدقته السوابق[٢]

ونبقى مع رسائله إلى ولده إبراهيم، وقد كان آنئذ، طالب علم وطالب طريق، ولعله كان كثير السؤال عن العلاقة بين الشريعة والحقيقة، وكثير الاستفسار عن الضوابط التي تكون الفيصل والخطاب في هذه القضية الشائكة عليه. وما أخال هذا الولد، إلا مسترشدا يتحسس الخطى في هذه المسالك الوعرة، وقد كان أبوه له الدليل والرائد الذي لا يكذب أهله. وكان يعلم من ولده الحالة التي تنتاب كل مبتدئ ومسترشد، وسالك طريق. ولهذا كان يحث ولده على ألا يسقط فريسة للخواطر الواردة عليه. ها هو يخاطبه من رسالة أخرى (وأما الخواطر التي تتوارد على القلب فهي أيضا أربعة... وللقلب أربعة أبواب، فباب من أعلاه، ومنه يأتي الخاطر الإلهي، ولا يأمر إلا بالخير، وباب عن يمين القلب، ومنه يأتي الخاطر الإلاهي، ولا يأمر إلا بالخير، وباب عن يمين القلب ومنه يأتي الخاطر الملكي، وهو أيضا لا يحدث إلا بالخير، وباب من أسفله وهو الذي يأتي منه الخاطر النفسي، ولا يأمر إلا بشر، ومنه تتشعب بالوقوع فيها، أن النفس لا مارة بالسوء، وباب من يسراه، ومنه تكون الوسوسة الشيطانية، ولا يوسوس إلا بشر، ويكتفي من الإنسان بالوقوع في المعصية... [٣]). ولا

---

[١] نزهة الناظر ١، و ٤٨، ص ٩٣.

[٢] م.ن والإحالة.

[٣] نزهة الناظر ١، و٧٣، ص ١٤٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

شك أن التستاوتي في خطابه هذا، هو موصول بالتراث الصوفي وألفاظه، إذ لا يخلو مصدر من المصادر الصوفية من الحديث عن القلب وواراداته من الخواطر والهواجس. وليس من المستبعد أن تكون الرسالة القشيرية ما ثلة لعيان الرجل في هذا الخطاب، فأخذ منها ما أخذ وأضاف للقلب أربعة أبواب مما لم يرد في الرسالة القشيرية. وقد جمع التستاوتي في كلامه بين الواردات والخواطر، وبينهما من الممايزة ما بين الخاص والعام كما يقول القشيري[١] والخواطر هي (خطاب يرد على الضمائر، فقد يكون بإلقاء ملك، وقد يكون بإلقاء شيطان، ويكون أحاديث النفس، ويكون من قبيل الحق سبحانه، فإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من قبل الله سبحانه وتعالى وإلقائه في القلب، فهو خاطر لحق.... [٢])

والقشيري في رسالة عن المتصوفة الذين يرفضون الفصل المصطنع بين الحقيقة والشريعة، فهو يعتقد أن (كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة أنباء عن تصريف الحق[٣] ومع هذا التمثل الحي لكلام القشيري في رسالة التستاوتي، يأتي الموقف الضابط للخواطر والواردات، وهو موقف يستمد جلاءه من هدي الكتاب والسنة. وبهذا يكون التستاوتي لا يحيد عن الحدود والرسوم، ورغم ما يعتريه من شطحات هن من الواردات في القلب. فإن قلبت – يخاطب ولده إبراهيم (كيف أميز هذا الخاطر من هذا، وهذا ها هنا ضابط صحيح المعنى مؤسس المبنى، إذا ورد على قلب خاطر، فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدته موافقا لهما فهو الحق الذي لا شك فيه إما من الله أو من الملك، فيلزمه العمل به، وإن لم يوافقهما فلا خير فيه، وتجنبه[٤]).

٦– وقد كان للتستاوتي أخ هو العياشي، وهو كثير الشطحات والجذبات، ويملحوناته وخواطره الصوفية ما يؤكد على أن هذه الشخصية الغريبة كادت أن تحيد عن السنن المرسوم في طريق الاعتدال. وتلك الملحونات والخطرات جديرة بالتحليل.

---

[١] الرسالة القشيرية، ص ٧٣ و٧٤.

[٢] م.ن.

[٣] م.ن، ص ٧٢.

[٤] نزهة الناظر ١، ٧٣، ص ١٤٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وما يفيدنا في هذا السياق، هو أن التستاوتي كان يعلم من أمر أخيه ما يعلمه من الانجذاب الكلي إلى عالم، هو أشبه بعالم الحلاج والسهروردي من الإشراقيين والحلوليين أو الاتحاديين. ولذلك فإنه كان يوجه له في المراسلات الدائرة بينهما بعض التنبيهات الرادعة في أهدافها وغاياتها. كل ذلك منه من باب النصيحة (ولو تركت ذلك، وأقبلت على ما أنت عليه من طلب العلم لفتح لك الباب، فاحذر يا أخي كل الحذر، ولا تقتد بنا إلا فيما وافق الكتاب والسنة، وغير ذلك إن لم تجد له تأويلا فدعه ولا تتعرض له[1]) والعياشي، كان يحدث عن أشياء بطريق الظن كما يقول شقيقه (لأنك تحدث عن ظن، والأولى لك الكشف بعد الكشف السكوت، حتى يؤذن لك، فكيف وما شممت له رائحة[2]) وعلى أية حال، فهي نصائح أخ شقيق وأصل، إلى أخ شقيق هو في بداية الطريق، والعياشي التستاوتي يمكن أن يكون النموذج الذي تصوف قبل أن يتفقه، بل انغمس كلية في العرفانية الصوفية، قبل أن يمتلك المجدافين المتوازيين.

بهذا القدر الوافي، أدركنا الموقف الحقيقي، من جانب التستاوتي، في موضوع شائك، ومع ذلك فإن بعض رسائله، توحي بأن الرجل لم يسلم من سوط بعض الفقهاء الذين يكرسون الفصل بين ما هو ظاهر وما هو باطن. وأن الغريب في هذا الباب هو أن التستاوتي، كان مستهدفا من لدن بعض الفقهاء، علما منا بأن نزهة الناظر قد جمعت من التقييدات العلمية والفقهية، والمستحضرة من فتاوي علماء العصر وفقهائه، كان التستاوتي يستفتيهم ويستفتيهم... فالقاضيان العميريان – الولد والولد– والفقيه القسمطيني، والمجاصي وأبي مدين، والتجموعتي، وأحمد بن يعقوب (الولالي) كل هؤلاء قد انتهت إليهم الرئاسة في علم الطاهر في عصر الستاوتي. وليس منهم من نال بقلمه ولسانه شخصية الرجل ومع كل هذا فلا بد من الاستثناء، وكفى المرء فخرا أن تعد معايبه على يد حساده من إنداده وإقرانه.

وبين يدينا رسالة طويلة، هي جامعة لشتى أنواع الجدل، بل هي رد على رسالة آلمت التستاوتي أشد الإيلام، لما فيها من الخروج عن النهج القويم في الحوار

---

[1] نزهة التستاوني ١، و ٨٧، ص ١٧١.

[2] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كما في جواب التستاوتي (ولو تدبرت الكتاب وأريت ما فيه من البلاغة وفصل الخطاب لنسجت نصحك على منواله، وأتيت بوعظك على مقاله، وما سجد الكفار من حلاوته وطلاوته إلا لبلاغته وفصاحته ولو سمعوا ما تنكره الطباع، وتمجه الأسماع، لعتوا عتوا كبيرا، وزادهم ذلك غلظة ونفورا. وإذا كان الله الذي لو شاء لخسف الأرض بمن عصاه، يسوق الجاحدين إليه، ويدل المعرضين عليه، بجميل الملاطفة وعذوبة المخاطبة، فكيف لا يتخلق العبد بأوصافه ويقتدي به في ملاطفته وإحسانه[١]).

وقد أراد التستاوتي، بهذا التقديم، أن يبسط بين يدي مخاطبه آداب الحوار، وما درج عليه السلف الصالح في هذا المضمار، بادئا سرد النماذج من عهد النبوة والصحابة إلى التابعين وتابع التابعين، ولعل الغاية من هذا السرد هو إشعار المخاطب بسفوطه في مهاوي النفس الأمارة بالسوء دون أي اعتبار أخلاقي أو ديني لما صدر منه من الكلام البدئي (ناشدتك الله هل رأيت وصية من وصاياهم، أو نصيحة من نصائحهم تشتمل على ما واجهت به أخاك من الشتم والذم، ثم لا يخفاك إن الكبار من العارفين والصالحين والعلماء العاملين، إذا أمرتهم النفس بشيء يتهمونها وإن طاعت، خشية إن يكون لها في ذلك حظ عاجل، بل وكذلك الأجل، فيخالفونها لئلا يحرموا الصدق ويقعوا فيما يوجب لهم السقوط من عين الملك الحق... [٢])

وبما أن رسالة المخاطب غائبة عنا، فإننا من خلال كلام التستاوتي نقرأ بعض ما جاء فيها عن طريق المفهوم لا عن طيق المنطوق. وكنا نتمنى أن لو كشف الغطاء عن هذه الشخصية التي يحاورها التستاوتي، في رسالته الطويلة هذه، وقد صدرها بما يقرب ن ثلاثين بيتا (٢٨ بيت) تجري على سنن النصح الخالص من البذاءة التي واجهه بها صاحب الرسالة الغائبة :

---

[١] نزهة الناظر ١، و ٣٧، ص ٧١.

[٢] نزهة الناظر ١، و ٣٩/٣٦ (والفقرات مأخوذة من نفس الرسالة الواقعة في ٧ صفحات (...)، ويمكن إضافة (علي) آخر، هو علي بن منصور، وحلاه القادري في الالتقاط بالفقيه العلامة، أخذ عن اليوسي والشيخ مبارة الأكبر، وفي عام ١١٠٧، ويعتبر من العلماء الذين استقبلوا السلطان الرشيد بفاس. انظر الالتقاط ٢٧٠).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وما النصح إلا من فتى ملك الهوى وما الوعظ إلا من أخ ماجد ظهرْ
لأهل الصفا، كلا، ولكن لمن ومال الشتم إلا للنساء وما البذا فجرْ[1]

وقد ورد في أبيات الرسالة، ومض، يمكن أن يكون مساعدا على كشف الهوية لصاحب الرسالة لأن اسم (على) وحده غير كاف لإزالة الغموض عن هذا الفقيه :

وإنك عندي (يا علي) مبل وليس بنقص أن هفا المرء أو عثرا[2]

فمن هو هذا الـ (علي) ؟

وتتوارد عليها في هذا السياق مجموعة من الأسماء مشتركة في لفظ (علي) هذا المجهول علي الترمي – علي المراكشي – علي بن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي – علي بن أبي القاسم النجار البوسعيدي ... إلخ. ومن هذه الشخصيات من توفي قبل تاريخ هذه الرسالة التستاوتية، كعلي المراكشي الذي توفي قبل سنة ١٠٩٢، ومن المستبعدين من هذه الأسماء عي بن ناصر الدرعي، لأنه ربيب النعمة الصوفية في الزاوية الناصرية. ولا يصدر منه هذا القول الوارد في كلام علي المجهول (وقولك – يقول التستاوتي – كلما طالعت كتب القوم ازددت بعدا بمطالعتها، وليت شعري ما ألجأك إلى هذه العبارة، وما تعني بالبعد هنا، فإن قصدت به البعد من الله فقد وقعت في خطر عظيم، لأن ذلك أمر مغيب عنك، ولا تقف ما ليس لك به علم، وما يدريك بأن أخاك قريب من الله فتؤديك هذه النصيحة إلى معاندة الربوبية... وإن قصدت البعد من سيرة القوم فتحتاج إلى تأمل أن البعد من الشيء عدم القرب منه، بحيث لا يكون بينهما محاذاة أصلا وهذه أيضا من أشنع العبارات... [3]).

ولولا هذه الجملة من الجمل المستشهد بها في رسالة التستاوتي لما توضحت الصورة المعرفية لهذا الرجل، ولما أدرجنا هذه الرسالة في دائرة النزاع بين أهل الظاهر

---

[1] م.ن.

[2] م.ن والرسالة نفسها.

[3] م.ن والإحالة نفسها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأهل الباطن. (فينبغي للعالم مثلك أن ينزه لسانه عن مثل هذا السقط من الكلام "ما هكذا يا سعد يورد لابل").

وفي الرسالة قرينة أخرى قد تكررت في عبارات شتى، وهذه القرينة تؤكد بأن المخاطب على صلة وثيقة بالتستاوتي التي تجمعه الأخوة والصداقة بالرجل المجهول (وهل أمنت من أخيك أن يقابلك بمثل ما قابلته به (أمثلك يخاطب أخاه بمثل هذه المخاطبة) (وإنما يحل لك أن ترمي أخاك به حتى تعلم منه) (وإما نسبة الحرص والادخار لأخيك فإنها كلمة إفراط صدرت منك بغير تأمل) (وقولك لأخيك ظهر لنا منك خلاف ما كنا نظنه).

وبعيدا عن دائرة التصوف، فإن الرسالة هذه قد تضمنت حقائق اجتماعية واقتصادية عن حياة التستاوتي، لا داعي الآن لذكرها أو توظيفها في سياق صوفي هو بعيد عنها. لكن الإشارة إليها من هذه الزاوية، يؤكد الصلة الوثيقة التي تربط بين التستاوتي وعلي المجهول !.

وبالمقارنة مع الرسالة التي كتبها إلى الطائفة الناصرية بمراكش، والتي أرادت الشرود إلى رجل يقال له الشراد من غير استرشاد، حسب تعبير التستاوتي. نعم، بهذه المقارنة ندرك البون الشاسع الطي يميز مراسلات الرجل بين عهد من عهد أعوام التسعين وقد انتظمت جل ما دار حول المنازعات الصوفية، وكان أغلب المخاطبين فيها محجوبين بالكنى والألقاب، أو بفلان وفلان ومع ضعف بعضها وسقم أسلوب البعض الآخر – وهذه ملاحظة سابقة – مع كل هذا – فإنها قد أفادتنا في رصد المشاغل التي كانت تشغل التستاوتي، منذ أن استشرف مقام التشوف الصوفي.

وبالنسبة إلى رسالته إلى أهل مراكش الناصريين، فالإشارة إليها قد وردت وتوالت في صفحات هذا البحث، خاصة في الباب الذي خصص للعلاقة الصوفية التي كانت تجمع بين التستاوتي والخليفة أحمد بن ناصر الدرعي، وقد جاءت كعربون على إبقاء خيط التواصل بين الرجلين، إذ أن تاريخها (١١٢١)، إنما يسبق وفاة التستاوتي ببضع سنين. ولا شك أن الرجل في هذه الفترة كان شيخا صوفيا ذا نصح ووعي كبيرين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وجاءت رسالته – أيضا – بليغة العبارة والإشارة، عارية من الالتواءات السقيمة التي خلقت بها رسالته السالفة إلى (علي) المجهول. وبين الرسالتين – كما قلنا – ما يزيد على عشرين عاما. أي ما بين (١٠٩٣ و ١١٢١).

والذي يهمنا في هذه الرسالة مستواها العميق في الطرح الصوفي للمنازعات والانشقاقات... وفيها قضايا عن الولاية، ومراتبها والحقيقة والشريعة وغاياتها...، وكان أولى بنا أن نسلسلها مع الرسائل الأولى في هذا الموضوع، إلا أنني أعتبرها داخلة في دائرة المنازعات الطرفية. وكان ضروريا أن تتناول مجمل القضايا الوارد في هذا الإطار. وأبرها إشكالية الظاهر والباطن...

وبعد التحية والسلام، إلى كل منتسب لله من طوائف السادات عموما، وخصوصا الطائفة الدرعية الناصرية السنية[1] وبهذا التقييد السني يحاول التستاوتي أن يضع في رسالته ميزان الاعتدال في هذه الخصومة والمنازعة. ليستدرج مخاطبيه إلى ساحة الاعتراف والانسلاخ عن ذلك الشراد الذي نازع الشيخ أحمد بن ناصر المشيخة والطريقة. وسأجعل من هذه الرسالة مسك الختام في هذه القضية لأني أراها كالخلاصة الوافية للأفكار الصوفيية التي بسطنا القول فيها، في هذا الجانب الصوفي من رسائل التستاوتي. يقول التستاوتي :

(... وذلك أنه بلغنا عن طائفة منهم بمراكش – حرسها الله – إنها شردت من غير استرشاد إلى رجل يقال له الشراد، من غير استفصال ولا استدلال بل بحسب ما سولت لهم أنفسهم، ودعت إليه شهوتهم، ونحن نعلم أن الله أخفى الخصوصية في أهل لا إله إلا الله، وإن ساءت ظواهرهم، ولا نقطع بصلاحهم وإن حسنت بواطنهم، ولا يمكن نفيها عن مقارف، ولا إثباتها ولو لمكاشف، ولكل حق حقيقة، ولكل قول مصداق، وليس ذلك على الإطلاق، والعمل بما في السوابق، حسن الله منا ومنكم اللواحق، وقد قيدت أرباب الحقائق مذاهبها وشيدت أهل المراتب مراتبها، فهم القدوة في طلك والمعتمد عليهم فيما هنالك، ومن خرج عن طريقتهم أو زاغ عن سيرتهم، فقد استهوته الشياطين، في مهاوي لا قعر لها. فمنهم من يؤخذ بيده فينجو من الإغراق،

---

[1] نزهة الناظر ١، ٢٠٠، ص ٣٩٨/٤٠٠.

والرسالتان معا، في طلعة المشتري ٢، ص ١١٣/١١٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومنهم من تخطفه كلاليب الامتحان فيدركه الإحراق فهم موجودون ونحن على الله وعيهم معتمدون. ولو انتقص منهم واحد أمسكت السماء قطرها، ومنعت المستنشقين عطرها. والوقت أبدا قطع بأقطاب وأوتاد، ونقباء ونجباء وأمجاد، وصلحاء، وأنجاد، فما أقلت أقماره، ولا تلاشت أنواره، ولا تعطلت أسراره، والمغارير يترامون على المراتب، ويزدحمون على المناقب، وهذا من أعجب العجاب، عند ذوي الألباب. وأما الهمج والرعاع، فلا يفرح بإقبالهم، ولا يترح بأدبارهم[1]. فكيف يدعي الولاية من لم يشم لها رائحة، أو يقلد مدعيها من غير نية صالحة. وهب إننا سلمنا باطنا فلا نسلم ظاهرا، ولا نتبع من لم يكن شذا دعوته عاطرا، فالله الله إخواننا، كيف صرمتم حبل الاعتقادات، وتركتم ما كنتم عليه من الاجتماع وتوجهتم بالظنون لأمر مضنون، تحسبون إدراكه، وما شعرتم هلاكه، وميزان الشريعة المحمدية بين أظهرنا، فيه يعرف الصحيح من السقيم، والقبيح من الروض الوسيم، فمن ارتضته ارتضيناه، ومن ردته رددناه، وفي في الباطن انتقضناه[2]...). وبعد هذه التوطئة، وقد بسط فيها التستاوتي، بلغة إيحائية – المجمل والمفصل في باب التصوف الطرقي، التفت إلى المخاطبين الذين أرادوا الخروج عن الرشاد، فاستبدلوا الخليفة ابن ناصر برجل يقال له الشراد....

(فبأي شيء أعجبكم الانتقال عن عهد شيخكم أبي العباس السيد أحمد بن ناصر، وهو من الأخيار الأبرار بشهادة والده الشامخ المقدار. وتهمتكم غياه تقتضي التهمة فيما منح الله به أباه، وذلك مما تواطأت عليه الأمة من أنه من الأولياء والسادة الأصفياء، وتتعلقون برجل لا تعرفون ولا تدرون ما هو عليه ولا تعلمونه، واغتررتم بأقاويل لا طائل تحتها، ولا موجب يصحح دعوتها. وهدمتم ما بنيتم مع سيدكم من العهود وما أوفيتم بالعقود. أهكذا تلعبون بصحبة الصالحين، وتصبحون فيما التزمتم به من الخائنين ؟ ولقد – والله – أضحكتم الشيطان بأفعالكم، وأغضبتم الرحمن بسوء أعمالكم...)

وفي آخر الرسالة، يطلب التستاوتي من الطائفة الناصرية بمراكش العودة إلى حظيرة الواوية الناصرية، في ظل الخليفة أحمد بن ناصر. ولا يفوت صاحب

---

[1] م.ن.

[2] م.ن والإحالة السابقة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الرسالة أن يذكرهم بأن "الطريق إلى الله " موكول إلى الله الذي سخر له رجالا يجاهدون في سبيل الدفاع عنه. وهؤلاء الرجال – في مدينة الأولياء – بيدهم زمام التصريف والتحقيق...

(ولا تظنون أن الأرض خالية ممن يذب عن هذا الطريق. أو ليس في الوجود صاحب تصرف على التحقيق...

فكما أقام الله أمور الظواهر، بأوامر وزواج، أقام الإسرار بتصرف عباده الأخيار. ومن مد يده بدعوى، سقط نجمة وهوى، وأوقعه الله فينا نوا. نسأن الله لنا ولكم العافية، في الدين والدنيا والآخرة. وكتب في ذي القعدة عام واحد وعشرين ومائة وألف، عبيد ربه أحمد بن عبد القادر – كان الله – له آمين[1]).

إن إتياني بهذا النص – كاملا – وغير منقوص، إلا ما اتصل بالأوصاف والنعوت الموصوف بها كل من ابن ناصر ومنازعه الشراد، نعم، أن أتياني بهذا النص الطويل وأنا أعتذر عن هذا – جاء ليكون خلاصة – كما قلت – للأفكار لتي مررنا بها سابقا، وكأن التستاوتي استجمع واستحضر الرصيد المعرفي لأفكاره عن الولاية، والمراتب الصوفية، والحقيقة، والشريعة، والظاهر والباطن، وحلاها بأسلوبه الإيحائي، عبر الخطاب الجدلي الذي ينم عن قدرة فائقة تجعلنا نقول بأنه يستعمل أحيانا المذهب الكلامي في المنازعات الصوفية.

ولا بد من الإشارة بأن رسالته إلى أهل مراكش الناصريين، أعقبتها رسالة من هؤلاء كجواب باسم واحد منهم، وفي الجواب ما يفيد بأن الجماعة ما زالت على العهد، وما حدث لا يغير الطريقة الناصرية ولا يضرها، ما دام الخارجون عن الطريق لا قيمة لهم في الوسط الاجتماعي والصوفي على السواء. (وليكن سيدنا على يقين في الطائفة الناصرية السنية المراكشية، الراغبين في دعائكم الجدير إن شاء الله بالإجابة، وأن يعدوا من السالكين أهل الإنابة بأنهم عضوا بالأيدي والنواجد، ووقفوا وقوف ذي بصر نافذ، على عهد شيخهم الناصح، وواسط عقد السالكين، سبيل المحمدية الواضح،

---

[1] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

السامي في سماء الحق مناره، العظيم الشامخ مقداره... سيدي أحمد بن ناصر...
[1]).

[1] نزهة الناظر، ١/٢٠٠، ص. ٣٩٨-٤٠٠. وفي طلعة المشتري ٢/١١٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ثالثا :

١- في مجموعة "نزهة الناظر" بضع رسائل يمكن اعتبارها وثائق انتزعت من التستاوتي مواقف سياسية من بعض أحداث عصره، حيث أنها ارتبطت بأحداث تاريخية مشهودة، شهدها مغرب القرن الحادي عشر في تحولاته السياسية في فترات النزاع على السلطة. كما أن بعضا من هذه الرسائل لا ينفصل في اتجاهه عن التيار الصوفي الذي كان جارفا داخل التيارات الأخرى بالإضافة على أن بعضها اكتفى بالخطاب الذي يسجل موقفا معينا من أحداث المجتمع وقضاياه.

وبالرجوع إلى دلائل الرسائل المفهرس، فإن تلك السائل ستقف واضحة المعالم، كاستثناء داخل الرسائل الأخرى، العديدة والمختلفة التي لم تتميز عن الاستثناء بالطرح الأساسي لبعض القضايا والأحداث، لأنها رسائل شخصية، عائلة، أو هي رسائل ذات المنزع الصوفي، أو هي إخوانية في موضوعات لا تبين[١].وأن الباحث حتى في هذه الرسائل لا يعدم الشذرات والفلتات التي باستجماعها داخل البؤرة الموحدة، يمكن لنا أن نقرأ بها بعض المواقف العابرة، من بعض القضايا. وعلى سبيل المثال فإن أغلب الرسائل التي صدرت عن التستاوتي، من داخل حبس فاس الجديد، هي تخفي من ورائها شيئا ما، من السياسة المعجونة بماء الغيب، كما يقول المتصوفة.

وإذا، فبين يدينا بضع رسائل هي كالتالي :

١- رسالة إلى الثائر أحمد بن عبد الله الدلائي بتاريخ ١٠٨٩.

٢- رسالة إلى القائد عمر بن أحمد الريفي بتاريخ ١٠٩١.

٣- رسالة إلى المهدي والمهدوية بتاريخ ١٠٩٥.

٤- رسالة اجتماعية عن فساد الوقت.

---

[١] كمراسلاته إلى الحميري الوالد، انظر النزهة ١، ٦٠، ص ١١٨، مراسلاته إلى التجموعتي في موضوع نحوي، ١، ١/٥٧.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والرسالة الأولى من الرسائل الأربع، هي ملتصقة في الصميم بأحداث سياسية مهولة شهدها لمغرب في هذه الفترة، حيث أن السلطان الجديد (المولى إسماعيل) كان يخوض تجربة التأسيس والتوطيد، داخل بحر من الدماء والفواجع والكوارث والثورات. ويكفي أن نجيل البصر في التقييدات التي احتفظت بها تسجيلات "النشر" و"الالتقاط" للقادري عن أحداث العامين (١٠٨٨-١٠٨٩).

فلنقرأ هذه العناوين من نشر المثاني :

- دخول السلطان إلى مراكش ومصالحة أهلها
- اجتماع بربر ملوية على أحمد الدلائي، وتطاحنهم مع السلطان
- أشخاص قاضي مراكش إلى فاس.
- هزم السلطان أنصار الدلائي
- هزم الحران
- شكوى أهل فاس من شدة الوظائف
- ثورة مولاي محمد بتوات
- قتل مساجين بتطوان
- القبض على الحران والعفو عنه
- كوارث وغلاء واسعار
- وقوع زلازل[١]

[١] انظر "نشر المثاني" ٢، ص ٢٣٢/٢٢٩. وانظر الالتقاط (عام ثمانية وألف. ص ٢٠٠ وما بعدها).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إن القراءة السريعة لتلك العناوين كافية وحدها لوضع الإطار التاريخي الساخن لرسالة التستاوتي، الموجهة إلى الثائر أحمد بن عبد الله الدلائي[١] وقد خصص له القادري في "نشره" صفحات أثبت فيها بعض مراسلاته مع التستاوتي نقلا عن البدور الضاوية[٢]، ومما قاله عنه "أديب خطير، وبليغ شهير، يأتي في منظومة بالعجائب، وفي منثوره بما يسحر الألباب..." [٣]، وبعد أن أثبت له نماذج من شعره ومن نظمه، أشار إشارة مكثفة إلى ثورته على السلطان إسماعيل، وإلى انهزامه على يده. وكان الثائر قد رحل إلى تلمسان، فرجع منها يريد الملك معولا في ذلك على مساعدة الأتراك له وفي هذا الصدد، يقول القادري : (... فلما دخل الأتراك تلمسان واستباحوها وأهلها وخرجوا حرم سيدي أبي مدين، طلب – أي الدلائي – من الأتراك ما وعدوه به، فلم يوفوا معه ما وعدوه به. وأحس منهم عدم النهوض لذلك، سار إلى دعواته من برابر ملوية، فقدم عليه ومعه بنو أبيه، فرأسه البربر عليهم وشنوا الغارة على من لم يدخل في حزبهم من جيرانهم إلى سجلماسة ودرعة وسوس، وفاس وزرهون ومكناسة وتادلا، وملك قصبتها، فوجه إليهم مولانا الخليفة جيشا مع قائده يخلف، فوقعت بينهما حروب قتل فيها من جيش الخليفة نحو الألفين) وقائده يخلف، وانهزم اللجيش، ثم وجه جيشا آخر، ووقعت مقتلة عظيمة بينهم، ثم وقعت مقتلة أخرى بمكناسة، ثم توجه على حربه مولانا الخليفة إسماعيل... فنزل عليه بتادلا وحاصره بقصبتها، ووقعت بينهم حروب هائلة، إلى أن توفي صاحب الترجمة بالطاعون أو مسموما، وبلغ خبر نعيه إلى فاس يوم الخميس حادي عشر المحرم عام أحد وتسعين وألف. فأراح الله تعالى منه البلاد والعباد وما سعى فيه من الضلال والفساد ولله عاقبة الأمور...[٤].

٢- وبهذا المدخل التاريخي، يمكن لنا أن نقرأ رسالة التستاوتي إلى هذا الثائر، لتكون بين أيدينا المعطيات الكفيلة بفهم بعض الأفكار الواردة في رسالة

---

[١] والقادري يسميه (أحمد بن أحمد بن محمد الحاج الدلائي) النشر ٢/٢٨٢، والخلاف في (ابن) و(أبي) من عبد الله.

[٢] البدور الضاوية، الخزانة الملكية، رقم ١١١٠٤، ص ٤٤١/٤٣٩، حيث مظان المراسلات بين الطرفين.

[٣] النشر ٢، ص ٢٨٩/٢٨٨.

[٤] م.ن، ص ٢/٢٨٢ (ت/ حجي وأحمد التوفيق).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

التستاوتي. ومن باب التذكير – فقط – فإن الإشارة قد سبقت إلى هذه الرسالة، بل إننا اقتطعنا منها جملا وظفناها في سياق البحث عن الجذور لمحنة التستاوتي[١].

ومن باب التذكير أيضا فإننا قد وقفنا على موقف التستاوتي من أحداث الدلائيين رغم ما كان يربطه – آنئذ– من علاقات مع أشخاص ينتمون إلى الزاوية الدلائية. إلا أن الموقف هنا – يختلف – وله طابع سياسي آخر، وهو صادر من رجل استكمل شخصيته أو كاد، داخل المجتمع المغربي، كمتصوف يحسب لموقفه ألف حساب، والحالة أن الأمة تعيش أجلك فترات التاريخ، ولسان حال الفتنة يقول هل من مزيد... والحالة كذلك، أن الدلائيين يتبصرون الورقات الأخيرة، وهي تسقط من شجرة الزاوية. وقد وقف صاحبنا اليوسي على أطلالها، فبكى واستبكى وخاطب الربع واستوحش الرفيق. كما يقول صاحب "الشعر والشعراء" الإمام ابن قتيبة. وعلى ذكر اليوسي – أيضا – فإن له موقفا حكيما من ثورة هذا الدلائي، وقد خاطبه بأبيات قد سطع ضوؤها في البدور الضاوية[٢] وفيها يترجاه أن يثوب، من غيه – إلى رشده[٣].

أبا العباس، كنت المرتجى في ... تلاف في تجاف، وارتجاف
وكنت أخال أن الود كاس ... شربناه على الإنصاف صاف

إن التستاوتي، في رسالته إلى أحمد بن عبد الله الدلائي لم يكن إلا صوفيا يتحدث عن السياسة من موقع المتصوف الثائق إلى الصلاح والنسك والفضيلة.

وكان يرى أن صاحبه – وهو العالم والفقيه – قد زلت به الأقدام فارتمى هاويا في مهاوي الفتنة والسياسة (وكتب إلي في ذي القعدة، ستة تسع وثمانين وألف، العالم الفخر، سيدي أحمد بن عبد الله أحمد بن عبد الله الدلائي، وهو إذ ذاك يريد الملك والقيام على السلطان مولانا إسماعيل – أيده الله – ما نصه... فراجعته بما نصه...)[٤].

---

[١] انظر الطور الثالث من حياة التستاوتي، من هذا البحث.

[٢] مخطوط الخزانة الملكية، نفس الإحالة من الهامش رقم (٣) من الصفحة السابقة

[٣] انظر الزاوية الدلائية. ص ٢٣٨.

والأبيات في الديوان، ص ١٤٢ (وقال يخاطب أبا العباس أحمد بن عبد الله الدلائي، البكري – رحمه الله –)

[٤] نزهة الناظر ١، و ٣٤، ص ٦٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وحتى تتعادل الكفتان في الخطاب، علينا أن نقتطع فقرة من رسالة الثائر إلى التستاوتي، لنكون على بينة مما يدعيه من قيام بالملك، أو الثورة على السلطان. ولنكون على علم بمستويات الخطاب في رسالة التستاوتي، والذي يثبت بعضا من حمل صاحبة، ليرد عليها. ولعل الثائر الدلائي، كان يأمل أن يقف التستاوتي في صفه وإلى جانبه، لإقرار الحق وإزهاق الباطل، وهو يعلم من الرجل انتصاره للمظلومين. ولكن التستاوتي بقي في صف الحياد، أما ما دون ذلك، كما في هذه العبارات... (فهذه القدرة التي بها تبرق وترعد، وتصدي وتهدد وتوعد، كيف وسعك صونها وادخارها، وقد رأيت نيران الظلم قد أحرق ضعفاء المسلمين أوارها، وهذه منذ ثلاثة عشرة سنة، وأموال المسلمين على غير القانون الشرعي توزع، والقتل يأخذ فيهم أكثر مما يدع، لا يقربهم من الخوف مضجع، وكل ذلك بمرآى منك ومسمع، ونساؤهم بين أفخاذ العبيد صرعى، وأعراضهم مهتوكة وقد حرمت شرعا، فهلا غضبت لربك وقمت في نصرة المساكين بحمايتك وذبك، يا رب إن فيهم عبدك الصالح، يا جبريل أهلكهم معهم، فإنه قط ما تمعر لي وجهه فإن كنت راضيا مع إني لم آمر – والله المطلع – فاجعل هذا من ذاك، وإن كنت ساخطا فلم لم يظهر للقدرة أثر فيهم، ليبين به مصداق دعواك[1]).

إذا أضفنا هذه الصور السوداء من لوحات العصر إلى ما اجتزأناه من التقاط القادري ونشره استكمل الإطار التاريخي عناصره، قصد الوصول إلى الخلفية الواقفة وراء رسالة التستاوتي وجواب صاحبه. ومن ثم أدركنا بوثيقة ذاتية، البعد السياسي الذي كان يحرك الثائر الدلائي في حلبة الصراع على السلطة. وقد كان يتوق إلى اليوم الذي تعود فيه الكلمة لأصحاب الزاوية الدلائية.

وما أثبتناه، في الفقرة السابقة، من رسالة الدلائي يحدد الفترة التي تقاتلت فيها الطائفتان المتحاربتان، بل إنها تجعل البداية من اليوم الذي استهدفت فيه الزاوية الدلائية (وهذه منذ ثلاث عشرة سنة) [2]. أي قبيل التخريب الذي أصاب الزاوية..،

---

[1] م.ن.

[2] بين نزهة الناظر، والبدور الضاوية، ونشر المثاني، فروق واضحة بين بعض العبارات، ولعل نص التستاوتي أكمل. انظر النشر، ٢، ص ٢٨٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وكأن أهل الدلائيين ظلوا يحلمون بالعودة، وباليوم الذي سيثأرون فيه للزاوية الشهيدة... ولكن، من رجال العصر سيقف إلى جانبهم... ؟ التستاوتي ؟ اليوسي ؟

ولن ينسى التستاوتي أن شيخه محمد بن ناصر كان يذكر العياشي بخير، كمجاهد في سبيل الله، وإن كنا لا نعلم أي شيء عن موقف التستاوتي من حركة المجاهد العياشي، والتاريخ يسجل للدلائيين الجريمة التي ارتكبوها في حق الحركة العياشية بتكالبهم ضده اقتتالا واغتيالا... هذا افتراض، نفترضه، ونحن نقرأ الرسالتين معا، رسالة التستاوتي، ورسالة الثائر الدلائي. وإن كانت الحقيقة التي لأمراء فيها، هو أن البيعة العلوية الإسماعيلية أصبحت قائمة وواقعة تاريخيا لا مجال للتردد فيه. فهل سينتصر التستاوتي للثائر الدلائي، ضدا على السلطة الشرعية ؟ إن التصدير المقدم به الرسالة هو موقف في حد ذاته (يريد الملك والقيام على السلطان مولانا إسماعيل، أيده الله...).

وتؤكد رسالة الثائر الدلائين أن التستاوتي راجعه في الأمر، ونصحه النصح غير المبين، بل خاطبه خطابا أليما (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر ويخشى) فأرفق بأخيك وسقه إلى الحق بلين وتدريج[1].

ومهما يكن من أمر، فإن التستاوتي كان يرى أن الدلائي – وهو العالم والأديب– قد اختار طريقا ليست له، وهو ما خلق للملك، ولا خلق الملك له (ولا أرضى لك ملك الدنيا بحذافيرها، بل كل كلمة من كلماتك، في هذه الوصية تساوي جميع زخارفها. ثم إن كنت صادق فعلا منه أن تستعمل ما أحب لك من النسك، وتجنب ما تراودك به نفسك من الملك. ولعلك حملت كلامي على ظاهره، ولم يسعك التأويل المكنون باطنا، فأجريت فرس قلمك، في ميدان نباهتك وعلمك، فتنسمت هذه الوصية من عرف أعراف فهمك، وحينئذ – فلا بأس أن نشير إلى بعض المراد من معاني كتابيه، وأراجع أخي بما هو كالجواب عن بعض كلماته الآتية، مع أني لست بأهل بأن أجاري العلماء في ميدان ما رسموه أو أراد عليهم ما استنبطوه، غير أن للخواطر صولة لا ترد، وجملة لا تصد، فإن أصابت الصواب فالحمد لله، وإلا فأنا أستغفر الله...).

---

[1] نزهة الناظر ١، و ٣٤، ص ٦٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والرسالة رغم منطلقاتها السياسية، فإن صاحبها التستاوتي قد عجن أفكارها بناء الغيب، كما ألمحت إلى ذلك سلفا، لأنه يربط بين الأحداث الجارية وبين الإذن الصوفي في التصرف والتغيير، وأن الوقت لم يحن بعد إلى استبدال حالة بسيئة بأخرى أحسن منها، وقد يفهم من هذا التفسير الصوفي للأحداث، ما يعتقد التستاوتي، من ان نغير المنكر له شروطه وآدابه، (وهذا الغضب له آداب، وهو ألا يتناول القلب، ولا يترك النسب لله إلا جاهل أو متهاون بالدين، والانتقام للمسلم ونصرته واجبة شرعا، ومستحسنة طبعا، لكن على قدر الاستطاعة بالشرع في الظاهر، والإذن لأربابه في الباطن).

وإذا ما حذفنا بعض الشطحات الصوفية من الرسالة، كالإشارة إلى صاحب الوقت، أو قطب الزمان الذي بيده الربط والحل وإليه يفزع المتصرفون في تصرفاتهم، وقد جعل الله أمرا العباد بيده، وأقدره على الانتقام، وشهد ما شاهدناه[1] . نعم، إذا قمنا بهذا الاختزال والحذف فإن البقية في الرسالة يتمحور حول الموضوع الأساسي، المرتبط بثورة آخر الدلائيين، والذي كان يرجو أن ينتصر له التستاوتي، أو يقف إلى جانبه لعلم هذا الثائر بأن الرجل له أتباع يطيعونه، ويأتمرون بأوامره. إما من جهة المشيخة الصوفية، أو من جهة جاهه في بت المباركيين (آل مبارك)، أو من الجهتين معا. (وأما قوله "هلا كتبت لهم" فقد كتبت لهم وهم لم يستنصحوني. وما دام الإنسان يطمح في نفع المسلم بنصحه، حتى إذا يئس من خلاصه دعا له في الغيبة بما يناسب الأغلب من أحواله، وتركه وخوفه من جبار السماوات والأرض هو المناسب لعلمك ونسبك، وهو الذي تحب لك ونطلب من الله أن يمن به عليك... وقولي لك "مثلي لا يتكلم إلا عن أذن "فليس المراد به الدعوى، وإنما المقصود أن لناس لحسن ظنهم، أو لغلبة الجهل علهم، يزعمون أن كل ما يسمعون مني جئتم به من الغيب، وأنت شريكي في ذلك لولا ما انقاذت لك من غير بسط يد العامة، فإذا كنت في هذه المكانة، فلا ينبغي أن أدلهم على شيء لأنهم يفترون علينا الكذب بلا شيء، أخرى أن سمعوا مني ما يوافق هويتهم أو يخالفها، ولكن أقول لهم الله يختار لنا ويختار لكم).

---

[1] نزهة الناظر ١، و ٣٦/٣٥، ص ٦٩/٦٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإذا كانت هذه، هي حالة العامة في هذا العصر، الذي وقع فيه التكالب والتهافت على السلطة، نتيجة الفراغ السياسي الذي هو ممتد من فترة ما قبل العهد العلوي، فإن القيادة السياسية – حتى ولو كانت شرعية – لا يمكن أن تستقيم لها الأمور داخل هده المكونات المتناقضة في عناصرها، في مغرب القرن الحادي عشر. والعامة، بشهادة التستاوتي، لم تكن تختار القيادات الصوفية والسياسية – على حد سواء – (عن وعي منها بما تختار، ولا يمكن بحال أن تكون عبارة التستاوتي هذه بريئة أو خالية من الاستفادة من هذا التناقض "وأنت شريكي في طلك، ولولاه ما انقادت لك من غير بسط يد العامة"). وقد عهدنا من الرجل الصدق في التعبير النابع من الطوية الخالصة، ولهذا فإن شهادته هده، لها وزنها في فهم تناقضات العصر، بين القيادات السياسية والقيادات الصوفية. وماذا يفعل الرجل، والناس يعتقدون فيه الصلاح والفضيلة، بل إن البعض ليغالي في هذا الاعتقاد، فيتشوف برؤيته إلى استكناه الغيب، وكأن التستاوتي كاهن من كهنة العصر.... (ولا نشك أن من كثرة جرائمي وعدم استقامتي ابتلائي بالخلق، ولا نرى منهم طلب دين، أو من يحبني لله، أو يعاملني لأجله بل من يسألني : متى يكون كذا، وهل يكون كذا ؟ فإني – والله – أشبه شيء بالكهنة)[1].

وهذه الحقيقة الاجتماعية التي طفت على سطح رسالة التستاوتي، لا يمكن إنكارها ونحن نبحث عن المكونات التي تفاعلت فيما بينها لإبراز الصورة العامة عن الحياة الاجتماعية في مغرب القرن الحادي عشر. وليس غريبا أن تتحول العامة عن حسن نية، وعن جهل إلى أشباح مسكونة بالغيب وهي ترتمي في أحابيل أو هي من العنكبوت. والتعلق بالغيب، كان صوفيا دينيا، أم كان سياسيا طوباويا، ما هو إلا فجوة يستشرفها الغارق في شاطئ النجاة. ولا ضير على العامة إذا هي الحث في التسآل"متى يكون كذا ؟ وهل يكون كذا ؟" معبرة عن الحلم والهاجس المقلق، باسطة أياديها لمن يتهافتون على السلطة أولا يتهافتون.

---

[1] نزهة الناظر ١، و٣٦/٣٥، ص ٦٩/٦٨.

– عن هذه الظاهرة يتحدث اليوسي في المحاضرات ص ١٢٣ فيقول (فإذا اتفق صدقه – الولي – ؟ مرة اتخذ حجة، واتخذه له جهال العوام، فيقولون والله لقد سمعنا منه كلاما حقا فصاروا في ذلك كأصحاب الكهان من جاهلية العرب....).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد تنبه إلى هذه الظاهرة دارس التقاط الذرر في بحثه التاريخي عن المجتمع المغربي، كما صوره القادري في الكتاب المذكور، وأراني مضطرا، إلى عرض ما جاء في كلامه عن العلاقة التي كانت سائدة بين العامة والخاصة، قصد إبراز المصداقية التاريخية التي تترجمها رسالة التستاوتي. ولو في إشارات أو فلتات تساوقت وحبل الخطاب. يقول الدارس لالتقاط الدرر : (فبعدما بدأ عهد مولاي إسماعيل من الناحية الزمنية (١٠٨٢-١٦٧٢)، وكانت الحياة الاجتماعية مبنية على قاعدة دينية صوفية استحكمت جذورها في المجتمع كله، بل صارت تشكل أهم المميزات البارزة للمجتمع المغربي، سواء في البادية أو المدينة، وبذلك فمن الصعب تجاهلها في كل حركة أو حدث تاريخي، ومن هنا كانت القيادات السياسية تبدأ من الاعتماد على هذه الظاهرة، وصارت لا شعورية بالنسبة لشخصية الأفراد وشخصية المجتمع المغربي....)[١].

ويحاول الباحث أن يربط بين الظاهرة ومكوناتها في الماضي، وقد ترسبت فيها إلا أن الثائر الدلائي في رده الأول على رسالة التستاوتي الأولى، كذلك إنما جعل البداية من أيام التخريب للزاوية الدلائية (وهذه منذ ثلاث عشرة سنة، وأموال المسلمين من غير القانون الشرعي توزع، والقتل يأخذ فيهم أكثر مما يدع، لا يفر بهم من الخوف مضجع، وكل ذلك بمرئ منك ومسمع، ونساؤهم بين أفخاذ العبيد صرعى، وأعراضهم مهتوكة، وقد حرمت شرعا، فهلا غضبت لربك....)[٢] والذاكرة التاريخية، تحتفظ بأكثر مما في وصف الدلائي، وعبر نصف قرن من الزمان، أي منذ أيام الرماح والأقلام، كما في الدخل الخاص الذي قدمنا به رسائل التستاوتي...

(وهكذا – يقول دراس الالتقاط – كانت الصدمة عنيفة أذهلت العقول وحولت عناصر المجتمع إلى مجاديب وبهاليل، لا يملكون إلا الهذيان، الذي يعبر ففي عمقه عن العقل اللاواعي في المجتمع المغربي المريض نفسيا. والذي بلغت درجة المرض فيه إلى حد الهستيريا، وظهرت أعراض هذا المرض النفسي في

---

[١] مقدمة تحقيق كتاب "التقاط الدرر" (الدراسة ص ٥١).

[٢] نزهة الناظر ١، و ٣٤، ص ٦٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المجتمع المغربي في المدن والبوادي، ونجد صورا لذلك في "التجمعات الصوفية وأربا الزوايا"[١]).

ولنرجع إلى رسالة التستاوتي، وقد صورت بعقوبة وصدق صافيين، بساطة العامة واعتقاداتهم في الزعامات الصوفية، كبدائل عن الزعامات السياسية التي لم تبشر إلا بالدم والاقتتال، وكانوا – أي العامة – أحوج إلى من يعدهم بالعدالة والسلام... على يد قطب الزمان وصاحب الوقت والأوان... (نسأل الله – أن يحفظنا وإياكم من الفتن المضلة، ما ظهر منها وما بطن، وحيث لم نجد فكاكا منهم، تمسكت بقول زروق، من ادعيت ولايته وهو يعلم من نفسه خلاف ذلك، فليترك الناس واعتقادهم وليقبل على الله، ولا يركن لشيء من ذلك، وإذا عرفت هذا علمت أنه خارج عن سر ليلي وعذرتني، آه ثم آه. فبالله، يا أخي، من أنا، وأي شيء أنا ؟

ولكن البلاد إذا استعرت وصوَّح نبتها رعي الهشيم[٢]

فهل هناك أوفى من هذا البيت، في استيعاب الحالة وظواهرها ؟ أن التستاوتي أبدى لصاحبه جانبا كبيرا من التأدب ولملاطفة، وهو في ذلك يرمي إلى أن يصرف صاحبه عن دعوى الملك والسلطان، وكان على حدس نافذ بأن مصير هذا التعلق كمصير الخيط الواهي في شباك العنكبوت. ولكن آداب الحوار تقتضي التنبيه بالإشارة، والتوجيه بالعبارة. والثائر الدلائي أديب وعالم له بصيرة بفن القول، ولهذا خاطبه التستاوتي في آخر الرسالة، بالخلاصة وفصل الخطاب (ولولا علمك ما تنازلنا معك هذه المنازلة، ولا تكلمنا معك في أقل نازلة. وعن قريب يتبين الصحيح من السقيم، والوضيع من الوسيم. وسوف ترى إذا... فعولن مفاعيل فعول مفاعيل[٣] اللهم اجعل محبتنا فيك وصنها من الأغراض، واحفظ صحتها من الأمراض...)[٤].

---

[١] مقدمة تحقيق كتاب "التقاط الدرر" (الدراسة ص ٥١).

[٢] نزهة الناظر ١، و ٣٦، ص ٦٩.

[٣] يبدو أن عبارة "سوف ترى إذا". هي جملة البداية في بيت شعري

(سوف ترى إذا انجلى الغبار أفراس تحتك أم حماره ؟)

ولا يستقيم إيقاعه على التفعلة الواردة في الرسالة.

[٤] نزهة التستاوني ١، و ٣٦، ص ٦٩/٧٠.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولا بأس أن نتوقف قليلا مع الرد القصير الذي بعث به الثائر الدلائي إلى التستاوتي، على أن نقرأ معانيه البعيدة من وراء السطور – كما يقال – فهل تكون الرسالة القصيرة تعبيرا عن التوبة النصوح، والعدول عن خط المواجهة في جلسة الصراع على السلطة، أم أنها كلمة اعتراف ومصالحة بين الرجلين ؟ وليس وراء ذلك أي تعديل في موقف ما من مواقف الثورة على السلطان !(١).

يقول التستاوتي، مقدما رسالة صاحبة ولما بلغته، كتب لي – رحمه الله وعفا عنه ما نصه : (من عبد الله أحمد بن عبد الله إلى الأخ في الله سيدي أحمد بن عبد القادر، لازالت مواهب الله على قلبه هائمة لانسجام، وعوارف معارفه دائمة الازدحام.

سلام على أخي، ورحمة الله وبركاته. هذا وليعلم أخي أني أتوب إلى الله في ما طغى به قلم النصيحة، وأرجو من جزيل فضله السلامة من الفضيحة، وقد قرأت كتابك ففهمت الصدق في مدارجه، وعرفت الحق في مطاويه، فليكن أخي سليم الصدر، وأنزل كلامي من قلبك بالمهل الذي نزل فيه من قلوبنا، ولا تقطع علي مكاتبتك فإني استوحش من ذلك، لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس، وتعاهدني بالنصيحة اللينة، والله سبحانه هو المسؤول أن يبلغ منا كلا مراده، ويجعله من أهل الصدق في الإرادة والسلام)(٢).

هذه هي رسالة الثائر إلى التستاوتي، بعد المناصحة التي جرت بينهما، وتواصلت برسائل ومراجعات. مثبتة في مظانها إضافة إلى نزهة الناظر، وليس ما يفيد أن الرجل تراجع عن ثورته، لعناده الشديد، رغم سيل الرسائل التي انهالت عليه تدعوه فيها إلى جادة الطاعة والبيعة للسلطان. وقد أشار القادري إلى هذا العناد والتصدي لمن أراد صرفه عن المراد.

وقد خاطب التستاوتي (والله هو المسؤول أن يبلغ منا كله مراده) في مواطن من ترجمته له ومن (كتب إليه ابن عمه الفقيه الأديب سيدي محمد بن أبي عمر الإمام سيدي محمد بن الشيخ سيدي أبي بكر الدلائي، وهو يعاتبه على سوء فعله،

(١) م.ن والإحالة.

(٢) النشر ٢، و ٢٨٧، وانظر ص ٢٨٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ويأمره بالرجوع عما انتصب إليه، فأجاب صاحب الترجمة ابن عمه المذكور بهذه القصيدة)[١]. والقصيدة التي في السياق تجاوزت الأربعين بيتا ومنها هذه الأبيات :

أجلة أعمامي وأهلي ومن له ... انتماء إلى غوث الورى ابن أبي بكر
وقل لهم إني على العهد ثابت ... مقيم عليه ما حييت إلى الحشر
وعذرا فإن البين غير فكرتي ... ولله أشكو ما تضمنه صدري
فلا زالت في أمن وعز مؤبد، ... موقى مدي الأيام من نكبة الدهر[٢]

ولكل أجل كتاب، فقد لقي الثائر مصرعه بالطاعون أو مسموما، كما يقول القادري.

٣- ومن الرسائل الصوفية، ما كتبه التستاوتي إلى القائد عمر بن أحمد الريفي[٣] في سنة (إحدى وتسعين وألف) وهي السنة التي سقط فيها الدلائي في حلبة السياسة والطاعون، ومما لا شك فيه أن السلطة السياسية قد توطدت في يد السلطان إسماعيل، بعد انتصاره على آخر الثوار الدلائيين، ولم يبق له إلا أن يتحرك نحو باقي القبائل لتهدئة الأوضاع فيها، عن طريق القوة والمجابهة الصارمة. ويقول الناصري في استقصائه (... ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وألف، ففي جمادى الثانية منها خرج السلطان من الحضرة في الجنود قاصدا بني يزناسن الذين تمادوا على العصيان فاقتحم عليهم جبلهم واعتسف ربوعهم وانتسف زروعهم، وأحرق قراهم، وقتل رجالهم، وسبي ذراريهم، فطلبوا الأمان، فأمن بقيتهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح التي عندهم، فدفعوها من غير توقف...)[٤].

وكان السلطان إسماعيل يرى أن عرضه لا يمكن أن يستقر إلا إذا قضى على التحديات الداخلية والخارجية فقمع الثورات والتمردات كان موكولا إلى من في

---

(١) م.ن.

(٢) م.ن والصفحة.

(٣) الحديث عنه في المصادر الآتية : النشر ٢، ٢٩٥، والالتقاط، ص ٢٢١، والاستقصا ٧، ص ٦٤، وتاريخ تطوان ٢/٢-٢١، والمقصد الأحمد، ص ٨٥.

(٤) الاستقصا ٧، ص ٦٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يدهم السلطة المطلقة، من أجل القضاء على كل المحاولات الخارجة عن الطاعة بالعصيان، كما أنه أي السلطان كان يرى الثغور المغربية بين الاسر والتهديد، وإن تحرير البعض منها وتوطيد الحراسة على البعض الآخر هي من ضروريات السياسة الخارجة.

ومن هذا المنظور العسكري كان يختار القواد والأمراء، من ذوي الشكيمة والبأس والذين تمرسوا على القتال والجهاد. وهكذا وقع اختيار على قائد ريفي، ينتمي إلى أسرة مقاتلة، على غرار أسرة أولاد النقسيس وأولاد بو الليف...

وكتب التاريخ تربط – دائما – بين تحرير طنجة وهذا القائد الريفي[1] الذي حصل على لقب "المجاهد" العنيد. ورسالة التستاوتي – له – وفي هذه السنة، يجب أن نتعامل معها من منظور آخر، سبق أن اعتمدناه في مكان آخر، من هذا البحث[2]. وهذا المنظور هو امتداد للظاهرة التي كانت تتحكم في هذا العصر وأعني بها اقتسام السلطة بين المتصوف والسياسي. وإن كان الطرفان يدركان الفرق بين هذه السلطة أو تلك، فلصوفي سلطته الروحية، كما أن للسياسي سلطته الواقعية المادية. وتبقى – دائما– الغلبة للواقع الذي لا يرتفع. اللهم إلا أن يكون للصوفي سلطة الدنيا والآخرة. وهذا أعز من الكبريت الأحمر، كما يقول الصوفيون.

وبما أن رسالة التستاوتي – كما أسميناها– سيا صوفية، فإنه من اللازم أن نستنطق نصا لصوفي آخر، يتحدث عن القائد عمر بن أحمد الريفي، وكان يعرف أيا " بعمر بن حدو البطوئي" واعتمادنا هذا النص في هذا التعريف، إنما يخضع للقاعدة التي انطلقنا منها، في إبراز التنازع في العمل، بين سيادة الصوفي وسيادة السياسي. بل إن النص، والعهدة على الرواي – كما يقولون – يتناول القاعدة على وجه التغليب والتوجيه والتأثير. لوروده في كتاب موسوم بالمناقب الصوفية، والعادة المنهجية في مثل هذه التآليف، هي خرق العادة بالانبهار والمبالغة، والتقديس في غالب الأحيان.

وتبقى الحقيقة مختفية بين هذه الأوصاف أو المواصفات الصوفية. ثم إن القارئ لكتاب " المقصد الأحمد" يجب أن يتسلح بالحصانة حتى لا تجرفه الكرامات

---

[1] القادري في النشر ٢، و٢٩٥، والالتقاط ٢٢١.

[2] انظر الطور الثالث من حياة التستاوتي في باب "والمحنة لها جذور".

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأحمدية على لسان القادري عبد السلام، مؤلف الكتاب. يقول المؤلف وهو يتحدث عن علاقة القائد الريفي بالشيخ الصوفي، أحمد بن عبد الله بن معن... في سياق اتصالاته بالكاتب أبي الربيع سليمان[1] الذي كان ينقل السلطان كلام الشيخ الشيخ عن الجهاد، وإنه عين الفرض في هذا الوقت (فما زال محرضا على ذلك من أتاه من حاشية السلطان، وخصوصا صاحبنا الكاتب سليمان، عندما يراه ويجالسه فكان الكاتب المذكور، حسبما حدثنا هو به، إذا انفصل عنه، يتحدث بذلك مع قائد القصر الكبير، وبلاد الهبط، وهو عمر بن حدو البطوئي، عندما يلقاه، فألقى الله في قلبه حرصا على الجهاد أكيدا وولوعا شديدا، فجلس بشن الغارات فيما والاه من بلاد الكفرة، ويقتل ويسبي، ويصيب منهم بعض الغنائم والأموال برا وبحرا، وصحبه في ذلك يمن ونجاح...)[2].

تلك هي الصورة الأولى التي رسمها له صاحب " المقصد الأحمد"، وهي صورة جبت ما قبلها من الصور الأخرى، لولا أن هداه بالراعية إلى الله الصوفي الشيخ ابن عبد الله. ويتابع القادري عبد السلام روايته عن تحول القائد من شخص ظالم فاتك إلى شخص مجاهد كثير التعلق بأولياء الله، أمثال صاحب الزاوية المخفية. (وكان قبل ذلك، شديد الشكيمة على الرعية، مستأصلا لأموالهم، سلطا على فقراء الوقت وأبناء الصالحين، يمتحنهم ويأخذ أموالهم منهم، ولا يحترمهم، وفعل معهم ما لم يفعله أحد الأمراء قبله، حتى كان يقال له حجاج زمانه، وما أذعن- يقول صاحب المقصد – إلا لسيدنا أحمد...)[3].

---

[1] أبو الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني، كاتب الدولتين الرشيدية والإسماعيلية، (ت ١٠٩٨) انظر النشر ٢، ٣٣٧، والالتقاط، ص ٢٣٠. والقادري يذكر مصاحبته للشيخ ابن عبد الله بن معن في الكتابين معا.

[2] المقصد الأحمد، ص ٨٥.

أما عن استرجاع طنجة، فإن التاريخ يذكر أن المحاولات استمرت إلى غاية ١٠٩٥، انظر الاستقصا ٧، ٦٧، والنشر ٢، ٣٢٢.

[3] المقصد الأحمد، ص ٨٥.

ما عن استرجاع طنجة، فإن التاريخ يذكر أن المحاولات استمرت إلى غاية ١٠٩٥، انظر الاستقصا ٦٧/٧، والنشر ٢، ٣٢٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإذا كان حجاج زمانه على هذه الصورة الأولى والثانية، فإن الخبر الثاني في الكتاب، والعهدة على القادري، والكاتب الديواني أبي الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني، يضفي على قصة استرجاع قصبة طنجة، مسحة من التوعد من يقول مؤلف المقصد (ولما أراد أن يذهب إلى قصبة طنجة، ليأخذها، حيث يتعلق به ويطلب الدعاء منه عسى أن يظفر بمراده، فأجابه بقوله "أن تنصروا الله ينصركم" وحضه على الجهاد...)[1].

هذا هو القائد، الذي راسله التستاوتي بالرسالة التي سنتناولها في معرض التأكيد على سلطة التصوف وسلطة السياسة. وما كنا لنقصد من وراء هذا القول غير هذا، وإلا فالرجل – أي القائد – لا يتصل بموضوعنا إلا بالمقدار الذي تناولنا فيه آخر الثوار الدلائيين، من ذي قبل. لكن الخطاب التستاوتي هنا، له اتجاه آخر يعاكس ما جاء في مراسلاته مع الدلائي. فذلك، كان يريد الملك، وهذا يعمل على توطيد الملك. وذاك يحارب السلطة الشرعية، وهذا يناصرها بالرماح والجبروت.

أما عن اتجاه الخطاب في رسالة التستاوتي إلى هذا القائد، فينطلق من موقع السلطة الروحية في مجابهة كلامية مع السلطة العسكرية. والسؤال الوارد هو هل تكون رسالة التستاوتي متزامنة مع زمن الحجاج، الصورة الأولى للقائد ؟ أم هي جاءت بعد انضياعه للخط الصوفي الموصل إلى الزاوية المخفية ؟ والجواب متضمن – ضمنيا – في رسالة التستاوتي، وفي هذه الفقرة.. (فقد بلغني أن همتك تشرئب التولية على أبناء الصالحين، وإنك تريد أن تستخدمهم وتجعلهم في طي قبضتك، متكلا على جاهك وسطوتك، فتعجبت من هذا، على ما بلغني عنك، من أنك تحب الجهاد، وتحافظ على الصلوات الخمس، وتديم الأوراد. وكيف لا أتعجب، والمناجاة بين القاصدين ظاهرة...)[2].

وإذا، فالعبارة في هذه الفقرة، تؤكد عل أن القائد يستهويه الجهاد ويحبه، وإنه يقيم الشعائر، ويزيد عليها بالمحافظة على الأوراد الصوفية، كدليل على التحول الحاصل في شخصية القائد العسكري. يزكي هذا الاستنتاج التاريخي الزمني للرسالة،

---

[1] م.ن.

[2] نزهة الناظر ١، و ٤١، ص ٧٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(١٠٩١) الذي تزامن بدوره مع المحاولة الأولى لاسترجاع مدينة المضيق[١] وخلالها كان القائد على اتصال صوفي بالشيخ ابن معن، كما سلف. ولا يفوت التستاوتي أن يرسم للمرسل إليه الخطوط الشرعية الموجبة للطاعة، المشرطة بحقوق وواجبات (وبالجملة، فإن أردت – بذلك – نصره الدين وقصدت بهم أن تردهم إلى اقتفاء آبائهم، ومتابعة السلف الصالح، وتأمرهم بعمارة المساجد، والمدارس المعطلة، وتحضهم على إطعام الطعام وإفشاء السلام، وتقيم عليهم الحدود الشرعية، بحيث تقطع يد السارق منهم، وتقتل زانيهم الحصن، وتسترد منهم الغصوبات، وتأمرهم بالقراءة وإحياء مراسم العلم... فهذا كله حسن، ويرجى خيره، وتحصل لك به المنافع الدينية والدنيوية، إن كنت وحينئذ ينبغي أن يطيعوك، ومن عصاك عصا الله ورسوله وخرج عن طاعة الإمام)[٢] هذا هو المستوى الأول ففي هذا الخطاب. استمد التستاوتي مادته من الخطاب الديني بوجه عام، وقد جميع فيه العبادات والمعاملات والحقوق والواجبات، كشروط للطاعة والبيعة.

أما المستوى الثاني في هذا الخطاب، فقد أومأ إليه صاحب المقصد الأحمد، عندما قدم لنا الصورة الأولى التي كان عليها القائد أيام الجبروت والطغيان (وكان قبل ذلك شديد الشكيمة على الرعية، مستأصلا لأموالهم، متسلطا على فقراء الوقت وأبناء الصالحين يمتحنهم ويأخذ أموالهم...)[٣]. وهي نفس الصورة التي ترسمها له رسالة التستاوتي في هذه العبارات (وأما إن كنت تريد بذلك مجرد الشهوة أو إهانتهم، أو أنهم ليسوا على شيء، أو لا تكاد تجد فيهم من ينفعهم أو يدفع عنهم، فقد جعلت نفسك هدفا، ولا تكاد تعلم من هذا القصد) وفي عبارة أخرى يشير التستاوتي إلى ممارساته الاقتصادية والضريبية، وقد كان النظام الإسماعيلي قد سن قانون السخرة الذي يكرس الإذعان والخضوع في الغالبية العظمى من المحكومين.

إلا أن الدولة الإسماعيلية، كما يذهب إلى ذلك الدارس لـ"الالتقاط الدرر" قد استثنت "أرباب الزوايا " وأصحابهم من التكاليف المخزنية في إطار مساعدتهم

---

[١] انظر حوادث العام، في "النشر".

[٢] نزهة التستاوتي ١، و ٤١، ص ٧٩/٨٠.

[٣] المقصد الأحمد، ص ٨٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

للسلطة[١] ، وإذا كان هذا صحيحا، فإن رسالة التستاوتي تؤكد بأن القائد الريفي، كان يأخذ السخرة من أولاد مبارك، والمحتمين بحرم الشيخ أبي يعزى، وابتاع أولاد الشيخ محمد الشرقي (واستطاب لك – يقول التستاوتي – أن تبعث أصحابك يأخذون منهم السخرة، ويستغلون عليهم بجاهم، والله أعز وأقدر...)[٢].

أما المستوى الثالث في الخطاب، فهو لا محالة يستمد طاقته من السلطة الروحية للتصوف، وفيه التحدي الكبير الذي يواجه به الصوفي رجل العسكر والسياسة. ومن الطبيعي – جدا – أن يلجأ التستاوتي في هذا الاتجاه إلى محكمة الغيب، وقد انتصب عليها القضاة العدول من أولياء الله. كآخر ورقة في هذه المواجهة بن التستاوتي والقائد الخطير (فكيف بك، يا مسكين، تترك فرسك في هذه المزاليق وتحب أن تلاعبه في هذه المداحيض، التي تزل فيها الأقدام بعد ثبوتها، ألم بأن لك أن ترفق بنفسك وتحشى الله وتتقيه، فإن جاهك الذي استندت إليه ظل زائل وورق حائل، ونصرتك التي اعتمدت عليها لكلامي باعتبار نصره الله وإغاثته للمنتصرين به سجنه)[٣].

وتنتهي الرسالة بعد استطرادات شديدة اللهجة عمن يحارب الله ورسوله بمحاربة أولياء ورسوله، نعم تنتهي الرسالة بأسلوب التحذير، ومن موقع يبدو فيه المرسل التستاوتي، الشيخ الكبير الموجه، الواقف إلى جانب المظلومين من أبناء الصالحين دون أن يستشعر أي خوف يأتيه من جبروت القائد وسلطانه (واعلم أنك راع مسؤول عن رعيتك، ولله رجال، موجودون لو أمروا الجبال بالتزلزل لتزلزلت هيبة لهم، وهل عرفتهم وأمنوك ؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال، ولا يخطر ببالك أني من أولئك الرجال، وإنما أنا غبار نعالهم، ولكني كأني أنظر إليهم موشحين السيوف ينتظرون الأذن. فوالله لو أذن لهم لرأيت شمس الحق يسطع نورها عند التزلزل. والرجال رجال. ولقد نصحناك فإن قبلتها فلك أجر من قبل النصيحة، وأنت – حينئذ – منا وإلينا، وإن رددتها، فنحن براء منك "واقض ما أنت قاض" "إنما تقضي هذه الحياة الدنيا".

---

[١] مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر، ص ٧٨/٧٩.

[٢] م.ن والإحالة من نزهة الناظر.

[٣] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

واعلم أن كل من ينسب إلى الله من صادق وكذب داخل في حمى الله ورسوله، ومكتنف بكنف الله. فإذا لم تتب فلبدن طائرك من دويد فخهم، ترى ما يصنع الله بك. والله المستعان وعليه التكلان)[١].

٤- بهذه الاستعارة البدوية، وهي من قلب البيئة المغربية، ختم التستاوتي رسالته، كصوفي أجرى خطابه السياسي، من مستويات بالحديث عن الرسالتين السالفتين، أولاهما عن موقف التستاوتي من ثورة أحمد بن عبد الله الدلائي، أما الثانية فقد تناولناها من زاوية أخرى عكست بوضوح موقف التستاوتي من السلطة الحاكمة وممارساتها على قطاع معين من المجتمع المغربي إبان توطيد الأمن والنظام.

ولن نتحدث عن الرسالتين اللتين أدرجناهما في هذا الباب لأننا قد استوفينا الحديث عن الرسالة الشهيرة حول المهدي والمهدوية في الطور الثالث من حياة التستاوتي، وقد قارناها – آنئذ – بالخطاب اليوسي في رسالته الذائعة الصيت إلى السلطان إسماعيل.

وعن الرسالة الرابعة التي كتبت عام ١١٠٩، فقد ربطناها بفترة ما بعد المحنة، حيث كان التستاوتي تحت الإقامة المحروسة في مكناسة الزيتون. وهي أقرب في خطابها إلى الاتجاه الأخلاقي الاجتماعي، منها إلى الخطاب السياسي المحض. (وبعد، فقد عميت البضائر، وأظلمت السرائر، وانقلب المنكر معروفا، وصار الغدر مألوفا، وتعطلت منابر الحكماء من حكمها الرائقة، وعفت كراسي العلماء من مواعظها الفائقة. ولست ترى إلا مشغولا بيداه عاكفا على شهوته وهواه. وأصبحت منازل العقلاء دارسة، ولا عين لها من أهل المودة حارسة، فمن خائف على نفسه وماله، ومن خائض في ما لا يعنيه في أدباره وإقباله وننوسيت مكارم الأخلاق، وسدت أبوابها، وطال بها الأخلاق، وفنيت الأبرار، وعدمت الأسخياء، وارتفعت الأشرار، ووضعت الأتقياء وكل من يدوم في محبته، ويثبت في عقدته ومودته، ويتلاعبون بها ملاعبة النساء مع الصبيان. ومن صرح بها لأبناء الوقت استوجب منهم المقت[٢]. إلى آخر

---

[١] م.ن من نزهة الناظر.

[٢] والرسالة في "النزهة"، و ٥٩، ص ١١٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الرسالة التي قصد بها للتستاوتي أن يسجل بحسه البياني الخلخلة التي أصابت القيم، اضطرابا وانقلابا. فالكل، في هذا العصر صار معكوس الاتجاه.

والسؤال الوارد في الطرح هو : ما مصداق هذه الرسالة، بتاريخها المحدد، من الوجهة التاريخية ؟ وهل كان العهد الإسماعيلي، خلال هذه الفترة يعيش أزمة في القيم ؟ كما تفصح عنها رسالة التستاوتي العارية من المرسل إليه أم أن التستاوتي، وبعد خروجه من السجن بدأ ينظر إلى العالم من منظار ذاتي أسود، يرشح بالرسوبات التي ظلت مكبوتة في أعماقه طيلة العامين الأسودين الذين قضاهما أسير المحنة الظالمة ؟ مما شك فيهن هو أن السلطة الإسماعيلية قد صقلتها التجربة وقوتها أعوام التحديات والمواجهات سواء على الصعيد الداخلي أو على الصعيد الخارجي. وقد دخلت دواليب الدولة، بعد ذلك إلى حالة استقرار نسبي، جعلت الناس يستجمعون قواهم لمواجهة الحياة الدنيا، خاصة في الحاضرة الإسماعلية. ثم إن رؤوس العصر، من الناحية العلمية والصوفية قد اختفت إلى عالم الخلود[1] وكان لا بد، بعد هذا التحول أن ينشأ جيل آخر لم يعش الحياة السياسية كما عاشها جيل التستاوتي واليوسي... والتاريخ يحدثنا – كذلك – بأن السلطان إسماعيل قد استشعر الأمن والأمان بعد العشرة والمائة بعد الألف، وشرع في (تفريق أعمال المغرب على أولاده)[2] ، وقد نشأ عن ذلك ما نشأ، كما يقول الناصري. لكن غالبية المؤرخين لم يحدثونا بتفصيل عن هذه الفترة خاصة القادري في نشره أو التقاطه (كما يلاحظ أنه لا يذكر الأحداث التاريخية التي عرفها المغربي فيما بين (١٠٠٠ هـ/١٦٨٩م – ١١٣٩/١٧٢٧م)، إلا ما كان بعض الأحداث التي من شأنها أن تحدث في ظروف السلم والاستقرار لأي نظام)[3].

وهناك حقيقة لا يمكن إنكارها، وهو أن الدولة الإسماعيلية، بعد الأعوام العشرة من المائة الحادي عشرة، قد دخلت مرحلة العد التنازلي، خاصة بعد التفريق المذكور حسب تعبير الناصري.

---

[1] انظر وفيات عام تسعة ومائة وألف من التقاط الدرر، ص ٢٧٢.

[2] الاستقصا، ٧/ ص ٨٩.

[3] انظر مقدمة تحقيق كتاب "التقاط الدرر" ص ٣٨، واكتفى الناصري، كذلك بعرض خفيف عن أحداث هذه السنين، الاستقصا، ٧، ص ٨٨/٨٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وملاك الأمر، في هذه الرسالة عن فساد القيم، واضطراب موازين العصر، هو أن التستاوتي بدأ ينظر إلى الحياة الدنيا بنظرة الزاهد المتشائم، الذي بقي وحده في الميدان، بعد تفرق الإخوان وموت الخلان ولهذا (تعطلت منابر الحكماء من حكمها الرائقة، وعفت كراسي العلماء من مواعظها الفائقة).

ولولا أننا تناولنا – قبل – هذه الرسالة، لذيننا ها – هنا بمزيد من القول.

وأخيرا، فإن الرسائل القليلة التي كتبها التستاوتي عن أحداث عصره، ظلت محصورة في فترة ما بعد أعوام التسعين إلى أن دخل فترة المحنة بعد وفاة اليوسي بسنتين. ذلك أن الفترة التاريخية التي أعقبت حكم السلطان إسماعيل – مباشرة– حملت معها من التحديات والتناقضات ما جعلت الكثيرين من علماء العصر ومتصوفته يتحدثون حديثا فيه الحذر وفيه الانتقاد.

وكان التستاوتي – كاليوسي– يشعر بدبيب الحرارة يسري في عروقه، ليقول كلمة الحق بلغته الصوفية وبأسلوبه المعهود. والذي يختلط فيها الظاهر والباطن، والخرافي بالكرامي، والغيبي بالعقلاني، والاجتماعي بالسياسي. إلى آخر الثنائيات التي لعبت دورا هاما في بلورة الشخصية التستاوتية.

وقد كتب له بعض أصدقائه، يصف له حالة البلاد والعباد، بقوله (أما ما لحقنا وهم البلاد والعباد، لا يسع ذكره قرطاس، ولا يبقى مجلا للأنفاس، فذلك حذفت تفصيله من كتابي هذا، لأنه يستحق الحذف، ومستغرق الوصف، ولو ذكرت بعض بعضه، لنسيت الإسم، والفعل، والحرف. فاطلب الكلام فلا أجد، وأستنجد القريحة فلا تستجد... وما كان شأني الإعلان، لكن إذا امتلأ القلب وفاض اللسان، ولا بد للقلم من نفثة تريح، وشكوى يخفي بها بعض هذا التبريح... وهذا ليس بغاية، وفيما ذكرته كفاية، وعلام الغيوب، يعلم ما وارته القلوب، من لا يخفاكم رسمه، واسمه...)[1].

وقد أجابه التستاوتي، برسالة شعرية من خمسة أبيات، التزم فيها التعبير الإشارة على طريق القوم، قال ::: فأجبته بما نصه :

---

[1] نزهة الناظر ١، و ٦٤، ص ١٢٤، وفي نفس السياق، والورقة التي بعدها جواب من التستاوتي يسير في نفس الاتجاه الإشاري، وهو مصدر بأبيات شعرية صوفية. إلا أن الجواب صادر إلى غير مخاطب معين.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

شريعة الحب لم تأذن برقدتنا وكيف نرقد والأحباب ما رقدوا
ولا قعود لمن إخوانه بالهوى من فرط أشواقهم بالحب ما قعدوا
ولو تساعدنا الأيام توجتم منا به الأشياء تتقد
فاصبر عسى الله يأتينا ولا تقل أن أحبابي به بعدوا
بمطلبكم والمسك يهدي له العرف الذي
وخذ شذا بعض ما تهوى تنشقه نجد
والسلام...)[1].

وبين الرسالة والجواب اختلاف وائتلاف، اختلاف في التعبير، وائتلاف في المقصد والتفسير. ذلك، هو الجانب السياسي والاجتماعي التي تضمنته رسائل معينة في كتاب النزهة ونقترب الآن من المحور الثاني، في هذه الدراسة عن رسائل التستاوتي، ولن يدور حول شخصية الرجل وفكره وأسلوبه، فالمدار هنا يأخذ تجاها آخر تحدده القسيمة المرجعية/التوثيقية لكتاب النزهة بشكل عام، وفي رسائل الآخرين بشكل خاص. ونترك الجانب الشعري فيه إلى القسم الأخير من هذا البحث – إن شاء الله.

[1] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفصل الثاني :

القيمة الأدبية والتاريخية لكتاب " نزهة الناظر" من خلال رسائل الشخصيات المعاصرة للتستاوتي

١- تقسيم وتصنيف :

- رسائل صوفية
- رسائل إخوانية
- رسائل مختلفة

٢- عرض تحليلي لنماذج من رسائل :

- أبي زيد عبد الرحمن الفاسي
- محمد بن أحمد القسمطيني

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

– اليوسي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١- ولكي ندرك القيمة المرجعية لمصدرية النزهة، في هذا الإطار، فما علينا إلا أن نجيل النظر، في الفهرس الإحصائي الذي وضعناه للمراسلات الصادرة عن بعض شخصيات العصر، وكأن المرسل إليه فيها هو أحمد بن عبد القادر التستاوتي. ومن هذه الزاوية أيضا يتسع لدينا الإطار الذي كان ينتظم العلاقة الاجتماعية والصوفية والعلمية التي كانت تجمع الرجل بألمع الشخصيات في عصره. وإذا كانت الرؤية – هذه – إنما تشع داخل عالم الرجل، فإن الزاوية الأخرى، التوثيقية، تساهم في توضيح الصورة أكثر، لبعض الشخصيات، خاصة منها تلك بهذا المحور، يعتبر مرجعا توثيقيا، حتى لأبرز الشخصيات التي عرفها العصر، وتدارستها أقلام الدارسين المحدثين.

ولا محيد لمن أراد أن يدرس العصر وشخصياته، من أن يلتصق بشكل حميمي مع "المجاميع" الأدبية العامة، التي ألفت في هذه الفترة، وقد قلنا – سابقا – بأن نزهة الناظر في صورته التأليفية، إنما يشكل وجها مألوفا لنوعية بعض التواليف التي كانت سائدة. وضربنا على ذلك بمثال مشابه، إلا وهو المجموع، المرسوم به " الثغر بالباسم في جملة من كلام أبي سالم "وقد سبق للباحث محمد المنوني، أن بين قيمة هذه المجاميع في محاضراته عن المصادر التاريخية والأدبية[١].

ولن نقوم هنا، في هذا المحور الصغير، بدراسة تقييمية عن هذه الرسائل، لأن البحث – هذا – قد اتخذ في مسلكه التعريف بالتستاوتي وبأدبه الصوفي وغيره من خلال كتاب "النزهة". وما عداه من الشخصيات العلمية والصوفية، إنما هي نقط مكملة لإطار الدراسة ومنهجها. وهذا لا يعني بحال العزوف عما عداه، وقد تواجد بشكل أو بآخر في رحاب نزهة الناظر.

وإذًا، فالحديث سيقتصر على الناحية التوثيقية المرجعية لرسائل الآخرين في الكتاب، وإذا كنت مصيبا في هذا الطرح المصدري فإن قيمة "نزهة الناظر" ستكون مجلوة أكثر، عند الذين يريدون أن يتناولوا بدراساتهم الزاوية الناصرية بالمعنى العام،

[١] مجلة كلية الآداب (العدد التاسع) وقد جمعت تلك المحاضرات، في كتاب مطبوع.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وفي تحقيق رسائل أصحابها بالمعنى الخاص. كرسائل الشيخ محمد ابن ناصر، ونصيب التستاوتي منها ليس بالقليل[١] ورسائل ولده أحمد إلى التستاوتي كذلك[٢].

ونبقى مع الزاوية الناصرية – لمن أراد أن يدرسها – فإن بعض المخطوطات التي تناولتها زمانيا ومكانيا وصوفيا، كالدرر المرصعة، وغيرها، لا يمكن توثيق نصوصها، إلا بالاعتماد على آثار المريدين الذين تخرجوا من الزاوية، وكان التستاوتي واحدا من ألمح المتخرجين والمريدين وغالبا ما يكون التستاوتي المصدر الذي ينقل عنه صاحب الدرر المرصعة[٣].

هذا مثال، ضربناه، وهناك أمثلة أخرى عديدة، ومن باب التذكير فقط، فإن المراسلات التي فحصناها سابقا عن آخر ثورة دلائية، والتي دارت بين التستاوتي والثائر أحمد بن عبد الله الدلائي، رأينا في قولها بعض الفروق من مصدر إلى آخر، كالنص الذي أورده القادري، نقلا عن البدور الضاوية[٤] وكان أوفى نص في رسالة الدلائي في النزهة، لأنه أضاف إلى إحالته وتوثيقاته المزيد من المزيد والتفصيل[٥].

ونكتفي، بهذه الأمثلة العابرة، وإلا فإن هناك مثالا ماديا لدينا، هو كاف لإبراز القيمة المصدرية المرجعية، لرسائل النزهة الصوفية. ذلك أن الناصري في "طلعته" جعل من التستاوتي ونزهته المصدر –الأساس في سرده لمناقب ابن ناصر وزاويته. والقراءة السريعة لفهرس الكتاب أوفى دليل على ما نقول.

هذه هي الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية، فهي أن رسائل الشخصيات الواردة في كتاب يمكن تصنيفها إلى :

١– رسائل صوفية

---

[١] انظر الجدول الإخصائي لرسائل النزهة.

[٢] انظر الجدول الإخصائي لرسائل النزهة.

[٣] مخ / خع (٢٦٥/ك) وينقل عن التستاوتي في ص ١٠٤. وهناك مخطوط آخر للمؤلف هو "الروض الزاهر" (خم رقم ١١٨٦١/ ز) ينقل عنه ص ٥٤ قصيدة ألقاها بين يدي محمد بن ناصر.

[٤] انظر النشر٢، ٢٨٤–٢٨٥ في الهوامش (١٩، ٢٠، ٢١).

[٥] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٢- رسائل إخوانية

٣- رسائل مختلفة

والرسائل الصوفية الواردة إلى التستاوتي أغلبها كما قلنا، صادرة عن الزاوية الناصرية، أيام التأسيس على يد محمد بن ناصر الدرعي وأيام الامتداد في زمن الخليفة أحمد. وأظنني قد استوفيت الكلام عن الزاوية الناصرية، وعن شيخيها ورسائلهما في عدة مواطن من هذا البحث.

٢- وقد كان التستاوتي خلال أعوام التسعين الأولى (١٠٩٥) يراسل أولاد الشيخ عبد القادر الفاسي، فيأتيه الجواب من أحد أبنائه العالم الشهير، أبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي. ومما جاء في خطابه، بعد التصريح باسمه... (إلى المحب الحبيب الفقير الشهير، سيدي أحمد بن عبد القادر، أمدنا الله وإياكم بمحبته، وجعلنا في زمرة أهل معرفته، سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته. وصل كتابكم الخطير الأثير، فاستبشرنا ببقائكم على الود أي تبشير، أما ما ذكرتم من خلال الشيخين، فكذلك هو ما يختلف فيه إلا من لا نور له، لكثافة عوامله بغلبة الهوى وقلوب أصابها العمى) [١] والرسالة تقع في صفحتين كبيرتين، تناول فيها عبد الرحمن الفاسي – مع مخاطبة – بعض القضايا الصوفية التي تشغل بال الصوفيين في عصره. والإشارة إلى الشيخين في العبارة السالفة، تتجه نحو ابن ناصر والشيخ الفاسي عبد القادر. كعمادين شامخين في الفكر الصوفي للعصر. وبعد أن اطلع التستاوتي على رسالة كتبا مبرر فيه شفاء للصدور وزيارة، نور على نور، فلمحته وما تصفحته، غير أني أرى رياضه واسعة الرحاب، متمنعات الحجاب، ولا بد للشمس من سحاب، وللحسناء من نقاب، فحمتني الأنوار، من تناول الأزهار، وغشيني ما عشيني من العرف، فامتنعت من القطف، وقلت هذه لا تكون الورقة، إلا من تلك الشجرة، وتلوت الآية من سورة البقرة ". إن الصفا والمروة من شعار الله... "[٢]. إلخ الرسالة التي ختمها التستاوتي بأبيات شعرية. وقد جعلنا – بهذا النص – التقييم الفني، من التستاوتي لرسالة صاحبه.

---

[١] نزهة الناظر ١، و ٣١، ص ٦٠.

[٢] م.ن، و ٣٢-٣٣، ص ٦٢، ٦٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولو قدر لأبي زيد، عبد الرحمن الفاسي، أن يعيش أكثر، لكانت بين الرجلين مراسلات ومراسلات، لكنه التحق بعالم الخلد، وهو في أوج العطاء العلمي، حتى قيل عنه أنه "سيوطي عصره" لما في علمه من شمولية موسوعية[١] وناهيك من رجل، عالم، كهذا، يتحاور مع التستاوتي في موضوعات صوفية وعلمية. ويراجعه الأخير بالأسلوب الذي أومأنا إليه.

٣- ومن الرسائل الصوفية ذات المنزع الجدلي، في نزهة الناظر، رسالة السيد (الفقيه عبد الله الحمير[٢] وهي طويلة تقع في اثني عشرة صفحة، من كتاب نزهة الناظر، وقد وقفت عليا في نسخة أخرى من مخطوطات الخزانة العامة[٣] ضمن مجموع يشمل على رسائل في التصوف، ومنها رسالة هذا الفقيه وتليها جواب أحمد بن عبد القادر التستاوي والرد الذي كتبه شقيقه العياشي منضرا لأخيه)[٤].

أما عن موضوع الرسالة فيدور حول الكبر والتكبر والتواضع، وهو موضوع استمد مادته – كاتبه – من مصادر صوفية متعددة كقوت القلوب لأب طالب المكي، والإحياء للغزالي، وحكم ابن عطاء الله السكندري، وغيرها من مصادر القوم الصوفية.

كما أن الرسالة الطويلة، اشتملت على أخبار الأولياء والصالحين، الأحياء منهم والأموات القريبين من عصره والبعيدين. مما يرسم لهذه الشخصية الإطار المعرفي الذي يتحرك فيه، وهو السيد الفقيه، كما في التحلية. فقد استشهد باليوسي والشيخ محمد بن ناصر الدرعي وولده الخليفة. كما أنه جمع في رسالته بين الثقافة الفقهية والاطلاع الصوفي، فأكثر من ذكر بعض الفقهاء والعلماء، كابن الحاجب، والسيوطي وأحمد زروق.

---

[١] توفي عبد الرحمن الفاسي (١٠٩٦)، انظر النشر ٣٢٧/٢ والالتقاط ص ٢٣٠٢٣١.

ولقد ترجم له كل من النبوغ، ط ٢، ص ٢٨٥ من الجزء الأول، والوافي ٣، ص ٧٧٥، والحياة الأدبية ص ١١٤، وانظر رسالة اليوسي إليه، يعزيه في والده (رسائل اليوسي) ٦١٨/٢.

[٢] لم أقف على ترجمته.

[٣] رقم المجموع (١٨٤٥/د) وتقع الرسالة ما بين ص ٢٧٤ و٢٩٣.

[٤] ورد العياشي على الفقيه موجود في النزهة كذلك ١، و ٢١٠، ص ٤١٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولم تظل الرسالة من المادة الأدبية، كاعتماده على النصوص الشعرية التي تخدم غرضه الجدلي، وأكثرها مستقاة من مصادر صوفية.

هذا هو المحور العام لرسالة هذه الفقيه، وهي لا تخرج عن عصرها، الذي كثرت فيه الرسائل التعليمية، ذات النزعة الجدلية. وقد كان اليوسي على راس المتجادلين برسائله العلمية والصوفية[١].

ولا يفوتنا في هذا التقديم، أن نشير إلى أن رسالة هذا الفقيه/الصوفي لم تبرأ من بعض القضايا الموغلة في ميتافيزيقا التصوف البعيدة عن العلم وعن التصوف على حد سواء.

والباعث على هذا الرد الطويل من الفقيه عبد الله الحمير، جاء في سياق التصدير المقدم به الرسالة.

(أما بعد، سيدنا وأخينا قد كنت حال قجومك لشالة المعظمة بالله، للتعزية في سهرك السيد فلان بن فلان، قبيل هذه الساعة بقليل، آذيتنني بكلام تصريحا وتلويحا، ولا ينسى العار مادام الإنسان في الغيار، وهذا من مثلك عار بعد عار، لأنك بتربية المريدين مشتغل، وعلى الخيرات مشتمل، على أنك بالنسبة إلى الطريق الناصرية من سوط رئاستها ومن رؤوس علمائها، ومن خالص زهادها فكيف، حتى يصدر منك ما يؤذن بغل قلبك علي ؟ أم كيف تشم رائحة كبرك، وأنت مشتغل بربك ؟ وفي الحديث " لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر"..)[٢] ، وبعد هذا التقديم الذي استهل به رسالته، خلص إلى الموضوع، بحسن التخلص المطلوب، مظهرا علمه واطلاعه عل علمي الطويل. ومما ورد في رده التنصيص على ظاهرة الجذل الذي انطلقت منه رسالة التستاوتي ورسالته...

(وكيف تماريني وتجادلني في كلمة وقعت مني رمية من غير رام، وقد قيل أخوك لا تماريه ولا تباهيه، وهلا أفردتني وأدبتني ونصحتني وأشفقت علي في نصحك إلي. كما هو المعروف والمألوف من أهل الطريق من أترابك وأمثالك، ولا تشافهني بها

---

[١] انظر رسائل اليوسي ٢، ٥٨٨.

[٢] نزهة الناظر، ١، و ٢٠٥، ص ٤٠٧، و ٢٠٦، ص ٤٠٩. وانظر المجموع الخطي، ص ٢٧٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بمحضر إخواني، وقلوبنا لم تزل معمورة بالقاذورات الباطنية، واعتقادنا فيك – أيها الأخ – من الذين طهر الله لهم سرائرهم، ورقاهم إلى العالم الاسني، ورفعهم عن العالم الأدنى وخالفوا الهوى وودعوا السوى....)[١].

ثم يستخلص من هذا البيدر الجدلي، هذه الحصيلة فيقول (وحاصل الأمر سيدي وأخي، نور الله بصيرتي وإياك فلا ينبغي للإنسان أن يحمل الناس على مراده، ويشوش عنهم أذهانهم ومرادهم، وأما اليوم صار الشيخ المربي – كما نصوا عليه – رضي الله عنهم، كالغراب الأبيض لا يكاد يوجد في زمانهم، لا سيما اليوم....)[٢].

وفي الرسالة – كما قلنا – تساؤلات ترتمي إلى ما وراء التصوف لتعانق الأوهام الميتافيزيقية. ولست أدري، هل صادرة عن تجاهل العارف أم أن صاحبها فعلا يريد ويتطلع إلى الجواب الشافي عنها حال قدومك لرباط الفتح – أحاطها الله وأمنها من كل مكروه – أريد ملاقاتك لأراك، فقيل لي أنه يتستر، ولا يرى إلا نادرا، فوقع من قلبي من كلام الشيخ أبي العباس المرسي – رضي الله عنه – "من أراد الخفي، فهو عبد الخفي، ومن أراد الظهور، فهو عبد الظهور....)[٣].

وأخيرا، فإن قيمة هذه الرسالة لا تعود إلى موضوعها في حد ذاته، بل القيمة في ربطها بثقافة العصر التي كانت سائدة لدى طائفة كانوا يشكلون القوى الثالثة في البلاد. ثم إنها، من باب التصنيف الثقافي والأدبي، سائرة في فلك المراسلات التي حفلت بها ثقافة العصر، خاصة الرسائل التعليمية المختلفة الاتجاهات والمشارب. وصاحب هذه الرسالة لا نعلم عنه الشيء الكثير ولا القليل، حتى ندرك حقيقة الموقع الثقافي الذي ينطلق منه. ولعله كان قاضيا، كما تفيد إشارات التستاوتي التلميحية، ومهما يكن من أمر، فإن رسالته في نزهة الناظر، لا يمكن إلا أن نعتبرها نسخة إضافية لما في المجموع الخطي التي أشرنا إلى مظانه في الخزانة العامة.

---

(١) م.ن.

(٢) نزهة الناظر، ١ ورقة ٢٠٨، ص ٤١٤، وفي المجموع الخطي، ص ٢٨٨.

(٣) نزهة الناظر، ١، و ٢٠٩، ص ٤١٦، وفي المجموع الخطي ٢٩٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

٤- ومن شخصيات العصر البارزة، علما وتدريسا وتحقيقا، الطي راسلوا التستاوتي بعدة مكاتبات، أبو عبد الله محمد بن أحمد القسمطيني[١] وكان ممن وقف إلى جانب التستاوتي أيام المحبة والسجن[٢] ولا عجب أن يحليه صاحب النزهة بـ "خاتمة المحققين وأعجوبة المدرسين" وكيف لا وقد كان مدرسا وأستاذا لولده محمد الشريف.

وإذا رجعنا إلى الذين ترجموا لهذا العالم، فإن الإجماع ينعقد على أنه من المحققين وحفاظ العصر. يقول عنه القادري في الالتقاط (وكان حافظا مطلعا، ولم يكن ممن يعتني بالتأليف، وكان له بفاس صيت كبير)[٣]، وهذا العالم والفقيه، وفد على فاس، قادما من بلاده كما يقول القادري. وما أكثر العلماء الذين استوطنوا مدينة فاس، كغرباء أو مهاجرين، وكان لبعضهم دور علمي – لا ينكر – في هذا التاريخ، كالشيخ أحمد الحلبي[٤] وصاحبنا القسمطيني، وإلى أصله ومنشأة يشير الشاعر محمد بن قاسم الشهير بابن زاكور، فيقول :

وإلى الزمان مع المكان كمطلع ... الأنوار عنه وموضع الميلاد
ايه نسطية فخارك فافخري ... إن كنت منشأة على بغداد[٥]

ولو لم يكن، كما وصفناه بوصف معاصريه، لما مدحه هذا الشاعر، بقصيدتين، كما مدح اليوسي، والعميري وباقي أشياخه من علماء العصر[٦].

وبين الرجل والتستاوتي محبة خالصة – لا توصف – فهذا يحليه بأوصاف عالية، وذاك يخلع على التستاوتي حلة الولاية والعرفان وكان دائما يخاطبه – في

---

(١) انظر التقاط الدرر، في وفيات عام ١١١٦، وقد أثبت محقق الكتاب، في هامش رقم(١). المصادر التي ترجمت للقسمطيني كالصفوة. ص ٢١٧، وشجرة النور الزكية، ٣٢٠/١، والسلوة ٣٠/٢ وفهرسة تلميذة المنجرة (مخطوط).

(٢) انظر القسم الأخير من الطور الثالث من حياة التستاوتي، من هذا البحث.

(٣) الالتقاط، ٢٩٣.

(٤) اشتهر كأديب في الأمداح النبوية، وله تأليف من جملتها الدر النفيس، وقد جعله صاحب "الأنيس المطرب" تاجا على مفرق كتابه فبدأ به حديث الأديب والأنس، انظر "الأنيس المطرب"، ص ٦، والالتقاط. ص ٣٠٢ والأعلام ٣٣٢/٢ لابن إبراهيم.

(٥) المنتخبات، ص ٥٤ و ٧٩.

(٦) م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المراسلات– بالعارف بالله الصمداني، ويدل ذلك على التقدير المتبادل بين الرجلين. واحد فارس في علم الشريعة والظاهر، وآخر غارق – إلى فوديه – في بحار الأحذية. ومن هذه الزاوية تظهر القيمة التاريخية لرسائل القسمطيني في كتاب النزعة. وهي سبع، يمكن تصنيفها ضمن الرسائل الإخوانية على جهة التغليب. فقد واساه برسالة أيام المحنة، وعزاه برسالة في وفاة ولده محمد الشريف. كما طارحه وراجعه برسائل أخرى، تعبق بالعبير الصوفي أحيانا.

وإذا كان هذا العالم والفقيه لم يخلف أثرا يذكر بالكتابة والتاليف، إلا من نوازل أشار إليها القادري، فإن له اسلوبا أدبيا يؤكد مشاركة الفقهاء الفعالة في الميدان الأدبي، كما سنرى، في الفقرات التي سنختارها، في هذه اللمحة عن رسائله في النزهة. ولو أرخت كل الرسائل السبع، لاستطعنا أن ندرك الخلفيات الزمنية والتاريخية التي تنوء بها بعض الرسائل، وليس بين يدينا مما هو مؤرخ منها لإرساليتين : الأولى في سنة (١١٠٥) وقد وقفنا عندها قليلا في باب المحنة. أما الثانية فقد كتبت بعد هذا التاريخ بعامين، أي في تاريخها (وقد ضاق الخناق، واتسع الخرق على الواقع، وأبيحت المحارم، وصارت لا إله إلا الله لا تعصم دما ولا مالا. وقد ضاق الصدر من تفاقم الأمر. والله – يا أخي – ما تخشى ولا تخاف إلى قوله تعالى "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة". واسألوا الله تعالى معنا ن يلطف بجميعنا، ويجعلنا من اعتبر بغيره، ولا يجعلنا ممن يعتبر بنا، ولا يفتنا عن ديننا، فهذا الزمن الذي قال فيه (ρ) يأتي على الناس زمان، القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر... والسلام على كافة الأولاد، ولا سيما ولدنا محمد الشريف وقد توحشناه....)[١]

إن ألفاظ تلك الرسالة، كما قلت، لتنوء بشيء قد وقع في مدينة فاس، وأن الاضطرابات[٢] لا يعلم ذلك إلا المرسل والمرسل إليه. وفي رسالة إشارة إلى شخص اسمه الحسن، والآخر اسمه الأمين، فمن هو الحسن، هل هو اليوسي ؟ أما الأمين،

---

[١] النزهة ١، ورقة ٨٠، ص ١٥٧، ١٥٨.

[٢] من باب الاستدراك نضيف بأن أول رسالة مؤرخة من القسمطيني إلى التستاوتي في النزهة تحمل تاريخ ١٠٩٤، وبهذا تكون هذه هي الرسالة الثالثة المؤرخة. وليكون هذا الهامش تصحيحا لما قلناه سلفا.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فقد عرف في رسائل التستاوتي بالأمين المغفري، الذي استوصاه فكتب له الوصية التي ذكرنا موضعها في بابه[١].

وبعض المراسلات تكشف عن جانب اجتماعي، تأصل في مدينة فاس كعاصمة علمية، وذلك يتعلق بختم بعض المتون وما تتوج به من تقاليد عليمة وحفلات تكريمية. (ومن عجيب الاتفاق أن رسولكم وصل إثر ختمي لسيدي "خليل" أثر فراغي من الختمة بنفس بلوغي من الدار، والناس يتناولون الطعام في المسجد الجامع وكان يوما مشهودا، فتعجب الناس من ذلك الاتفاق الذي ما سمع قبله، وقلت لأصحابنا أن الشيخ أحمد بن عبد القار ناب عن الشيخ خليل في بعث الجائزة فأكرمنا الشيخ خليل على يد محبنا وخليلنا، فحصلت لنا المسرة من وجوه، من مواصلتكم، وصلكم الله لمواهب أوليائه، ومن همتنا ورجائنا قبول أعمالنا...)[٢]. وتنتهي هذه الرسالة القصيرة، بالتعبير عن الفرح الذي عم النفوس والأرواح بهذا الاتفاق (وبالجملة عجزنا عن التعبير عما تضمنه قلوبنا من الفرح والسرور. جعلك الله من أهل الإنس به والفهم عنه، وزادك كشفا إلى كشفك، وبصيرة إلى بصيرتك ومدنا بصالح دعائك، ولا تنسانا من حال مناجاتك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أخوكم وخليلكم محمد بن أحمد القسمطيني...)[٣].

ولا شك أن هذه الفئة من هذه الرسالة قد تفيد الباحث في أحوال التدريس بفاس، وخاصة في جامعة القرويين[٤] ومن إخوانيات هذا الفقيه العالم، رسالته في التعزية، أثر وفاة ولد التستاوتي وتلميذ الفقيه، محمد الشريف.

وأسلوب هذه الرسالة لا يختلف عن الأساليب التي كانت معهودة في طابع العصر، رغم صدورها عن فقيه يتأدب، لا عن أديب يتفقه. ومما يميزها صدقها الذاتي، ومشاركتها إنسانيا ووجدانيا، في المصاب الذي حل بأسرة الفقيه، وعلى رأسها التستاوتي الوالد، وقد أطنب صاحب الرسالة في إبداء محاسن المتوفى، كما هو

---

[١] انظر الوصية في النزهة ٧٣/١، ص ١٤ وتاريخها ١١١٠ هـ.

[٢] نزهة الناظر ١، و٨٠، ص ١٥٦– ١٥٧.

[٣] م.ن والإحالة.

[٤] انظر كتاب عبد الهادي التازي عن جامعة القرويين ٧٩٧/٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

معهود في رسائل التعزية، خاصة وأن الولد المتوفى كاد أن يصل إلى مرتبة العلماء والأدباء. وجاء في الشطر الثاني من هذه الرسالة مما يلي (ولما بلغنا خبر موته، عظم ذلك علينا، حتى ظننا أنا خبلنا في عقلنا، فرأينا في المنام أن جلوس مع جلة من أصحابنا، فعزيناك، وبكينا بكاء شديدا، وأفضنا معك في السؤال عن كيفية مرضه وموته ووقت موته فأخبرتنا بجميع ذلك. فلما استيقظنا قلنا وإن فاتنا التعزي يقظة فقد حصل مناما، والأرواح تنوب عن الأشباح، ولولا ما بنا من الأعذار لحللنا بتلك الديار وشاركناكم في الأوزار، وشاركناكم في قرب المزار، ولكن، حيث فاتنا ذلك فنحن لا ننساه من الاستغفار. وأنت يا أخي أحق ممن لا يأسف على ذهاب هبة ارتجفتها يد واهب، وذخرية، صارت بحكم الحمام وانقضاء الأيام نهبة ناهب، فأدب الشريعة أولى بميراثها، وينابيع الحكمة منك اصل انبعاثها، وعلى قدر شرف المفقود، وعدم نظرة في الوجود، يعظم قدر المثوبة والأجور الموهوبة... [1]). وتنتهي الرسالة الإخوانية بالدعوات الحارة، ليلهم الله أهل الفقيد الصبر الجميل، ويرحم الفقيد بالثواب والغفران.

وقد يقال ، ونحن نودع المعنوي والمعزى، لماذا القسمطيني وهو البعيد الدار ؟ والجواب، هو أننا تعاملنا معه، ضمن رسائل النزهة كواحد من الشخصيات العلمية التي لعبت دورا لا يستهان به في مدينة فاس، بالإضافة إلى أن الرجل كان من الأصدقاء الودودين والأحباء المقربين إلى التستاوتي، في السراء والضراء. والإشارة إلى رسائله لا يعني أننا أدخلناه في ديوان الإنشاء من تاريخ الأدب المغربي في هذا العصر. فحسبنا منه، وحسبه منا هذه الكلمات الصافيات التي انتشرت في حق صاحب نزهة الناظر.

وليكن اليوسي، في هذا الجرد، هو مسك الختام. لما لرسائله – في النزهة– من فرادة مرجعية.

٥– وإنه من نافلة القول الحديث عن اليوسي[2]، وقد صاحبناه وصاحبنا في هذه النزهة منذ اللحظة الأولى في رحلتنا العلمية هذه، وبخصوص رسائله "المنبثة

---

[1] نزهة الناظر ١، و ٨١، ص ١٥٩–١٦٠.

[2] انظر البيبليوغرافيا التي جمع الأستاذ الجراري مادتها ونشرها في العدد الخاص باليوسي من مجلة المناهل ع ١٥، ص ٥٤. ١١٣. ومن باب الإضافة نذكر ما في الوافي لأستاذنا محمد بن تاويت ٧٤٠/٣ عن أدب اليوسي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والمنسية" في المجموعة التستاتوتية، فطالما لوحنا إلى قيمتها كعمل يضاف إلى صنيع المحققة الفاضلة، والجامعة لرسائل اليوسي[١].

ومن باب التذكير فقط، فإن نزهة الناظر، كمصدر مرجعي لمجموعة من رسائل علماء العصر متصوفيه، تبدوا أكثر قيمة باحتوائها على عدد غير يسير من رسائل اليوسي. وما أدراك ما اليوسي. ويكفي أن ننظر في الفهرس الإحصائي لرسائل النزهة، ليتبين لنا الدور المرجعي لهذا المصدر، فرسائل اليوسي إلى صديقه التستاوتي، تضاهي في عددها أحد عشر كوكبا والشمس والقمر.

فالثلاث عشرة رسالة – منسية – كفيلة بالكشف عن جانب ذاتية وسياسية واجتماعية في حياة هذا العبقري، الذي وجه الثقافة في عصره، بتفاعل عضوي لا يجاري وقد تنبه إلى هذا الدور الخطير، الأستاذ "جاك بيرك" في كتابه عن اليوسي، كواحد من المثقفين الذي ساهم في إبراز المشاكل الثقافية للعصر[٢].

ومن هذا الجانب إلهام، فإن الكثيرين ممن يهمهم أمر اليوسي، سيستبشرون برسائل اليوسي المنورة بها نزهة التستاوتي. وإذا كانت – لدي – كلمة أقولها في هذا التقديم، فهي نابعة من القيمة الذاتية لهذه الرسائل، لما كان يربط بين الرجلين مع وشائج الصداقة والقربى. الأمر الذي يساهم في الكشف عن معطيات لا نعثر عليها في رسائله المنشورة، وجلها سائرة في فلك التربية والتوجيه، سياسيا واجتماعيا وصوفيا. وقلما تصادفنا في (رسائل اليوسي) المطبوعة والتي فاقت الستين رسالة, ما من شأنه أن يضيء الجوانب الشخصية الكامنة وراء الأحداث والمجتمع والسياسة. اللهم إلا ما تثره اليوسي من نتف لا ترقى إلى مستوى الإضاءة الكاشفة، عن حياته العالية، عن

وشعره.ونلحق ببليوغرافية الأستاذ الجراري ما كتبه مؤلف شرقي هو (نقولا زيادة) عن اليوسي في كتابه "صفحات مغربية" ص ٩٢.

[١] رسالة واحدة، عثرت عليها في طلحة المشتري، من اليوسي إلى التستاوتي ، وتعتقد المحققة أنها نسخة فريدة، ص ٤٦٩.

[٢] انظر كتاب المستشرق الفرنسي (جاك بيرك)...

- AL YOUSSI / PROBLEME DE LA CULTUTRE MAROCAINE AU XVII° ٥ ; PARIS MOUTONCO LAHAYE ١٩٥٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هواجسه، بسطه وفرحه عن جده وظرفه، عن صرامته ولياقة تصرفه، ... إلخ. الجوانب التي لا يتكاشف بها شخص إلا مع من يقاسمه في السراء والضراء.

هذا عن الجانب الداخلي لهذه الرسائل.

أما الجانب الآخر، الأدبي، فإن هذه الرسائل تتفاوت من الخطاب البلاغي إلى الخطاب العادي، وبهذه الثنائية يكون اليوسي قد كسر النمط الإخواني للرسائل، انطلاقا من روح العصر ومتطلباته.

ولا ننسى، ونحن نلوح – فقط – إلى القيمة الأدبية لرسائل اليوسي في النزهة المادة الشعرية التي تخللت بعض الرسائل، مما خلت منه نسخة الديوان الحجرية ونحن إذا أضفنا المقطوعات الشعرية هذه، مع القصائد الأخرى التي راجع بها التستاوتي، وهي موجودة في القسم الثاني من النزهة – قسم الأشعار – إذا فمنا بهذا العمل، فإننا سنكمل العمل الذي قام به الباحث التونسي في رسالته العلمية عن اليوسيي وديوانه[1]. ولا أظن أنه رجع إلى نزهة التستاوتي المعتمدة في بحثنا (نسخة تطوان) قصد الإطلاع الكامل على شعر الرجل.

وإذا، فإن القيمة المرجعية، لنزهة الناظر، تتجلى أكثر في رسائل اليوسي المنسية وقصائده المخفية.

وحسب التستاوتي هذا التوثيق والفضل.

ومن الصعوبات التي تواجه الباحث في هذه الرسائل خلوها من التوثيق الزمني، على عكس صاحبه التستاوتي الذي كان يمتلك الإحساس بالزمن، وجاءت رسائله وقصائده في غالب الأحيان مصدرة أو مذيلة بتواريخ الكتابة والإرسال. ولو قدر لرسائل اليوسي أن تؤرخ، لاستطعنا أن ندرك جانبا من الغموض الذي يكتنفها، خاصة منها التي تعبر عن أشياء تشير بطريقة ما إلى حدث من الأحداث. وقد لا

---

[1] هو الأستاذ عبد الحميد محمد المنيف، والرسالة نوقشت بكلية الآداب بالرباط... وقد نشرا مؤرخا فصلين من النشرة العلمية لكلية الزيتونة، بتونس عن "المغرب الأقصى في القرن الحادي عشر الهجري". من خلال محاضرات اليوسي ع/٧، و٨، عام ١٤٠٥ الموافق ١٩٨٤ وعمل هذا الباحث يضاف إلى البيبليوغرافيا العلمية عن اليوسي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

يمكن فهم أبعادها إلا بالمقارنة مع أجوبة التستاوتي أو بعض رسائله، وهي قليلة[1] وأحيانا يكون اليوسي مجيبا عن رسائل، ولا يريد الإفصاح عن موقف معين.

وكان اليوسي يلف معانيه أحيانا بمسحة صوفية، تزيد الفكرة – التي في النفس – غموضا على غموض. مما يفسح المجال للظن والتأويل. والغالب على هذه الرسائل الملفوفة بخرقة القوم الصوفية، أنها قد صدرت في الفترة التي أعقبت تخريب الزاوية الدلائية وترحيله إلى مدينة فاس أو هي صادرة عن الفترة التي كان السلطان إسماعيل يتعقبه بالمتابعة والترحيل. ولعل من رسائله الأولى هذه التي يخاطبه فيها – مازحا – بـ "الطفل الزكموط" داعيا له فيها أن يرزقه الله "شبعة زبد وعسل" في إناء نظيف. (من الحسن بن مسعود إلى الطفل الزكموط، أبي العباس سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي، رزقك الله شبعة زبد وعسل في إناء نظيف، وعلى أهلك ورحمة الله وبركاته/ أما بعد، فقد عمت الفتن وحمت المحن، واللطف موجود على كل حال، ونحن فيما بين ذلك تتلون، فتارة يشهدنا فنقول، كل فعلك جميل، ولكن عافيتك أوسع، أو نقول الأمر أمرك، وها أنت ترى وتسمع، أو نقول أين جوارك أين غيرتك ؟ أو نقول من يعزنا أن أهنتنا ؟ أو نحو هذا، وتارة يغيبنا، فنقول، تعدى فلان، وفعل فلان...) وأن نفس اليوسي، من خلال العبارات والألفاظ لتبين كأنها مشدودة إلى المد والجزر داخل الحدث الموصوف. (واعلم أن البلاد قد خرب، والجار قد انتهب وكنا نحب خرابه وما كنا نحب انتهابه، والأمر أمره. ولم ندر، ما أراد الرجل بهذا الفعل، هو إخراج الرعية من الحرم لا غيير، أم إخلاء الموضع فقط، ففنزل التخريب بهذا القدر فإن تم له ازداد إلينا، فكل ذلك محتمل...) ويختم اليوسي رسالته القصيرة بسؤال الحيرة عن السر الذي وراء التخريب والانتهاب (وبالجملة، فلا ندري أشر اريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدا...) [2].

وليس يخاف على القارئ المتتبع لأحداث هذا العصر، إن المؤشر الواضح في الرسالة يتجه نحو التخريب الذي أصاب الزاوية وأصحابها وأن الرجل جاء عرضا، في السياق متخفيا ومختفيا، هو الرجل الذي أمر بتخريب الزاوية الدلائية. وقد بكاها

---

[1] عدد رسائل التستاوتي إلى اليوسي لا يتعدى سبعا، حسب ما في النزهة، من نسخة تطوان، وهي أوفى النسخ.

[2] نزهة الناظر ١، و ٧٠، ص ١٣٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

اليوسي بقصيدته الرائية فتكون – إذا صح الاستنتاج – هذه الرسالة بمثابة استنكار آخر للموقف.

وإذا كان اليوسي مازحا له في الرسالة السابقة فناداه بالطفل الزكموط، فإنه في رسالة أخرى يصفه بـ (ثمرة الفؤاد وفلذة الأكباد) ويشتم من سياقها أنها جواب على رسالة وصلت إليه من التستاوتي، يخبره فيها بحال أزعج خاطره، وفي طلك يقول اليوسي (فإني لم أغب غفلة عنك، ولا عدم مبالاة – معاذ الله –، وإني لأسال الطير لو تتكلم عنكم، وما خفيت عني أخباركم، ... والله لولا العيال في الخلاء ما تأخرت عن كتابكم طرفة عين بنفسي، وقد ذكرت ذلك لولدكم، وقد وقع في أمر عظيم حين قرأته، ثم فوضت الأمر إلى الله، واكتفيت بالدعاء، عن ظهر الغيب، ثم نزلت أهوال وأثقال، ومات من مات من ممالكنا ومن تعلق بنا ممن بلغكم، ومات من طلبتنا جماعة، رحمة الله على الجميع. وقد عظم وجدي على الطلبة، ثم خف الوجد، بل أوجب السرور والطرب ما شاهدنا فيهم من الخير بحمد الله، فما ظنك بجماعة شباب، اجتمعوا على غير قرابة ولا نسب، فيقيمون الدين : من مات منهم أو من جيرانهم جهزوه أحسن جهاز، وصبروا حتى إذا مات آخر جهزوه، ولا فرار، بل صابرون محتسبون، مذعنون لأمر الله)[1].

باعتمادنا على بعض القرائن والمؤشرات، يمكن لنا أن نضع الإطار الزمني للرسالة ولو على سبيل التقريب :

١– فالرسالة تتحدث عن الموت الجماعي بالوباء والطاعون

٢– وهي تشير صراحة إلى المكان الذي حل فيه الموت : (والزاوية الخلفونية، لم تزل عامرة بحمد الله، يطعم فيها الطعام، وتؤذن في مسجدها، وتقام الصلاة وفيها كان هذا الموت : فادع الله بالدفع[2]).

٣– والرسالة – أيضا – تشير إلى أن الشيخ (لم يصل إلينا) كما يقول اليوسي. ولعله الشيخ محمد ابن ناصر، وقد توفي سنة خمس وثمانين وألف.

---

[1] نزهة الناظر ١، ٧٠، ص ١٣٨.

[2] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والسؤال متى خرج اليوسي من فاس متوجها إلى محل إقامته بـ "خلفون" ومتى كان هذا الطاعون ضاربا إطنابه في هذه المنطقة ؟ إن المؤرخين والقادري منهم، لم يتحدث عن الطاعون، إلا في عام ١٠٨٣، وعام ١٠٨٨ وعام ١٠٩٦... إلخ . لقد خرج اليوسي من فاس أثناء الحصار المضروب عليها عام ١٠٨٣[١]. وبعد أن نقض أهل فاس البيعة بالخلاف، كما في جواب الكتاب ثم توجه إلى المنطقة المشار إليها في الرسالة.

وبما أن وفاة الشيخ ابن ناصر، تزامنت وعام ١٠٨٥، فإن اليوسي، في آخر هذه السنة أمر بالرحيل من خلفون، كما تدل على ذلك أبيات التستاوتي الشهيرة[٢].

وعلى أية حال فالرسالة لها ارتباط بفترة قلقة من حياة الرجلين معا، وخاصة اليوسي الذي تعقبته المتابعات السلطانية. وإذا ما أوصلنا إلى الرسالة الحادية عشرة، والتي هي جواب من اليوسي على كتاب وارد من التستاوتي عام ١٠٨٨ يستفسره فيه عن معاني وردت في بيت من الشعر البربري، فإننا سنعرف جانبا آخر من حياة الرجل، (ورد علينا الكتاب، والخيل قد دخلت البلد، فصادف موضعه، وطابق مضربه، غير أني عندما سمعته فزعت وتحيرت، فتارة أقول، هو خطاب وارد على أهل المنزل لأنهم كانوا يرعون في ودائع الناس، من زرع وسمن وغير ذلك، وتارة أقول، هو وارد علي، لأني كنت أرعى في الفتوحات والأرزاق الواردة من أيدي الناس، وذلك مزاحمة للجنابة السلطانية، فلا بد من منافسة أرباب الدولة بحكم العادة، إلا من رزقهم الله بفضله... [٣]). ويستطرد اليوسي، بعد هذا الاعتراف بمزاحمة أهل السلطان، إلى سرد حكايتين، تاريخهما يعود على عهد السلطان محمد الشريف، أيام كان اليوسي في الزاوية البكرية (فكانت زوجتي أم الأولاد تحدثني، وأنا بالزاوية البكرية، عن بعض النساء الفلاليات، إنهن جعلن يهازلن صبيا لهن، وذلك في مدة السلطان محمد الشريف، فقلن له : " يا فلان تكبر وتصير شيخا، أي من أشياخ القبائل، فقال منكرا "عليهن" أيه، أكون شيخا فيقتلني مولاي محمد " ويعلق اليوسي على هذه الحكاية،

---

[١] انظر جواب الكتاب في (رسائل اليوسي) (١٧١/١ (فخرجت بإذن من سيدنا ونزلت بالشعب الذي كنت فيه، وتبنيت دويرات بغير مؤونة واتسعت وجعلت لنفسي موضعا وبابا... وبنيت بيتا ملتصقا بالمسجد...)

[٢] النزهة ٢، و ٣٥ من قسم الأشعار.

[٣] من نفس الرسالة، من النزهة ١، و ٧٩، ص ١٥٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهو يخاطب التستاوتي " فانظر إلى الصبي الأول، رأى أن الرئاسة، وهي أعظم أنواع البلاء الدنيوية مجبلة للحتف، وهو أعظم الهلاك، وذلك لما طرق سمعه أن فلانا من الأشياخ قتله السلطان، فاستقر ذلك في ميزه، وعلم أن الخمول أجدر بالسلامة)[1].

وأما الحكاية الثانية، فيحكيها عن بنت له صغيرة. والغاية من الحكايتين هو ما تفيده المعاني في البيت البربري المستفسر عنه. ويستخلص اليوسي من ذلك كله هو ؟ (أن متاع الدنيا لا يتركه القوي للضعيف، فلا حاجة لطلبه ولا فائدة في تمنيه)[2].

وقيمة هذه الرسالة، لا ينظر إليها إلا من هذه الزاوية، وهي الخطابات العادية، في أسلوبها وشكلها، ولكنها تضمنت بعض الحقائق ما كنا لنعثر عليها إلا في رسالة كهذه ذات البعد الشخصي المحض، والمخاطبات بين الرجلين – كما نعتقد – نابعة من صفاء الطوية المنشودة في كل صداقة وفي كل صديق. إذ لولا هذه المكانة بين الصديقين لما فهمنا دلالة هذه العبارة المازحة (وإن زاد أكلك وجماعك، فابشر، فإن الصوفية يأكلون وينكحون، والله يفتح عليك بامرأتين بارعتي الجمال، إحداهما لقالبك من بنات آدم، والأخرى لقلبك من بنات ماء الغيب، وادع الله لي أنا أيضا بذلك...)[3].

أياي إياكم وإياكم أنا فكأننا وكأنكم أمر[4]

إلا أن اليوسي، كشخصية متوازنة، اعتبر صديقه التستاوتي مغاليا في حبه. ولا شك أن الرسالة الثاني عشرة، تتضمن الجواب العقلاني عن هذا الحب (وأنت عندي، – يقول اليوسي– اليوم هو أنت بالأمس، وما كنت تدعي من محبتي حق، ولم يزل كذلك، وكنت تغالي في ذلك وأنا عارف أنه كذلك، وأن صدوره منك أما مبالغة ولا

---

[1] م.ن.

[2] وما بعده : م.ن، والإحالة.

[3] نزهة الناظر ١، و ٧٠، ص ١٣٨.

[4] نزهة الناظر ٢، و ٥٣. ص ١٠٢ (قسم الأشعار).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تخرج عن الصدق، وأما حال غالب والحال جنون، وقد رفع القلم عن المجنون، حتى يفيق، فأنت معذور...) [١].

ثم يلجأ اليوسي ليحلل الظاهرة، من منطق عقلاني تحليلي، فيقول (ولو تأمل الغالط حيث يقول لصاحبه "أنت أنا وأنت أنا" إنه لو رقد إلى جنب صاحبه فلدغت أحدهما حية، فهل يصيح ويتلون جلده، هل يتلون جلد أخيه أيضا، ويجد من الأوصاب ما يجده الملدوغ لأنه يحبه ؟ هيهات ذلك، وإنما يجد ألما في قلبه على قدر حبه، ويقول "لا حول ولا قوة إلا بالله...)[٢].

والرسالة، كاملة يتفلسف فيها اليوسي في موضوع الصداقة والحب، فتارة يكون عقلانيا، كما سلف، وتارة يكون صوفيا حلوليا لغلبة الثقافة الصوفية عليه. وهذا لا يمنع اليوسي من التذمر مما أصاب التصوف في عصره، حيث كثرت المشيخة والمزارات (التي هي مجامع الأوباش) حسب تعبيره في هذه الرسالة (وقولك، فإذا فرغت من شغل الزرع خرجت للزيارة) ولعمري لو حصل هذا لأغنى عن السفر، ولأوجب صيحة حول الزرع تكون وشيكة بالاستجابة. فالله حاضر ناظر، وقد يكون محل الإنسان أقرب الفراغ من المزارات التي هي مجامع الأوباش والرقباء، والشأن هو الاضطرار أين ما كانت وتعالت الواردات الإلاهية أن تأتي إلا بغتة، لئلا يدعيها العباد بوجوب الاستعداد[٣].

وفي الختام :

هذه أفكار عامة عن رسائل اليوسي ولم نختر منها إلا ما يجلل على قيمتها المرجعية، في كتاب نزهة الناظر. ولم يخطر بالبال أننا قد استوفيناها بالدراسة والتحليل، حيث أننا نؤمن بأن اليوسي كظاهرة ثقافية في عصره، لا يمكن اقتحام شخصيته من جانب واحد، تجزأ هنا أو هناك، في رسائل أو قصائد.

---

[١] من الرسالة الثانية عشرة، في النزهة ١، و ٨٥، ص ١٦٧-١٥٨. وقد وردت الرسالة في كناشة الحافي الخطية بقلمه، ورقة ٥ (وهي في ملك محمد الوافي العراقي الحسيني).

[٢] م.ن.

[٣] م.ن. ص ١٦٧-١٦٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وما قمنا به في هذا التعريف، لا يخرج عن الإضافة المكملة لرسائل اليوسي الكاملة. ولن يتأتى هذا إلا بالبحث عن رسائل أخرى محجوبة في مظان المخطوطات المغربية، كمراسلاته مع العياشي، والشيخ محمد بن ناصر الدرعي وغيرهما. والإشارة إليهما واردة وموجودة[1].

الفصل الثالث : مقاربة فنية

أولا : دراسة الرسائل من منظورين اثنين :

١- المنظور الوصفي

٢- المنظور البياني

أ- هيكلة الرسالة

* الابتداءات والخواتم عبر مستويات الخطاب ومراعاة المقام.

---

[1] انظر "الثغر الباسم من جملة كلام أبي سالم" مخطوط : ع، رقم (٣٠٤/ك)، ص ١٧٩. وانظر طلعة المشتري ١، ص ٢٦١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

* التوظيف الشعري في البدء وفي الختام

ثانيا : ب– ظواهر فنية

* خاصية السجع في أدبنا العربي
* مكانة السجع في النثر المغربي على عهد التستاوتي
* أسلوب التستاوتي ومستويات السجعة فيه
* الرمزية الصوفية في رسائل التستاوتي
* الربط النفسي بين الذات وبين المنزع البلاغي
* من خلال خاصية الطباق والمنافرة، والتضاد.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ما هو الاتجاه العام الغالب على رسائل التستاوتي، كتابة وأسلوبا ؟ هل كانت رسائل هذا الأديب الصوفي، ممثلة لظاهرة النثر المغربي في هذا العصر ؟

والجواب على السؤالين لا ينفصلان عن حقيقة الأدب المغربي التي تشكلت من فترة ما بعد المنصور السعدي إلى العهد الإسماعيلي، مرورا بزمن الرشيد وأعوام التأسيس والتوطيد. وإن شيئا من هذا، قد فصل تفصيلا، من خلال الرسائل التي جعلناها انعكاسا لصراع الرماح والأقلام، كرصد بياني لحالة النثر التي سادت، وامتدت على هدى من الأساليب السعدية الباقية.

ومما لا شك فيه أن جيل الفتن المنيرة[1] استطاع أن يساير الحركة الأدبية التي استمدت روافدها من ماضي التراث القريب ومن حاضر العصر الساخن بالأحداث.

وإن أبرز من يمثل الفترة الأولى، هذه، الصديقان الحميمان، اليوسي وأحمد بن عبد القادر التستاوتي. كما أن أدبهما – رغم اختلافهما وتفاوت مستواهما – هو انعكاس لما تبقى من أصول المدرسة الدلائية، وإن كان التستاوتي، لا تتضح هويته الأدبية بالقياس إلى أستاذه أبي علي اليوسي. ومما يميز التستاوتي – عن غيره – هو أنه عاش حقبة من الزمن، هي الجامعة بين العهدين، فما بين وفاته وميلاده، من الثمانين حولا (حوالي ١٠٤٥ إلى ١١٢٧)، لكفيل باستجماع الخصائص والمكونات الثقافية والأدبية التي صنعت الإطار العام للعصر العلوي، تأسيسا على يد الرشيد، وتوطيدا على يد إسماعيل. وبالرجوع إلى الرصد الكرونولوجي لآثار التستاوتي تمسك بالمحاولة الأدبية الأولى التي تزامنت وعام ١٠٦٥ إلى أن استكملت دورتها عام ١١٢٧. أي أن العمر الأدبي للرجل تجاوز الستين عاما.

فإلى أي حد استفاد التستاوتي – في تجربته الطويلة – من القضايا الأدبية والثقافية للعصرين المتماسين ؟

وهو يحبر من الرسائل ما تجاوز المائة بالعشرات ؟

---

[1] انظر الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ٣، ص ص : ٧٤٠، ٧٧٤–٧٧٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإذا ما استعملنا الميزان البياني لنقيس به أسلوب رسائل العصر كحكم عام، فإن الخصائص العامة، لا تخرج عن هذا التقسيم.

١- رسائل أسلوبية، تحمل البذور الباقية من المدرسة السعدية، ونتلمس هذا الاتجاه في المراسلات الإخوانية والسياسية الرسمية، وفي الصنف الأول كان العياشي – كما رأينا – واحدا ممن يمثلون الترسل الإخواني، أما في الصنف الثاني فإن رسائل اليوسي إلى السلطان إسماعيل، كانت تحتدي حذو كتاب الدواوين، مراعاة لمقام الخطاب.

٢- رسائل تعليمية وتشمل ما ارتبط بالجدل العلمي أو الصوفي، أو ما هو خال من الجدل بمعناه الخاص، وكان يهدف إلى التوجيه والتربية كما في أغلب رسائل اليوسي.

وأنه من نافلة القول، التأكيد على الطابع الفني الذي كان يميز القسم الأول، من التزام بالسجع، وانتقاء للألفاظ، ومراعاة لسياق التقسيم والمزاوجة، وغير ذلك من الخصائص الفنية.

ويختلف الأمر – بطبيعة الحال – في القسم الثاني، اللهم إلا إذا تبلورت بعض الخصائص الفنية بقوة العفوية الغالبة.

ومن خلال هذا التقسيم أين يقف التستاوتي، وأين تتموضع رسائله ؟ والحالة أنه عاصر الجيل الأول، جيل اليوسي والعياشي، وجيل التلاميذ كابن زاكور وغيره. والتموضع الذي نريده تلمسا ومعاينة، لا يبين إلا من خلال إدراكنا مكونات الشخصية الثقافية لأدباء هذه الفترة الأولى من العهد العلوي. وهي مكونات تستقي من الروافد الفقهية والصوفية والادبية وغيرها. بحيث لم تستطع هذه الشخصية الانزياح إلى المنطقة الأدبية المحضة إلا بعد الجيل الذي صاحب الأنيس المطرب ورجاله. وكان مؤلف الأنيس من هذا الجيل الجديد.

وهكذا، فإن الهوية الأدبية، لكل من اليوسي، وأبي زيد عبد الرحمن الفاسي، وأحمد بن عبد القادر التستاوتي، وحتى ابن زاكور نفسه، قد خالطتها أخلاط من الفقه والدين، وأمشاج من المعارف العلمية والصوفية. فجاء أدبهم – شعرا ونثرا – يحمل من سمات أدب الفقهاء وأدب العلماء والحكماء.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولقد حاولت جهدي أن أرصد المصادر الأدبية التي تختفي وراء شخصية التستاوتي، والتي كان يرجع إليها، فلم أعثر على طائل يذكر وذلك من خلال قراءاتي المتعددة لكتاب نزهة الناظر، فأغلب المصادر التي يأتي ذكرها عرضا، في هذه الرسالة أو تلك، لا تخرج عن دائرة التصوف والفقه والحديث ما عدا إشارات شحيحة تفيد بان أحمد بن ناصر الدرعي طلب منه أن يستنسخ له (قصائد الحلبي[١] (وقد كنت كتبت لك أن تستنسخ لنا قصائد الحلبي. ولا أدري أبلغك أم لا ؟) [٢].

وقد تأتي في بعض رسائله إشارات في علم البلاغة والعروض، كالتصويبات التي كان يبعث بها إلى أخويه العياشي ومحمد الحاج[٣]، أو تلك التي كان يصحح بها عبارات أو أبياتا وردت إليه من ولده إبراهيم[٤].

وكل هذه وتلك، لا تغني فتيلا ولا تجدي نفعا، قصد الحصول على الروافد الأدبية التي تصب في نهر شخصيته الثقافية. وهذا لا ينعني أنه منبت الجذور، ولا يملك امتدادا في التراث. أو أنه مفصول عن تيارات العصر. ويكفي أن نعلم أن شخصية اليوسي، بعلمها وأدبها هي من الروافد الكبرى في هذا المحيط. ويبقى بعد هذا، ما كان يقرؤه من مصادر صوفية حفلت بشتى فنون القول الأدبي. ومن هذا البحر العميق كان يعترف الرجل. فجاءت رسائله وأشعاره لها مسحة تشع باللون الصوفي، عبر التمثل والتأثر الواضحين.

وأنه من الصعوبة بمكان – ونحن ندرس هذه الشخصية أو تلك – أن تظل المكونات الأساسية في حكم الغياب. أن تظل الروافد الأدبية والثقافية في ميزان الظن والتخمين. علما منا بأن التستاوتي كغيره، قد شارك في النثر بنصيب، وبالشعر بأوفى

---

[١] هو أحمد بن عبد الحي الحلبي السالف الذكر، انظر مؤلفاته في هذا الباب في الالتقاط : ص ٣٠٢، وانظر البحث الذي نشره الأستاذ محمد المنوني عن الأمداح النبوية، مجلة الثقافة المغربية (العدد الرابع).

[٢] نزهة الناظر ١، و ٦٧. ص ١٣١.

[٣] انظر رسالته في النزهة ١، و ٨٦، ص ١٧٠.

[٤] انظر مراجعته لرسالة ولده إبراهيم، النزهة ١، و٥٦، ص ١١٠، و ٦١ ص ١١٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نصيب، وفي أدب الملحون بالبركة والخير ؟ فهل تكون الموهبة وحدها هي الرصيد الذاتي والموضوعي في آن واحد ؟ [١].

وهذا مجال في حق الأدب والتاريخ أم أن الرجل أخذ من العلم – في عصره – بنصيب يسير، فانطلق عصاميا يقرأ ثم يكتب[٢].

هذه تساؤلات ما زالت تصاحبني، وقد طوفت مع النزهة وصاحبها ما يقرب من أعوام يوسف السجين.

ونعود الآن إلى الحديث عن الجانب الفني في رسائل التستاوتي بعد أن وضحت المعالم المحيطة بأثره وأثر جيله.

وسيتناول هذا المحور الثالث رسائل التستاوتي من منظورين اثنين :

١– منظور وصفي

٢– منظور معياري نقدي

وفي المنظور الأول ستتبين الصورة الخارجية لبعض الرسائل، بدءا وانتهاءا قولا وقصرا، كما أننا سنعرض في هذا الجزء لرسائل مستفتحة بأبيات من الشعر أو قصيدة من القصائد الطوال، وأخرى يكون الشعر فيها هو البدء وهو الختام. وفي أخرى، تكون الرسالة عبارة عن أبيات هي الخطاب الجامع والمانع.

أما في المنظور الثاني، فإننا سنختار فقرا من رسائل إنشائية، يتسلسل فيها الخطاب وفق ألوان بلاغية وفنية. وفي هذا الإطار سنركز على ظواهر فنية تطرد في خطابات التستاوتي، كالسجيع، والازدواج، والطباق والجناس، والوجازة والتضمين، والاقتباس، وأنواع أخرى.

---

[١] تحدثنا في الطور الأول من حياة التستاوتي عن النشأة والتكوين، وعن الأساتذة والشيوخ الذين أخذ عنهم.

[٢] انظر كتاب "دفاع عن البلاغة" في المقالة المنعوتة بـ (البلاغة بين الطبع والصنعة أحمد حسن الزيات)، ص ١١ (مطبعة الرسالة)، ١٩٤٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومن هذا المنظور المعياري، سنتحدث عن ظاهرة الإيحاء والغموض التي تمثلها بعض الرسائل القصيرة ذات المشرب الصوفي، وهي من هذه الزاوية أقرب إلى الاتجاه الرمزي.

المنظور الوصفي :

١- لا بد من الإشارة والتذكير – هنا – إلى ما بدأنا به هذا المبحث العام عن أدب المراسلات، كمدخل إلى رسائل التستاوتي ورسائل معاصريه. وهو أننا قد ارتكزنا على بعض القواعد الأسلوبية التي كانت سائدة، فنظر لها المنظورون ونقاد البلاغة، وفي هذا الباب، فإن موسوعة القلقشندي الموسومة "بصبح الأعشى" تعد العمل الوافي في صناعة الترسل. نظرا لاستيفائه واستيعابه تقعيدا وتمثيلا.

وإذا نظرنا إلى رسائل التستاوتي في ضوء "صبح الأعشى" من زاوية المنظور الوصفي، فإننا سنحصل على معطيات سننية، احتداها التستاوتي، وهو يحبر الرسائل الطول والقصار. عن علم بالقواعد أحيانا، وعن تقليد النماذج في الترسل تارة أخرى.

وبما أن الرجل، متصوف على طريقة القوم، ولله إلمام بعلم الظاهر غير يسير، فإن الواجب عليه أن يكون في ترسله لا يحيد عما سنه السلف الصالح في كتابه الرسائل. وإذا كان هيكل الرسالة منذ العهود الأولى احتفظ بالاستفتاح والتحميد والتصلية وبالسلام، فإن هذا النموذج يطرد – على الغالب في الصورة العامة التي تستوي عليها رسائل التستاوتي. ولقد اثبت صاحب التراتيب الإدارية[١] النموذج الأول المستفتح به رسالة الرسول عليه السلام بالبسملة واسم المرسل الرسول :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم...) إلخ الرسالة الشريفة. ويقول الكلاعي في معرض الحديث عن مكاتبات الرسول – عليه السلام – وهيكلها وصورتها (ونظرت أعزك الله الاستفتاح أيضا، فوجدته يختلف باختلاف الأزمان، فكانوا يكتبون في الجاهلية "باسمك اللهم" وروى عن زكريا عن عامر قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم يكتب عنه كما تكتب

[١] التراتيب الإدارية ونظام الحكومة النبوية (الشيخ عبد الحي الكتاني) ج ١، ص ١٤٢ (طبعة بيروت).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قريش "بسم الله" حتى نزلت (قل ادعو الله أو ادعو الرحمن)، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت (أنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم)[١].

وعن التصلية على النبي، يقول الكلاعي، متحدثا عن طريقة كتاب عصره (وأما في عصرنا هذا فلا ينفك كتاب – والحمد لله– عن صلاة عن النبي(ρ)، ثم رأيتهم يختلفون في كيفية ذلك، فبعضهم يكتب "وصلى الله على محمد الكريم، وهذا لفظ معادل للبسملة في الوزن والسجع وبعضهم يؤثر لفظ القرآن، وما أمر الله سبحانه من السلام عليه، فيقول، وصلى الله على محمد وسلم تسليما، وبعضهم يراعي ذلك ويتحرى السجع، فيقول، بسم الله الرحمن الرحيم و بالصلاة على رسوله والتسليم...)[٢].

ولا شك أن أوجه التصلية والتحميد، الواردة في كلام الكلاعي، إنما تمليها على الكتاب – كما قال – عوامل التلاؤم والتوازن بين الألفاظ مراعاة للأسلوب المرتضى براعة واستهلالا. وبين التحميد والتصلية يأتي فصل الخطاب الذي هو (أما بعد) ليأتي لفظ التسليم بعد (سلام عليك، إني أحمد الله إليك)، ثم تفنن الناس – يقول الكلاعي – بعد، وكثر التعمق، حتى كتبوا ما شابه قول أبي العلاء : (اسلم على الحضرة العالية تسليم العاجز المقصر)[٣].

ومن شاء أن يتعرف على فصول في السلام وأوجه عباراتها فإن الكلاعي أورد نماذج منها[٤].

أتينا، بهذه التوطئة، وقد بدأنا بها المبحث في البداية، لنتعرف على الطريقة التي كان ينتهجها التستاوتي في الاستفتاح ببسملة، وتصلية، وتحميدا وسلاما بعد فصل الخطاب. ولقد استقريت ابتداءات رسائله، فوجدتها لا تخرج عن طريقة السلف الصالح في المكاتبات.

---

[١] أحكام صنعة الكلام، ص ٥٥.
[٢] م.ن، ص ٥٦/٥٧.
[٣] م.ن، ص ٥٩.
[٤] م.ن، ص ٧٩ وما بعدها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من المرسل	إلى المرسل إليه	التحميد والتصلية والبسملة	التسليم	التوقيع
من أحمد بن عبد القادر	حسب مقام المخاطب	بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله من أحمد بن عبد القادر	سلام عليكم ورحمة الله وبركاته	بحسب مقام المخاطب (وكتب مملوككم وكتب مجلكم)
من عبيد ربه تعالى	قدوتي، ورحمتي قدوتنا ويدنا قرة العين سراك الملة وشيخ الحلة	الحمد لله وصلى الله وسلم على مولانا محمد...	سلام عليكم تتوالى نعماته	وكتب محبك وذاكرك
من عبد الله إلى عبد الله	إلى فلان بن فلان إلى بعض الإخوان على الحسن اسما ومسمى إلى بعض فضلاء الوقت إلى الإخوان والأهل إلى الأولاد ومن سواهم من أهل الوداد إلى أصلي وفصلي وملكي وأهلي إلى فصيلتي وذوي أصلتي.		سلام يفوق البدر في الجو بهجة... ليت شعري سلام عليكم ما تألق بارق (بيت شعري).	والسلام... السلام والدعاء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ومن التصنيف تتضح المستويات التي كان يجري عليها الخطاب في رسائل التستاوتي بدءا وانتهاء وكان الرجل يدرك أن الخطاب في المراسلات إنما يكون بحسب المقام :

أ- ففي رسائله إلى من هو أعلى منه، كالشيخ محمد بن ناصر، نلاحظ عبارات التأدب والتذلل (إلى قدوتي ورحمتي أو ما في مجراه).

ب- وعندما يخاطب اليوسي وله الفضل عليه، يسترسل الخطاب في إطلاق التحليات والنعوت (إلى سراج الملة وشيخ الخلة).

ج- أما في المخاطبات التي قد يتساوى فيها المرسل إليه فإن عبارات الأخوة وألفاظ الصداقة تنوب عن غيرها.

وهناك نوع آخر يختفي فيه الإسم الحقيقي للمخاطب، وتنوب عنه عبارات فلان، وأبي فلان، وأغلب هذه الرسائل يدور في تلك المنازعات الدينية والصوفية. ولا شك أن التستاوتي كان يقصد هذا الاستعمال، لحاجة في نفس يعقوب. وإن اطراده في الموضوعات النزاعية لا يمكن أن يحمل إلا على هذا المحمل، فقد نحسن الظن بالمرسل، فنلتمس له من العذر ما يجعلنا نقول بأن اللياقة استوجبت إخفاء الهوية حتى لا نعلم الطرف الثاني في النزاع اتباعا لقول الرسول عليه السلام في مثل الحالة وما يشبهها "ما بال أقوام ....". وقد نضع الخطاب في مستواه الفني، فنقول بأن عدم الكشف عن المرسل إليهم هو استنزال من قدرهم. ويؤيد هذا ما كان يقع في المخاطبات بين المسلمين وغيرهم. وفي هذا، يذكر الكلاعي أن الواجب (ألا يجروا مجرى المسلمين في المكاتبات، ولا يسلك بهم مسلكهم ثم يركب على هذا الترتيب، ما شاكل من الألفاظ وصاغ من المعاني، وكذلك يجب الاستفتاح في مخاطبتهم كتاب إلا بفصل الخطاب...)[1].

ولعل من الأسباب التي كانت تدعو التستاوتي إلى إخفاء هوية المرسل إليهم، في باب الجدل والمنازعات، هو صدورها منه، في ظروف حرجة، خاصة منها التي كان يرسلها من سجنه بفاس.

---

[1] أحكام صنعة الكلام، ص ٨٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هـ- بقي نوع آخر من المراسلات، كان يتنزل فيها المرسل بمثابة الأب والأخ الناصح، والشيخ المربي، وكان يستفتح ويبتدئ من موقع متباين لما سلف.

تلك هي الملاحظات التي استجمعتها وأنا اتقصى مكاتبات الرجل، بدءا وانتهاء. ولم تخل رسالة واحدة من عشرات رسائله من التحميد والتصلية والسلام. رغم التباين الحاصل، تقديما وتأخيرا.

٢- ننتقل بعد هذا إلى النقطة الثانية التي لها ارتباط بصورة الرسالة وهيأتها الشكلية. ذلك أني أحصيت ما يقرب من اثنتي عشرة رسالة مفتحة بابيات من الشعر قليلة، أو بقصيدة مطولة. بالإضافة إلى رسائل أخرى يكون الشعر فيها هو البدء وهو الختام. وهناك بضع رسائل شعرية خالية من الاسترسال النثري.

وإذا كان توظيف الشعر في أغراض الرسائل وموضوعاتها، هو مما سنه المتمرسون وكتاب الدواوين[١]، فإن عصر التستاوتي قد حفل بالمراجعات الشعرية منها والنثرية. وكان اليوسي ممن يترسلون ويتراسلون مع التستاوتي على هذا المنوال.

وبين يدينا رسالتان من رسائل اليوسي، من كتاب نزهة الناظر، الرسالة التاسعة والعاشرة، استفتحهما اليوسي بأبيات من شعره، فالأولى استهلها بمجزوءة ميمية، والثانية افتتحها بقصيدة لامية مثبتة في ديوانه الحجري[٢]. وحتى لا يبقى الكلام دائرا في مجال التنظير، فإننا ملزمون بعرض نصوص تدليلية على هذا الاتجاه.

فمن حسن ابتداءاته الشعرية هذا التسليم، وقد دلف منه إلى الموضوع مراعاة لبراعة الاستهلال. والخطاب في الرسالة مرفوع إلى الشيخ محمد بن ناصر الدرعي :

سلام يفوق البدر في الجو بهجة ... ويزري بزهر الروض في الحسن
يعمك ما انفكيت بالعفو آخذا ... والعـــــــــــــــــــــــــرف
وتنهي عن الفحشا وتأمر بالعرف

---

[١] انظر كتاب الكلاعي، ص ١٤٤.

[٢] رسالتا اليوسي، في النزهة ١، و ٧٠-٧١، ص ١٣٨، وعن قصيدته اللامية، انظر الديوان مخطوط خع رقم ٣٢، ج ، ص ١١٢، وفي النسخة المطبوعة ص ١٠٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تتوالى عليكم نفحاته ورحمة الله وبركاته، وبعد، فالعبد يطمع من كمالك نيل نوالك، وأن منعه الدنب من القرب أو خلفته الأوزار فإن الظن جميل بسيدي إلا يؤاخذني بما كسبت يدي، ألا هل من نفحة تنفحني بها أجد بركتها، ومن دعوى في الحين اجتني ثمرتها[1]...إلخ الرسالة. ويضاهي هذا المطلع الذي تساوق وموضوع الرسالة، مطلع آخر شعري، في رسالته إلى أحمد بن محمد بن ناصر ولد الشيخ المذكور، وبعد البسملة والتصلية، يوجه خطابه إلى "الأخ الشقيق والأولى من كل صديق ورفيق، البدر الزاهر سيدي أحمد بن محمد بن ناصر :

سلام عليكم ما تألق بارقٌ فاذكرني إشراقه ثغر عِزّةِ
وما طارت الأرواحُ شوقا إليكمُ وما انهل من ذكراكمُ مُزْنُ عبدةِ

ولا غرو أن غُيّبت صورتكم عن العين، بسحاب البين :

قد سكنتم من الفؤد سويداه ومن مقلتي سواد السواد[2]

هذا عن التسليم الشعري، الذي يراعي فيه مقتضى الحال والموضوع، أما في بعض المراسلات، فإن الابتداءات الشعرية قد لا يأخذ بتلابيب قوافيها الوصل الموضوعي للرسالة، بل إنها تستوي وحدها، كمتنفس يستروح به المرسل والمرسل إليه، كما نجد في هذه الأبيات الجميلة، المبدوءة بها رسالته إلى اليوسي، في الخامس من ربيع الثاني، سنة إحدى وتسعين وألف، كتبت ما نصه :

رب ليل بت فيه ساهرا أرعى النجوما
قلقا من حب ظبي أثقل الأحشا كلوما
يخطف الأبصار حسنا ونبهه يجلو الهموما
ثم معنى، لو رآ، ، عادلي، ما زاد لوما

أدام الله بقاء الشيخ الإمام، أبي علي السيد الحسن اليوسي، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فإن الروق مضمون، وهو مخفي في الأسباب لحكمة ربانية، والسبب لا ينافيه، والتقاعس فيه مذموم[3] إلخ الرسالة. ولا بد أن نتساءل عن

---

[1] النزهة ١، و ١٨، ص ٣٤.

[2] النزهة ١، و ٢١، ص ٤٠، والبيت المفرد ما بعد بيتي التحية هو لابن الفارض

[3] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العلاقة الرابطة بين الابتداء الشعري وحبل الخطاب الضارب في أعماق القدرة والتوكل.

ومن رسائله العتابية الجوابية، ما راسل به الشيخ سعيد بن أبي القاسم العميري معاتبا وملاطفا :

(الحمد لله وحده، وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه :

أرابك شيء أم بدا لك ما بدا ... فمالي إذا أرسلتكم لا تجيب
أمن بعدما أصبحت في القلب ثاويا ... يكون انتقال ؟ إن ذا لعجيب
وإني إذا هب النسيم من اللوى ... أحن وأحنو والفؤاد كئيب
وفي كبدي مما به الوقت حاكم ... جوى للحشا – لولا البكاء– مذيب

العلامة العلم، مالك القلم، الشيخ سعيد بن أبي القاسم العميري، لا زالت عوارفه دائمة الانسجام،.... سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فلا بعد بعد بعد، ولا قبل قبل قبل[1]....

ومن طريف ابتداءاته ما يجري على منوال المطارحات العلمية حول قضية معرفية تستوجب الحل والجواب. وقد كان بين التستاوتي والفقيه أبي مروان عبد المالك التجموعتي مطارحات من هذا النوع. (ولنا في بعض المخاطبات للشيخ أبي مروان السيد عبد الملك بن محمد التجموعتي[2] ما نصه : الحمد لله، صلى الله وسلم على مولانا محمد وآله :

بمثل أبي مروان تجلى الغياهب ... وبالعلم منه تستبين المذاهب
أردنا امتنانا عن سؤال جوابكم ... فلا زلتم غوثا لمن هو طالب
وذلك أنا قد سمعنا بمُعْرِبٍ ... أتانا بما لا ترتضيه الأعارب
فمن جملة الموصول أحدث مسندًا ... لما قبلها بالوهم. والله غالب
وذاك لدى تبيين قول ابن مالك ... كمن عندي التمثيل، والكل سالب
اعن جملة الموصول مثل الذي ... محلا، فلا تغفل فذهنك ثاقب
بها ... فمن بعضكم – قدما – تنال الرغائب

---

[1] النزهة ١، و ٦١، ص ١٢٠.

[2] النزهة ١، و ٥٧، ص ١١١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فإن كان ما قد قال حقا فبينوا وحقك شيء تزدريه المناصب[١]
وإلا، فدع ما في النفوس فقد أتى

والذي نعتقده أن الموصول إما أن يكون ألفا ولاما أو غيرهما[٢]...)

ولم أحاول اختزال الأبيات، فأوردتها كاملة، ووافية بعناصر القضية النحوية المطروحة للمطارحة والنقاش، ونظير هذا النوع من الرسائل التعليمية كان سائدا في عصر اليوسي والتستاوتي. وإن في رسائل الأول من هذا الصنف، ما يكمل الظاهرة في هذا العصر. فاليوسي له رسالة جوابية عن أعراب "لو"[٣] وأخرى عن مسالة نحوية سئل فيها عن "إضافة الاسم إلى مرادفه"[٤].

وليس الغرض الآن هو استجماع عناصر الظاهرة هذه بقدر ما يهمنا منها الإطار الهيكلي – في الرسائل – الذي احتواها.

أما النوع الثاني من المراسلات فقد اراده التستاوتي أن يكون موشحا ومحاطا، بداية ونهاية بالشعر والقريض، والذي – غالبا– ما يكون من ابتداعاته، لا من إنشاداته. ثم عن الخطابات في الرسائل المسيحية بالقوافي، وجدناه في مراسلاته مع ولديه، إبراهيم ومحمد الشريف. ولعل الغاية الأدبية إنما كان مبعثها التوجيه التثقيفي للولدين، تدريبا لهما على قول القريض، ويتجلى هذا أكثر مع الولد إبراهيم. وبين الوالد والولد – كما أسلفنا القول – مطارحات ومراجعات، تارة تنهل من شراب العاشقين، وأحيانا تغترف من منهل الواردين والسالكين. ففي جواب له على رسالة شعرية من هذا الولد، وكانت على روي التاء المشبعة المكسورة، نقرأ ما يلي (ثم إني لاطفته، فراجعته ودانيته فساعدته وسليته، ثم شمرت عن ساعد جدي، فناديت :

إذ ما بدا من جانب الغور طالع من الحب أو هب النسيم بنفحة
أو الكأس ريئت من يد الساق لم إلى الستر سبلا وافتضحنا بنشوة
نجـــــــــــــــــــد وفي الشرب سكر، ثم محو بغيبة

---

[١] نزهة الناظر ١، و ٥٧، ص ١١١.
[٢] النزهة، ١ ورقة ٥٧، ص ١١.
[٣] انظر رسائل اليوسي ٢، ص ٦٢٣ و ٦٢٧.
[٤] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهذا قبيل الشرب يحمد أمره،

إلخ... الأبيات التي ناهزت العشرة والفرق الشعري بين البداية والنهاية هو ما يفصل الخطاب الوجداني عن الخطاب الوعظي ففي الأول كان الوالد واصفا حالة السكر، وغيبوبة المحو، متحدثا عن الشهداء الذين سقطوا في ساحة الحب والعشق، أما في الثاني فقد أراد التستاوتي، أن ينبه ولده إلى ما هو أهل له، وإن الغاية هو إدراك العاقبة والحذر من الأيام :

إذا المرء لم ينظر عواقب أمره فقد فاته عقل وحزم وتدبير

إلخ ... الأبيات السبعة[1].

وعلى النقيض من هذه الرسالة، ما كتبه إلى ولده محمد الشريف حيث افتتحها بأبيات يغلب عليها خطاب الوعظ والتوجيه والعتاب والتحذير، كما في البيت الأول والبيت الأخير.

١- يسرك مني العتب إن كنت بأن مرادي بالعتاب صلاح
عالما تنل كأس راح ما يدانيه راح[2]

٧- تهن وكن للخير أكثر جامع

وعلى ولدنا الأبر الأصفى، الأوفى ومحمد الشريف...) وفي الختام، تحول الخطاب إلى شيء آخر تقصده المرسل ليذيب فيه لون العتاب الجاري في أبيات الاستفتاح (فاجعل جزائي منك على ذلك اشتغالك بما أريد منك، واترك ما تعلم مني أني أكرهه، وأنت وديعة الله :

يا منزلا ودعت فيك أحبتي دم، لا برحت محل نور باهر
ودعت فيك البدر لولا أنه أودعته القلب الحزين وناظري[3]

---

[1] نزهة الناظر ١، و ٥٤، ص ١٠٥-١٠٦.
[2] م.ن، ١، و ٦٣، ص ١٢٩.
[3] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أما عن الرسالة الشعرية، فلا تستوي في النزهة إلا في مواطن معدودة، وإلا ما تقف في الأبيات العشرة أو ما دونها. كما في رسالته إلى اليوسي، والتي هي عبارة عن خمسة أبيات همزية، منها هذا البيت :

أحن لشيء لا لشيء، وإنما رجائي لشيء، كان أطعمني الشيئا[١]

وإنه من عجيب الاتفاق، أن تكون أبيات التستاوتي الهمزية باعثا لليوسي على أبيات له أجاب بها السيد محمد الصالح بن المعطي الشرقي. (وقد كان أخونا – يقول اليوسي– أحمد بن عبد القادر أرسل إلي أبياتا بنحو ما في أبياتك، فأجبت بهذه الأبيات[٢] ونكتفي بهذا النموذج الشعري، الذي جعلناه ختاما لمنظور وصفي استحضرنا من خلاله الهيكل العام لرسائل التستاوتي.

والتستاوتي، لا محالة، كان على علم بما يكتب، وقد رأيناه يختار لرسائله المطالع المناسبة للموضوع والمتساوية مع خطابها، كما ينص على ذلك النقاد وعلماء البلاغة. فهذا العسكري ينقل عن بعض الكتاب قوله (أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات، فإنهن دلائل البيان ...) [٣]، أما شهاب الدين الحلبي فيتحدث عن الابتداءات وما تفرع عنها كبراعة الاستهلال المتوخاة في النظم، كما في الترسل، يقول، في كتاب) " حسن التوسل إلى صناعة الترسل "(وهو أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببينة أو قرينة تدل على أمره في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده، والكاتب اشد ضرورة إلى ذلك من غيره...) [٤].

وإن صاحبنا قد جعل من الشعر المساوق للخطاب، هو المطلع وبراعة الاستهلال، وليس أجمل ابتداء من براعة القريض، ولم يكتف بأن استفتح به رسائله بل جعل منه النهاية ومسك الختام. ما رأينا. وهذا دليل على أن الرجل قد صال وجال في هذا المجال. فجاءت رسائله موشحة وموشاة بنجوم القوافي وغرر الأشعار، منها

---

[١] النزهة ١، و ٢٩، ص ٥٦.

وانظر رسالة اليوسي، في الجواب عنها، في النزهةن ١، و ٢٩، ص ٥٦.

[٢] وانظر جوابه عن أبيات محمد الصالح بن المعطي الشرقي، في (رسائل اليوسي)، ٢، ص ٤٣٦.

[٣] كتاب الصناعتين وتحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم. ص ٤٥١.

[٤] حسن التوسل إلى صناعة الترسل، (تحقيق ودراسة : أكرم عثمان يوسف)، ص ٢٥٠.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ما هو له، ومنها ما لغيره وكأنه كان يضع بين عينية ما قاله الكلاعي، في كتابه الشهير عن "**أحكام صنعة الكلام**" (وسمينا هذا النوع من البيان المفصل، لأنه فصل فيه المنظوم عن المنثور، فجاء كالوشاح المفصل)[١].

ولقد كان يتحكم في، وأنا أعرض لهذه النماذج ميزان الاعتدال والاقتصاد وإلا فإن ما يزيد على خمس عشرة رسالة، استوت صورتها الخارجية على المنوال المذكور. كما أنني حاولت أن أشير على شخصيات المرسل إليهم ممن لم يشر إليها في حديثنا السابق، كالعميري، والتجموعتي.... تاركا مجموعة أخرى إلى مجال آخر، سيرسمه المنظور المعياري الآتي.

المنظور المعياري :

ونعني به، هنا، المنحى البياني التي كتبت به بعض الرسائل التستاوتية. وقد أفتن فينا منشؤها افتنانا أسلوبيا حالفه الفن أحينا، وخالفه تارة أخرى. وتوسط بين المنزلتين أحايين أخر.

وإذا ما غربلنا رسائله، أفرزنا منها ما تستوجبه الظاهرة البيانية، فإن الخاصية الأولى التي تطرد أسلوبيا، في رسائله، تحددها الفواصل الموسيقية التي تتلون بألوان السجع وأفانينه.

والسجع كمظهر من مظاهر الأسلوب العربي، إنما تنزل في كتب النقد والبلاغة منزل القافية في الشعر. بحيث لم يخل كتاب بلاغي، نقدي، من الحديث عنه والتنظير له[٢] .

وإنه من الصعب علينا، في هذه اللمحة الوجيزة، أن تعرض لخاصية السجع الحديث المفصل، ولهذا، فستكون الإشارات الدالة نائبة عن الاستيفاء الكافي. إذ الغاية هو وصل الظاهرة البلاغية بما آلت إليه في عصر التستاوتي.

---

[١] أحكام صنعة الكلام، ص ١٤٤.

[٢] انظر مقدمة كتاب " دلائل الإعجاز " ٦/١، بقلم الأستاذ محمد بن تاويت (المطبعة المهدية).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والحديث عن السجع، يستمد شاهده من العصر الجاهلي، حيث كانت الفقر – في نثر بعض الحكماء والرهبان، تستوي موزونة وكأنها كالقريض وما هي به[١]. وعندما جاء الإسلام، بقرآنه المعجز، حول أنظار العرب، من وادي عبقر حيث آله القريض، إلى مهبط الوحي حيث الكلم الإلهي، الذي أحكمت الآيات فيه ثم فصلت في قرآن عربي مبين.

والسورة المكية في القرآن، والتي تقصر ولا تطول، جاء حافلة أحيانا بألوان من السجع المنساب مع الطبع، وكاد أن يكون على شكل مجزوءات شعرية معقودة ومفصولة[٢]. وفي كلام الرسول – أيضا – عليه السلام، جوامع من الكلم، المنهورة ببلاغة نبوية وفق خصائص بيانية، يكون السجع فيها ألوانا كطوق الحمام[٣].

وقد كان النبي عليه السلام، ينفر طبعه البياني من السجع المقيت، الذي يقصده الكاتب لغير غاية البيان، بل هو الغاية في فصول الغايات. ويذهب البعض إلى أن سجع الكهان الجاهليين هو نابع من إحساس ديني يتجلى (في السمو الذي كان يحسه الكاهن في نفسه وفي مقامه، فقد كان كهان العرب، ككهان الإغريق يزعمون أنهم مهبط الإلهام وانجياء الأرباب فكانوا يسترحمونهم بالأناشيد، ويستلهمونهم بالأدعية، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في جمل مختارة الألفاظ، مسجوعة الفواصل، لتكون أسمى من كلام الناس وأجدر بصدورها عن الآلهة)[٤].

وإن التحليل والتعليل الذي فسر به الزيارات ظاهرة السجع الديني، يلتقي مع ما في الصناعتين للعسكري، في معرض حديثه عن السجع المذموم (ولهذا ما قال النبي (ρ)، لرجل قال له : أندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، فمثل ذلك يظل : أسجعا كسجع الكهان لأن التكلف في سجعهم فاش، ولو كرهه، عليه السلام،

---

[١] يذهب الدكتور زكي مبارك إلى أن أغلب النصوص المسجوعة والمنسوبة إلى العصر الجاهلي هي متحولة، انظر كتابه عن (النقر الفني في القرن الرابع ١، عن النثر الجاهلين ص ٣، ط. دار الكتب).

[٢] انظر على سبيل المثال، سورة المزمل، والعاديات، وسورة النجم.

[٣] انظر كتاب الرافعي "تاريخ آداب العرب"، ٢٩٦/٢، عن البلاغة النبوية.

[٤] دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، ص ١٠٧.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لكونه سجعا، لقال : اسجعا ؟ ثم سكت، وكيف يذمه ويكرهه، وإذا سلم من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه...)[١].

ولعل ما في ما أورده الجاحظ، على لسان عبد الصمد ابن الفضل الرقاشي، هو من أحسن التقاسيم الأسلوبية التي وصف بها السجع كظاهرة فنية، يقول الجاحظ، (قيل لعبد الصمد ابن الفضل الرقاشي : لم يؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي، لو كنت لا آمل فيه الأسماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغير، فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه أنشط، وهو أحن بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشره)[٢].

وجاء العصر العباسي، فأصبح السجع من خصائص الأسلوب الأدبي، وتربع على عرض النثر العربي في القرن الرابع الهجري، بل إن السجع صار ظاهرة العصر، كما يذهب إلى ذلك صاحب النثر الفني في القرن الرابع[٣]، فيقول (أن التزام السجع صار من خصائص النثر الفني في القرن الرابع، وأن كتابه لا يتحررون من السجع إلا إلى فن قريب منه، كالازدواج، ولم يخرج من كتاب العصر إلى الحرية في الصياغة الفنية إلا عدد قليل...) [٤].

وبعد هذا التقديم نتساءل عن ماهية السجع، كخاصية في الأسلوب الفني، وما موقف النقاد والبلاغيين العرب ؟ وما موقعها في بنية الأسلوب ؟ هل هي في المعنى أم تابعة للفظ ؟

---

[١] كتاب الصناعتين ، في ذكر السجع والازدواج، ص ٢٦٦-٢٦٧.

[٢] البيان والتبيين، ١، ٢٨٧، وقد حاولت أن أجد لمصطلح السجع مكانا في كتاب الأستاذ الشاهد البوشيخي عن المصطلحات النقدية والبلاغية في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، إلا أن المؤلف عدل عنه، وقد درس ما يقرب من أربعين مصطلحا. وبقي السجع مضمرا. انظر الكتاب دار الآفاق/بيروت.

[٣] النشر الفني، ١/١١٣.

[٤] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذه تساؤلات نابعة من داخل الظاهرة ذاتها، وجميعها لا تخرج عن دائرة الإيقاع الصوتي للجملة المسجوعة[١]. والتي تماثلت الحروف في مقاطعها وفصولها، كما في سر الفصاحة للخفاجي[٢]. أبان عن موقف واضح من خاصية السجع، يقول الخفاجي... (وكما أن الشعر يحسن بتساوي قوافيه، كذلك النثر يحن يتماثل الحروف في فصوله) [٣].

أما الخلاف الحاصل، حول التبعية المنوطة في السجع بين الألفاظ والمعاني، فذلك راجع إلى النزاع النقدي البلاغي عن الجدلية المتفاعلة بين اللفظ والمعنى. وهذا موضوع لم ينته الحديث عنه بعد، في كتب الدراسات النقدية والأسلوبية.

وكان الجرجاني، في دلائله وأسراره، ممن اعتبروا المعنى هو المدار في الحسن، كان سجعا أو كان تجنيسا، حيث يقول في الأسرار (وعلى الجملة، فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا...)[٤]. ونجد في كتاب سر الفصاحة – المشار إليه – أعلاه نقاشا أسلوبيا، يرسل الخفاجي أطرافه، وذلك في مناقشته لمقالة الرماني عن السجع وعن الفواصل (فإما قول الرماني أن السجع عيب والفواصل بلاغة – على الإطلاق – فغلط، لأنه إن أراد السجع بالسجع ما يكون تابعا للمعنى، وكأنه غير مقصود، فذلك بلاغة، والفواصل مثله، وإن كان يريد السجع ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف، فذلك عيب، والفواصل مثله وينتهي الخفاجي في هذا النقاش إلى القياس الآتي (وكما يعرض التكلف في السجع عند تماثل الحروف، كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف...)[٥].

---

[١] انظر المصطلح النقدي في (نقد الشعر) لقدامة، مادة "س،ج،ع" والكتاب هو رسالة الاستاذ إدريس الناقوري، ص ١٧٣.

[٢] سر الفصاحة، ص ١٧١، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

[٣] م.ن.

[٤] أسرار البلاغة، ص ١٥، بتعليق أحمد مصطفى المراغي (المكتبة التجارية الكبرى بمصر).

[٥] سر الفصاحة، ص ١٧٣-١٧٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والخفاجي، في سر الفصاحة، إنما ينطلق في تحليلاته من "ظاهرة الأصوات" والأصوات في تآلفها أو تنافرها، كحمولة نصيه، هي الفاصلة في ميزان البلاغة والفصاحة[١]. وقد كان الخفاجي، في مبحثه الصوتي، واحدا من النقاد العرب الذين سبقوا عصرهم، وعلى رأسهم الجرجاني في الأسرار وفي الدلائل.

وجاء ابن الأثير، فاحتضن السجع، كما لم يفعل ناقد آخر، لا قبله ولا بعده، استجابة لروح العصر، من جهة، ولولعه الشديد بالظاهرة الأدبية من جهة ثانية، ولا يفهم من هذا الموقف الإيجابي، أنه يتقبل السجع على علاته، بحسناته وسيئاته. بل إن ابن الأثيرر يشترط شروطه التي تراعي حسن الألفاظ ودقة التركيب. (وهذا مقام تزل عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد)[٢]. وما يقصده ابن الأثير له علاقة بموسيقى الألفاظ ودلالتها الإيقاعية[٣].

وملاك الأمر في كل ما سبق، هو أن السجع، كخاصية من خصائص النثر الفني، لا ينبغي أن ينظر إليه بمعزل عن التلاؤم بين اللفظ وإيقاعه من جهة، وبين معنى اللفظ وترابطه من جهة ثانية. وهو في هذا التفاعل إنما يخضع للنظرية الشكلية في الأدب، التي بسطها الناقد الإنكليزي "غراهام هو" في كتابه مقالة في النقد وهذه النظرية التي حلل بها بعض الظواهر في الأدب الإنجليزي، تقوم على عناصر ثلاث (التكامل، التناغم، التألق[٤]). وإذا أسقطنا العنصر الأول، الذي هو التكامل فإن العنصرين الباقيين (التناغم والتألق) ينسحبان حتى على الشعر العربي والنثر الفني، إذ التألق والتناغم لا يتوفران غلا إذا حصل التلاؤم والتوازن بين الحروف والجمل والعبارات.

ولا يعني بحال، أن هذه النظرية إنما يراد بها التأنق الجمالي المحض، دون أي اعتبار للمعنى الباطني التي تزخر به موسيقى الألفاظ عبر التناغم والتألق

---

[١] عن مبحث الأصوات اللغوية، عن دلالة ألفاظها، انظر "من أسرار اللغة"، ص ١٢٤، ودلالة الألفاظ، و"الأصوات اللغوية"، ص ١٠٤، للدكتور إبراهيم أنيس.

– وانظر ما كتبه الأستاذ محمد بن تاويت عن سر الفصاحة، في مقدمة "الدلائل" للجرجاني، ص ٢٥،٢٦،٢٧.

[٢] المثل السائر، ١١٦ و١١٧، نقلا عن النثر الفني ١، ص ٩٥.

[٣] انظر الفصل السادس من كتاب "جرس الألفاظ" للدكتور ماهر مهدي، ص ٢٢٣.

[٤] مقالة في النقد، تأليف غراهام هو، (ترجمة محي الدين صبحي) دمشق، ص ٢٢ وما بعدها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المتعانقين. وهذا ما ذهب غليه الزيات في كتابه "دفاع عن البلاغة"، وهو يتمثل غاية التمثل النصوص القديمة عن السجع والازدواج وما بينهما. (ورأيت معي أن تقطيع الكلام جملا أو فقرا أو فواصل عمل بلاغي تقتضيه حالة النفس وحركة الذهن، وطبيعة التنفس – وهذا التقطيع وإن نشأ في اللغة على مقتضى الطبع– له فلسفة وهندسة وموسيقى، هن عناوين علم البلاغة وبراهين فن البليغ..)[١].

ومما لا شك فيه، هو أن حسن الزيات، إنما يصدر عن إيمان بالجملة العربية وبلاغتها، كما كان الرافعي يصدر عن الجملة القرآنية[٢] فيما يحبر ويكتب. وما أخالهما إلا خارجين من جبة الأثير.

ومهما يكن من أمر، فإن خاصية السجع بألوانه وتفريعاته، قد ارتبطت بالبلاغة، وبالنقد على صعيد واحد. إلى أن اختفت السجعات، وأصبح للنثر العربي إيقاع آخر، ينساب مع الجملة المرسلة الإسالا، ومع العبارة المطبوعة بالعفوية المنطلقة مع حركات النفس وتدفق الوجدان.

ومن خلال عرضنا – سابقا – لبعض النماذج من الرسائل الفنية التي كانت سائدة في مغرب القرن الحادي عشر، لمسنا بجلاء خاصية السجع بمظهريها : المتكلف والمطبوع. وقد استوقفتنا سالة العياشي التي كتبها إلى شقيق اليوسي، أبي عمر عثمان بن علي[٣] كاتجاه في نفس المسلك الفني للترسل المغربي. وله امتدادا استمد روحه وأسلوبه من المدرسة السعدية. ولم يشذ اليوسي عن القاعدة، في رسائله إلى السلطان إسماعيل، فكان يسجع ويتفنن ويطابق ويجانس، مراعاة لجواب الكتاب ومقام السلطان.

إلا أن ظاهرة السجع – هذه – ازدادت رسوخا في تقاليد النثر المغربي، مع بزوغ القرن الثاني عشر، وهي وإن كانت عند الجيل الأول لا تمثل القاعدة المطرد في الكتابة لكون العصر قد فرض على المتأدبين والكتاب معطيات سياسية واجتماعية

---

[١] دفاه عن البلاغة، ص ١١٣–١١٤.

[٢] انظر كتابه "تحت راية القرآن".

[٣] رحلة العياشي ١، ٧٦، ط مصورة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

شغلت الناس عن الاهتمام المتزايد بالأسلوب، لكنها كانت لدي الجيل الثاني المسلك والقاعدة في آن واحد.

والشاعر ابن زاكور، في كتابه "**نشر أزاهر البستان**"[١]. كان ولوعا بالظاهرة السجعية ومكوناتها، حتى وهو يسجل إجازاته ومروياته عن أشياخه الكبار والصغار، ولنقرأ هذه الفقرة التي أضفاها على مشاركة أحد شيوخه في مضمار القريش...

(ولهذا المولى إشعار أرق من نسمات الأسحار، ورسائل آنف من نفحات الخمائل، لو قراهما على الصخر لتفجر ماء صراحا ولو ألقاهما على البحر، لصار سلسالا قراحا، شاهدت من ذلك ما تقر برؤيته العيون الباكية، ويحسد نسيب عبد الرحمن بن حسان في رملة بنت معاوية[٢]. وهكذا، تطلع هذه الفقرة بأسجاعها ومزاوجاتها، وأشداتها التراثية والتاريخية، وكأنها صادرة عن طبع سلبي تنال منه العبارات وهي لاصقة ببعضها، بخلاف ما سطره في الفقرة النشاز...)

ولما خرجنا من البحر، وخلصنا من تلك المهالك، التي كنا منها بين السحر والنحر، وكنا من البلد على نحو ميلين أو أشد، حال بيننا وبينهما من الموانع برزخ، أضرم في جوانحنا برأسى وجمرها لا بتبوخ، فاشتبه على الأمر : احكمنا الإتمام أم القصر، فكتبت له من هنالك مستفتيا عن ذلك....)[٣].

ويعلم الله من ابن غاص على تلك السجعتين الثقيلتين، البرزخ، ولا يتبوح ؟ لاشك أن ابن زاكور، كان يتكلف أحايين، فسقط على الصخور مرتطما فاقدا طبعه السلس، وعفويته الجارية.

وقد ختم ابن زاكور حديثه عن "**نشر أزاهر البستان**" بهذا الكلام، (ولا نقصر عنان الكلام بقدر الطاقة في هذا المقام، مخافة أين يقال مادح نفسه يقرئك السلام، وتنزيها لذكر هؤلاء الأعلام، على سبيل الاستطراد والإلمام، مع أن الخروج عن المقصود، ليس هو في كل مقام محمود، ولولا ذلك لصدحت بمفاخرهم التي ملأت

---

[١] نشره كما هو، وبتقديم شحيح، الأستاذ عبد الوهاب بن منصور عن (المطبعة الملكية، الرباط ١٣٨٧/١٩٦٧).

[٢] نشر أزاهر البستان، فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، ص ٢٢.

[٣] نفس الكتاب، ص ٧٤.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأغوار والنجود، ورقمت بها المعارف رقم البرود، وإذا كثر بحول الله اطلاعي، وغزر ماء نقاعي، فلا الحلي بمحاسنهم عاطل رقاعي، ولئن رمت قرائحي، فلا قلدنهم أطواف مدائحي، وأبوح في فضلهم، بما بين جوانحي... ولا حول ول قوة إلا بالله العلي العظيم)[1].

وبهذا الختام، الذي لاك به ابن زاكور بعض السجعات لوكا عسيرا، مع نضوب ملحوظ في إبراز المعني الذي يريد، فحاول تفجيره في رقاعي، ونقاعي، ومدائحي، وجوانحي. ولقد صدق ابن زاكور في الختام إذ حوقل فقال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العي العظيم... والغريب أن ابن زاكور وهو الشاعر، لم يستطع أن يكون فارسا في حلبة النثر الفني، علما بأن أغلب الشعراء لا ينفكون شعراء وهم يرسلون أو يترسلون. وتبقى ملاحظة "الوافي" حول نثر ابن زاكور في صميم التقييم. حيث (أن شخصية أديبنا تتمثل قوية في شعره دون نثره)[2].

وأن الذي يمثل النثر الفني في عصره، وفي مغرب القرن الثاني عشر، هو محمد بن الطيب العلمي، صاحب الكتاب النفيس، الموسوم بالأنيس[3] والنثر في هذا الكتاب، مشرق وجذاب، لا تعتوره العثرات والسقطات كما في نشر أزاهر البستان، وإذا ما قمنا بفحص بياني دقيق للديباجات والتحليات التي رصع بها صاحب الأنيس رجاله وأشياخه، فإننا سنتذكر العهد المشرق لمراسلات الأدباء على عهد النضج الفني للنثر العربي البياني. إضافة إلى ما في ثنايا القول المسجوع من نظرات نقدية تنم عن حس أدبي يحرك صاحب الأنيس وهو يستحضر المعاني التي سيخلعها على ممدوحيه. وأن ابن زاكور السالف الذكر، واحد ممن كان يستأنس بهم ولا يستوحش، وكيف لا وهو (وحيد البلاغة، وفريد الصياغة، الذي أرسخ في ارض الفصاحة أقدامه، وأكثر وثوبه على حل المقفلات أقدامه فتصرف في الإنشاء، وعطف إنشاءه على الأخبار وإخباره على الإنشاء، وقارع الرجال في ميادين الارتجال، وثار في معترك الجدال، ما شاء وجال، فهو الذي باسمه في الأوان هتف، وهو الذي يعرف في كلا العلوم، من أين

---

[1] م.ن، ص ٩٥.

[2] الوافي بالأدب العربي ٧٨٩/٣.

[3] والكتاب بعنوان " الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب "الطبعة الفاسية".

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تؤكل الكتف...)[١]. ورغم التلاعب الواضح بالألفاظ وبالمعاني، كما في العبارة هذه "فتصرف في الإنشا..." إلخ. وقد تكررت ثلاث مرات، كما ترد الإعجاز على الصدور أو العكس، بالرغم من كل هذا، فإن يأخذ نفسه الطويل عبر الجملة المرسلة...، وفي الطريقة هذه إحياء، كما قلنا لمدرسة النثر الفني في القرن الرابع، خاصة في التحليات المتجلية في زي النقدات الفنية.

وفي هذا الصدد، نريد أن نقتطف من (كمال البلاغة)[٢] عبارات المدح التي حلي بها قابوس بن وشمكير نثر ابن العميد، لنقف على التقليد الذي سنة أرباب الفصاحة وبالبلاغة في باب التقريظات البيانية. (عرض علي –أطال الله بقاء الأستاذ – من عقود سحره، ومحسود نثره، فصل تضيء النواظر برؤيته، وتخطر الخواطر لروايته، ويفيد لكم بيانا، ويعيد الشيب شبانا، ... فمن مر على أرجاء بحره الهياج، ونظر في بدره الوهاج، خليق بأن يكبو قلمه بأناملة، وينبو طبعه عن رسائله، لأنه بيان قصر عن نيله لسان البلاغة، ولم يأت بمثله فرسان هذه اللغة...)[٣]. وهذا النموذج يقف دونه في الأنيس، من كل شبهات يطبعها الكاتب على حسن مخاطبه. (وكتب إلي، وأنا مسافر، مجددا لوداده الكامل الوافر (بيتان) لبراعة لسان الزمان، ويرعه بنان البيان، من حلاه الأدب بنفائس لآليه، وجلاه القمر في اسعد لياليه، وآثره بخصائص مآثرهن وأودعه غرائب نوادره، الكاتب الذي لو عاصره ابن مقلة، ما رنت إلي حروفه مقلة، أن نثر أنسي فصل الربيع، وأن نظم أذكر فضل الربيع مزين أجياد الطروس بعقودها، والموفي للآداب بعودها وعقودها....) [٤].

وعلى هذا المنوال والذي قبله، يستوي كتاب الأنيس المطرب، كنموذج للنثر الفني في آخر الدولة الإسماعيلية، ولا شك أن فترة الاسترواح عن النفس، أوقل فترة ما قبل العاصفة، جعلت الأدباء يتنفسون الصعداء، وقد مهدت لهم مسالك الإبانة في الطريق الأدبي، بفضل الجيل الأول. وصاحبنا التستاوتي عاصر الجيلين معا، وامتاح

---

[١] الأنيس المطرب، ص ١٩.

[٢] كمال البلاغة، هو رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير، من تأليف عبد الرحمن علي اليزدادي (المكتبة العربية) بيروت.

[٣] كمال البلاغة، ص ٤٢.

[٤] الأنيس المطرب، ص ١٣٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من المعينين معا، فإلى أي حد كان الرجل آخذا من هذه المدرسة ومن تلك. ونحن نترصد الظاهرة السجعية في رسائله الفنية ؟

إن الجواب سترسمه العبارات التي سنعتمدها للتدليل على رسوخ الظاهرة في أذهان أدباء العصر ومتصوفيه. دون أن نسقط من الحساب، إن التستاوتي – وهو المتصوف – كان يغترف أحيانا من النهر البياني المنساب في أساليب القوم. قبل أن يتفيأ التستاوتي تحت ظلال الزاوية الناصرية، كان على علم بشخصية مؤسسها محمد بن ناصر الدرعي، وكان لا بد له، وهو عازم على اللحاق بركب الطريق الصوفي، أن يراسل الشيخ الكبير، طالبا منه ما هو متعارف عليه في هذا الشأن في عالم التصوف. وبين يدينا من هذه المراسلات ما يقرب من عشرين رسالة (١٨ رسالة)، وقد كتبها التستاوتي قبل أعوام التسعين، أي أنها وليدة أربع سنوات خلت قبل وفاة الشيخ الكبير.

وقد يقال : ما علاقة هذا، بالحديث عن خاصية السجع وألوانه ؟

والجواب، عن السؤال، سيساعدنا على فهم الظاهرة الفنية من وجهتها النفسية والذاتية أي أن الجواب هو في هذا السؤال لهذا أخلت مكاتبات التستاوتي إلى الشيخ ابن ناصر من هذه الظاهرة الفنية ؟ إلا ما كان من طفوها – على السطح – في بضع عبارات وشذرات ؟ فهل الأمر يتعلق بموقف من الظاهرة، وهو يخاطب شيخه الصوفي وعماده الروحي ؟ والحالة أن المقام لا يستوجب التفنن في الجمل والعبارات، بقدر ما يتطلب البساطة وعفوية الخطاب...؟ أم أن التستاوتي كان يتهيب المقام ويخشى – أن سقط في أحابيل البلاغة – غضب الشيخ وانتقاداته ؟.

ولعل الاحتمالات كلها واردة، لما في رسائل التستاوتي – خلال هذه الفترة التي كان يتودد فيها – إلى الزاوية من صدق ذاتي يستلزم بالضرورة بلاغة البساطة وفصاحة التنفس قبل فصاحة اللفظ. وقد لمسنا هذا الصدق الذاتي عندما قيمنا التستاوتي من الوجهة النفسية والصوفية عبر رسائله إلى الشيخ ابن ناصر، حيث تعرى نفسيا، وأسقط الحجاب وكان بمثابة المريض النفسي، الماثل بين يدي الطبيب. فهل يخطر ببال المريض أن يكون بليغا، وينتقي من العبارة أجودها، ومن الإشارة أوحاها ؟ أم أن مقتضى الحال، يفرض في الخطاب أن يكون إبلاغيا هادفا، لا بلاغيا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

صرفا ؟. مما لا شك فيه أن الطبيب روحيا كان أم نفسيا هو رافض لا محالة المسلك الأول في الخطاب. وهذا، هو التفسير النفسي/الصوفي، الذي نفهم به حقيقة الأمر في الموضوع.

وقد أشرت إلى أن رسالة واحدة، هي الكتاب الثامن، قد التزم فيها التستاوتي بالسجعات الخفيفات، التي تتخلل الفقرة الأولى من الرسالة، (فإني أقسم عليك بمن ولاك، والبسك ملابس الفخر وحلاك، إلا ما أجبتني عن أشياء، ضاق لها صدري، وعز من أجلها صبري، ولا يمكن أن يسأل عنها أحد سواك، أو يجيب فيها أحد عداك، ولم أسأل لريبي، ولكن ليطمئن قلبي)[١].

وقد نجد لهذه الفقرة الصغيرة نظيرا في حدود السطر أو السطرين، دون أن نحس بأن الكاتب يتقصد السجعات وفتن في إخراجها لانسيابها من عفوية الطبع وملكة التعبير. أبديت هذه الملاحظة، لأني حاولت أن أتتبع الخاصية الفنية في رسائل التستاوتي، بناء على الرصد الكرونولوجي الذي أعددته لإنتاجه على العموم[٢]. ثم إن التستاوتي، وقبل أن يلتحق بالزاوية الناصرية كمريد ومسترشد، كان على اتصال وثيق باليوسيي، ولا شك أن رسالة أو اثنتين، كانت من ضمن ما خوطب به اليوسي، قبل أن يتعرف التستاوتي على الشيخ ابن ناصر بواسطة اليوسي. قبل أن يتعرف التستاوتي على الشيخ ابن ناصر بواسطة اليوسي.

نفترض هذا الافتراض، لوجود فقرات مسجوعة في بعض رسائل التستاوتي إلى اليوسي بل إن الصنعة – عامة – فيها بادية، على مستوى اللفظ والعبارة. والبعض منها – وهي الرسالة الخامسة– أرادها كاتبها مسلسلة بالفواصل والأسجاع، تارة تمتد فتطول، وأحيانا تستوي جملا قصيرة في تزاوج والتئام.

وقبل أن نقتطف بعض العبارات في رسالته – المشار إليها – إلى اليوسي، لا بد من الإشارة إلى ملحظ أساسي، يحدد المستويات التي تدرج عليها التستاوتي في تعالمه مع السجع كظاهرة فنية في بعض رسائله.

---

[١] نزهة الناظر ١، و ١٩، ص ٣٦.

[٢] كان اتصال التستاوتي بابن ناصر بعد عام ١٠٧٦، أي بعد حجته الثانية، انظر الطلعة ١٨٧/١، ص ٢٦٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وتبعا لهذا التحديد، فإن هناك مستويين وبينهما ثالث وسط.

والرسالة الخامسة التي أشرنا إليها، هي بمثابة خطاب فني يزفه التستاوتي إلى الأديب والعالم الكبير أبي علي اليوسي.

وسنرى أن إيقاع السجعات فيها متوثب لا يبين في انسياب ملحوظ، تأخذ بتلابيبه ألفاظ تتكرر أحيانا دون ملل. كما أن موسيقى الحروف تساوق والإيقاع المهموس أو المجهور. (وبعد/ أماتك الله وأحياك، ثم أماتك وأحياك، وأكرم بتجليه معياك، واخصب بسماهدتك إياه روش محياك، واخصب بمشاهدتك غياه روض محياك، فإني كنت فيما كننت أظن إني كنت، إلى أن أسفرت الشمس، وفاح ارج النسيم من القدس، أيقنت إني ما منت كما ظنيت، ولا حاولت مناولة ما به تغنيت، فانعكس الفرح ترحا، وعاد الترح فرحا، وحصل الاعتدال، من الماء االزلال، وما كنت أظن أن العسل يشاب، ورأى من لم يبلغ الحنث يشاب، فطال تعبي، وكثر تعجبي، وكيف لا أتعجب وأنا أنظر إلى انعكاس القضيات واختلاف المرئيات، وكيف لا أتعجب، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، ومن فاز حمد المسعى[1] ولولا ما في الفقرة من كنت وكنت، لما شعرنا ببعض النتوءات الصوفية الناشزة. ولا يخفي ما العبارات من تجنس وغيره من ألوان البديع، وقد أضفي على السجع حركية لا شوشاء فيها، لائتلافها عبر المزاوجة بين الالفاظ : فمحياك مع محياك، والشمس مع القدس، والترح مع الفرح، والاعتلال وماء الزلال...، كللها تلاءمت وتزاوجت لتؤلف هذا الإيقاع الصوتي المرسل دون تقييد.

وقد يقال : ماذا وراء هذه العبارات المسجوعة، في رسالته إلى اليوسي ؟

وحتى لا نستعجل الأمور، فإن هذه الظاهرة تطرد في بعض المراسلات، حيث تختفي المعاني طي الدلالات المكثفة الغامضة. وما أخال اليوسي، وهو المعني بالخطاب، إلا مدرك لتلك الدلالات.

وعلى غرار النموذج السابق، تستوي هذه الفقرات من رسالة أخرى، كتبها عام ١١٠٩.

---

[1] نزهة الناظر، ١، ورقة ٣٠، ص ٥٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(وبعد، فقد عميت البصائر، وأظلمت السرائر، وانقلب المنكر معروفا، وصار الغدر مألوفا، وتعطلت منابر الحكماء من حكمها الرائقة, وعفت كراسي العلماء من مواعظها الفائقة، ولست ترى إلا مشغولا بدنياه، عاكفا على شهوته وهواه، وأصبحت منازل العقلاء دراسة، ولا عين لها من أهل المودة حارسة، فمن خائف على نفسه وماله، ومن خائض فيما لا يعنيه في أدباره وإقباله).

والسجع هنا يمتد عبر الجملة غير القصيرة، ولكنه بعد ذلك يأخذ شكل الفواصل القصار ثم يستأنف نفسه عبر الجملة الطويلة، والتستاوتي في هذه الرسالة يتحدث عن ظاهرة اجتماعية عاشها في العاصمة الإسماعيلية، حيث صنف الناس إلى شرائح وعينات :

(منهم فلان وفلان، حفظه الملك العلام، وأرشده لمتابعة النبي عليه السلام، وأناس على أثره في مودة سائرون، فمنهم من نبذها في العراء، وجعلها من وراء، ومنهم من تستر بالخوف، وعد نفسه كأنه من عوف، ومنهم من أعجزه الإنفاق، وخاف من الإملاق، ومنهم من ساء اعتقاده، واضمحل وداده، وطفق يروم غيرنا، وأنكر، جهلا منه، خيرنا...)[1].

والخطاب السجعي في الرسالة، لا ينوء بألوان من البديع، كما في الرسالة الأخرى، كما أن المزاوجة بين الألفاظ قليلة فيه، إلا في جملة واحدة يعتريها نقص خفيف في الإيقاع بين خائف، وخائض. في هذه العبارة "فن خائف على نفسه وماله، ومن خائض في ما لا يعنيه في إدباره وإقباله" إلا أن تكرار الجر والمجرور في لفظة منهم، وتتابعها الاسترسال، حول أسلوب الرسالة إلى الصيغة الخطابية، الذي يتقصد فيها الخطيب إيراد بعض العبارات المتشابهة للجملة الواحدة. لكن التستاوتي في هذه الرسالة كان خاضعا لتاثير الموضوع الطي يشغله، إلا وهو التعبير عن التذمر والغضب نتيجة للتصادم الحاصل بينه وبين الشرائح البشرية التي وصفها وبينها. وهكذا يكون السجع هنا إيقاع صوتي اريد به التفويج عن النفس.

---

[1] نزهة الناظر، ١، و ٥٩، ص ١١٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقد كان التستاوتي ولوعا، بهذا الاستعمال، كما نجد في رسالته إلى الطائفة الناصرية بمراكش، وهي رسالة – كما قلنا سابقا – تجمع بين البلاغة الصوفية وبالبلاغة الأسلوبية. فالأولى تخاطب فيهم الروح الصوفية، والثانية تعبر عن الخطاب بلغة بيانية. وهما لا ينفصلان :

فلطف الأواني في الحقيقة تابع للطف المعاني، والمعاني بها تسمو[١]

يقول التستاوتي من الرسالة المراكشية، (وقد قيدت أرباب الحقائق مذاهبها، وشيدت أهل المراتب مراتبها فهم القدوة في ذلك، والمعتمد عليهم فيما هنالك، ومن خرج عن طريقتهم أو زاغ عن سيرتهم فقد استهوته الشياطين في مهاوي لا قعر لها، فمنهم من يؤخذ بيده فينجو من الإغراق، ومنهم من تخطفه كلاليب الامتحان فيدركه الإحراق) وهذا المنزع التفسيري في بعض الرسائل المسجوعة، إنما يكون خاضعا لخاصية اللف والنشر، المعروفة في علم البلاغة[٢].

وقد بني التستاوتي رسالته هذه، على الجملة ذات النفس الطويل، وقلما كان يسجع السجعات القصار، لما للخطاب من غاية توجيهية تستوجب التفسير والبيان، أكثر مما تؤديه الجمل القصيرة، كهذه (والوقت قطع بأقطاب وأوتاد، ونقباء وأمجاد، وصلحاء وأنجاد، فما أفلت إقماره، ولا تلاشت أنواره، ولا تعطلت أسراره....)[٣]. وأحيانا نلاحظ النفس الطويل في الجملة المسجوعة الأولى، ثم تأتي بعدها الجملة الصغيرة الثانية، في سجعتها المماثلة للأولى. كما في هاتين الجملتين والعبارتين :

(فإن المحبة لله لا تتوقف على شرط من الشروط، أو ربط من الربوط) (ولو كان أصل معرفتكم إياه بنيتموه على أوثق أساس، ما تضعضعت أركانكم من وسواس) وإذا ما أحصينا عدد الألفاظ في الجملتين الطويلتين المسجوعتين، فإن العدد سيكون تسعة. وأما الجملة المردوفة على الأولى فعددها أربعة، بنقص لفظ واحد عن مثيلتها القصيرة. وليس المقصود بهذا، تكريس البناء الهندسي المعتمد في الرسالة، وإنما

---

[١] والبيت لابن الفارض من لاميته الخمرية.

[٢] انظر حسن التوسل إلى حسن الترسل، ص ٢٤٥/٢٤٦.

[٣] النزهة ١، و ٢٠١، ص ٣٩٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الغاية، هو أن التستاوتي كان يسجع وفق بنية صوتية متفاوتة. أحيانا. ووفق إيقاع متوازن أحيانا، وتارة كان يطلق السجعات المتماثلة حرفا ولفظا.

وكان جواد السجع يكبر أحيانا وصارم القلم ينبو أجايين، لما في الخطوات والسجعات من تعثر إيقاعي ملحوظ، فيكون الفر والكردون خطة محكمة، أو صياغة متقنة، كما في الرسالة القصيرة، التي وجهها إلى ولده إبراهيم...

(أو بعد، فرزقكم الله شواء الشوق، من غنم الذوق، وشواء الصدق من ينبع الحق، وتجلى لك من سماء القدم وأنت بطور العدم، فيندك جبل طور سيناء بشريتك، وتفنى عنك وعن كل شيء به لا بنفسك، فتعاين حقائق الأشياء حقيقا، وترقص في قفص المشاهدة تصديقا، وتتخلى عن خلع الخيالات والتخمينات، ملتفا برد إدراك التصورات والتصديقات، أمين).

وقد أراد التستاوتي أن يحملها ما لا تطيق ما أفكاره الصوفية، إلا أن أسلوبها – وخاصة الجانب الإيقاعي فيها والمسجوع – مطبوع بالتكلف، سواء من جهة المعنى الصوفي من جهة العبارة والبيان ولولا ما فهيا من استعارة تيتاوتية، حول "شواء الشوق، من غنم الذوق" لحسبناها من سقط الكلام لعدم مشاكلة المعنى للفظ، ولما في التركيب من تنافر ناتيء ملحوظ.

وقد لمح الجاحظ إلى هذا النوع من التعبير المتنافر الحروف والمقاطع، حيث أنها (مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده) وعلى عكس هذا النمط من التعبير، تتساوق الحروف وتتلاءم، فتراها – كما يقول الجاحظ : (سهلة لينة، ورطبة مواتبة، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان)[1] والجاحظ في نقداته الدالة إنما يحرص على الجانب الصوتي للعبارة، شعرا كانت أوفى في النثر، وحيث أن السجع البياني، هو الجامع في الإيقاع بين الشعر والنثر، فإن من شروط البراعة الفنية أن يكون قائما – أي السجع – على عناصر متوازنة في الحرف واللفظ والعبارة[2].

---

[1] انظر "الرؤية البيانية عند الجاحظ" (الفصل الرابع)، ص ١٥٧، وهو رسالة علمية تقدم بها الزميل إدريس بلمليح لنيل دبلوم الدراسات العليا من كلية الرباط.

[2] انظر الفصل السادس، من كتاب (جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب)، ص ٢٢٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبالنسبة للتستاوتي كان يسقط أحيانا فلا يأتي السجع في كلامه وخطابه ملائما لما تتطلبه الأثر الإيقاعية، حيث الحروف تتبرأ الأصوات فيها من بعضها، كالدال والضاد، والطاء، وفي هذا السياق، يشير الخفاجي إلى أن من الحروف من (يحسن استعماله في الفصيح من الكلام، وبعضها لا يحسن، فالتي تحسن ستة حروف : وهي النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم، والهمزة المخففة، وألف الإمالة، وألف التفخيم، وهي التي ينحى بها نحو الواو... والحروف التي لا تستحسن ثمانية) ويسترسل الخفاجي في عرض الحروف ومستوياتها التعبيرية. وقد رأيناه قبل، يعرف السجع (بأنه تماثل الحروف في مقاطع الفصول)[١].

لنقرأ هذه الفقرة من رسالة أخرى، إلى ولده إبراهيم، (وبعد، فقد تناولنا ملتقطين بل مقتطعين، أزهار ما تفتقت به أفنانا، دعوة عرفانكم، وجلنا بأفكارنا حول روضة بيانكم، فألقينا عذبها السلسبيل، تشير أنامله إلى المورود من ورد سواء السبيل، فشكرنا لخواطركم صوب إشاراتكم الفائقة، ونثركم في أرض الطروس دررها الرائقة، ثم ليس للمطلوب من البروق اللمعان والانتشار بل الوكف والأمطار...)[٢]. وقد ازدحمت الحروف وتزاحمت في بعض العبارات التي استجمعت الأصوات المتنافرة في النطق والإخراج. فالكاف، والضاد، والطاء، والدال، كانت تلهث وراء بعضها في غير استروح في النطق والانسياب. وهكذا ذهب الفن البياني ولم يبق إلا التكلف والاضطراب.

وآين هذا، من الرسالة الفريدة، في موضوع السماع، التي كان الخطاب فها موجها إلى السيد الحاج المفضل وقد استفسره عن السماع وملحوناته، لكن الخطاب في الرسالة حاد عن الموضوع بمعناه الديني والصوفي، واتخذ أسلوبا آخر إبداعيا[٣]... إبداعيا[٣]...

(واعلم أن السماع احبولة تقتنص فيها الأرواح، وترقص في أقفاصها الأشباح، والناس في ذلك مختلفون، قد علم كل أناس مشربهم، فمن خلص من

---

[١] سر الفصاحة، ص ٢٩، وانظر ص ١٧١.

[٢] نزهة الناظر، ١، و ٥٦، ص ١١٠.

[٣] انظر ما كتب في هذا البحث عن ملحونات التستاوتي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الدهش، ورق له المحبوب وهش، نطق بالثناء الجميل في حضرة التبخيل... [١]. وهذا المطلع من الرسالة، المقامة إنما كان تمهيدا ليعرض التستاوتي – بعد ذلك – نماذج للسماع من الشعرين، الفصيح والملحون، عبر المزاوجة بينهما والمناوبة.

ثم يتدخل – أحيانا – وكأنه الراوي، فيقول (وعلى هذه الأوضاع ينبغي أن يكون السماع، فإن للأرواح مراتبا، في عالم الملكوت، ومشاربا، في عالم الرحموت، ومطالبا في عالم الجبروت، ولكل مقام مقال، ولا يدعي أحد من غير ماله من المقامات والأحوال، فالمهجور ينبغي أن يسمع ما يطمعه في اللقاء والواصل ينبغي أن يسمع ما يقتض دوام البقاء، ولوا أن الأرواح مكبلة في أكبال الشهوات، ومقفصة في أقفاص المخالفات، لا نخرق الحجاب ولرايت العجب العجاب...)[٢].

إن التستاوتي، قد كان بارعا في التقسيم الصوتي لبعض العبارات، على خلاف رسالته السالفة إلى ولده إبراهيم، حيث أن الحروف في هذه تتلاءم أحيانا وموضوع السماع، كتكرار حرف القاف وهو عين الفعل (رقص). والسماع والرقص متلازمان عند الصوفية في حلقات الذكر، ولكل مقام مقال، كما قال التستاوتي في رسالته. وبالرغم من الحروف الجهرية المصاحبة للسجعات، فإن هناك أحر : أخرى قد خففت من حدة الجلجلة، كالهاء، والشين والعين، والحاء، كما في الفقرة الأولى.

وهناك لون آخر، من ألوان السجع حفلت به بعض رسائل التستاوتي، ومنها ما كتبه إلى فقراء الرباط وسلا. عام (١١٢١ هـ). فالمقاطع السجعية في الرسالة قد التزم التستاوتي فيها بالحرف الواحد، دون تنويع أو تلوين. ولعله، كان يستحضر آيات المدثر المقطوعة بالفواصل القصار، بحرف الراء. (يا أيها المدثر، قم فانذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجس فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر...)[٣].

لكن التستاوتي في هذه الرسالة، لم يلتزم بعدد معين في المقاطع والفوصل، وإما هنا كانت الجمل تقصر ثم تطول، فتقصر ثم تطول. مع التزام بحرف الراء كما قلنا.

---

[١] نزهة الناظر، ١، و ١٩٣، ص ٣٨٣.

[٢] م.ن والإحالة، ص ٣٨٥ من الورقة ١٩٤.

[٣] قرآن كريم، (٧٤) سورة المدثر، ص ٦٣٩ من "المصحف الحسني".

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وماذا لو كتبنا رسالة التستاوتي على نظام السجعات فيها :

وبعد، فقد شطت الدار، وانقطعت الأخبار.

وما طلعت من سماء المكاتبات شموس ولا أقمار،

وأهم شيء بما وقع مما ظاهره الأشرار، والأكدار،

وبواطنه الأنوار والإسرار،

هل نحن إلا عبيد الله يجري علينا ما يجري على العبيد والأحرار،

من الحلو والأمرار، والبلاء ينزل بالأخيار، وبالسادات الكبار،

وهل نحن إلا ممن أثقلته الأوزار،

ومع ذلك لا نخلو من رحمة العزيز الجبار، وفضله العميم المقدرا،

المترادف سحه علينا في الليل والنهار، سح الأمطار،

التي تنتج الأثمار، من الأشجار، وعجائب الأزهار،

وتعتصر من كرمها بعد حداده الأخمار،

التي من لثم كاسها انزوت عنه الأغيار،

فيصبح نشوان يتمايل بين يدي الخمار،

ذلك سر من الأسرار، بقدرة العزيز الجبار، المحسن الغفار.

والسلام[1].

هي رسالة وحيدة وواحدة، استوت مقاطع وفواصل، لولا التفاوت في إيقاعاتها لكانت معقودة القوافي كالشعر الموزون، فحرف الراء، الذي يشكل روي السجعات، قد تكرر ٢٦ مرة.

ولولا حسن الظن بالرجل، وهو الصوفي لا لحقنا رسالته الرائية بأسجاع الكهان وترتيلاتهم الدينية. وما أظن التستاوتي يرضي بهذا الحكم. إذا، فالمؤشر

[1] نزهة الناظر، ١، و ١٩١، ص ٣٨٠.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الوحيد، الذي يحرك الإيقاعات المتواليات، يستمد دفقته الموسيقية من دلائل الخيرات، والأدعية والأوراد الصوفية[١].

وإن صانعي هذه الأنماط التعبيرية، من أحزاب ومن أوراد، كانوا ينطلقون من قاعدة واحدة، تساعد على الحفظ والاستذكار.

ولقد وجدوا ضالتهم في موسيقى الألفاظ ووقفاتها المسجوعة. ولصوفية، يمتلكون من الحسيس الموسيقي، ومن الذوق الفني، ما جعل أدبهم – الأحزاب والأوراد، بله الأشعار، من أرقى النصوص الإبداعية في تراثنا[٢].

ها نحن قد وصلنا إلى منحى آخر، تعبيري صوفي، في رسائل التستاوتي. ذلك أن الصوفيين في عباراتهم وإشاراتهم الإلاهية، عدلوا بالتلميح عن التصريح، وكأنهم أدركوا أن المعاني الروحية لا تستطيع بحال أن تستوعبها ألفاظ اللغة المباشرة، والإدراكات الحسية. فاستحق الصوفية ببذلك، أن يكونوا من رواد التعبير بالرمز في أدبينا العربي[٣].

والتعبير بالرمز والإشارة في كلام القوم، قديم، قد صاحب التصوف الإسلامي منذ أن استوى قائما إلى أن أصبحت له أصول وقواعد. وكان القشيري في رسالته – عن التصوف والصوفية – من الذين أشاروا إلى اللغة الخاصة ألتي استوعب الخطرات والشطحات، بعبارات أصبحت دالة عليهم دون سواهم. ولهم في ذلك بواعث وخلفيات، من أبرزها مقولة الظاهر والباطن :

إن لكل قول – أو لغة – ظاهر وباطن، وكأنهم حاولوا خلق بدائل إشارية عن المعاني القريبة، يقول القشيري في رسالته : (وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما

---

[١] انظر الفصل الذي كتبه الدكتور زكي مبارك، في كتابه (التصوف الإسلامي)، ٥٧٨/٢ من الطبعة الثانية.

[٢] إنا ما في كتاب (التصوف الإسلامي) بخصوص الأدعية والأحزاب والأوراد، لم يعد أن يكون التفاتة إلى هذا النوع من التعبير. ولم تدرس لحد الآن هذه النماذج من الوجهة التعبيرية وقد أورد منها "النبوع" نماذج، كالصلاة المشيشية وغيرها.

[٣] انظر كتاب الرمزية في الأدب العربي الدكتور درويش الجندي، ص ٣٥٠ (١٩٥٨ – مكتبة نهضة مصر) وكتاب "الرمز الشعري عند الصوفية" وهو رسالة الدكتوراة، أنجزها الدكتور عاطف جواد نصره من جامعة عين شمس، دار الأندلس بيروت ١٩٧٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسه والإجماع والستر على ما باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرة على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذا ليست حقايقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معاني أودعها تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم...)[1].

وفي كلام القشيري، من الحقائق والمعاني ما يستوجب الشرح والتحليل، وليس غرضنا – الآن – أن نعرض لهذا الجانب، إلا أن الفكرة النحورية حية، هو أن الصوفية، قد اضطروا إلى اللغة الخاصة اضطرارا، لما في مقالاتهم من جرأة وغرابة، لا يستسيغها الذوق العام ولا الرأي العام وما أشبههم ف ذلك بكبار الشعراء الرمزيين الذين يتسترون وراء الرمز والأسطورة، ليعبروا عن الواقع المنهار بلغة مزدحمة بالدلالات والرموز. فأولئك يتوعدهم سيف أهل الشريعة، وهؤلاء يتهددهم سم السياسة.

وقد صرح بهذا الباعث، المتصوف الكبير ابن عطاء الله السكندري، عندما سئل عن سبب لجوء المتصوفة إلى لغة مبهمة التعابير فقال (لما كان هذا العلم قد شرف بنا، ضننا به على غير الصوفية، ولما لم نستعمل لغة الناس، وضعنا له لغة خاصة بنا)[2].

وإن أكبر مثال على وجود السلطة المراقبة، ما قام به ابن العربي في ديوانه "ترجمان الأشواق"، حيث أضفي عليه من شروحاته وإضاءاته الصوفية خوفا من القيل والقال. ثم أنه صرح بذلك في أبيات من المقدمة التي مهد بها لرقائقه وحقائقه الغزلية الصوفية :

كل ما ذكره مما جرى ... ذكره – أو مثله – أن تفهما
منه أسرار وأنوار جلت ... أو علت، جاربها رب السما
لفؤادي، أو فؤاد من له ... مثل مالي من شروط العلما
صفة قدسية علوية ... أعلمت أن لصدقي قدما

---

[1] الرسالة القشيرية من النقاد الصوفية الذين كان لهم رأي في الظاهرة اللغوية والنحوية، من الوجهة الصوفية، وله مؤلف في "نحو القلوب" حققه مؤخر : د. أحمد علم الدين الجندي . والكتاب مطبوع في (الدار العربية للكتاب) ليبيا/تونس.

[2] في تراثنا العربي الإسلامي، توفيق الطويل (عالم المعرفة) ١٩٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلما[1]

وحيث أن هذا الموضوع – عن الرمزية في أدب الصوفية – سنعود غليه في القسم الرابع من هذا البحث، فإن الاكتفاء بهذا القدر، مناسب لهذا المنحى التعبيري في بعض رسائل التستاوتي.

وقبل أن نعرض لعبارات التستاوتي، المسربلة أحيانا بالرمز الشفاف، والملفوفة أحيانا بالغموض الناتج عن القصور في الأداء، لا بد من التذكير بما قلناه سلفا، بأن التستاوتي، مدفوعا – دفعا – إلى هذا النوع من التعبير، لأنه صوفي متصوف، له من الرصيد التراثي، ما يجعله يدخل ميدان التجريب التعبيري، ولأنه – ثانيا – قد ألجأته ظروف المحنة إلى أن يزاوج بين الغموض والوضوح في تعابيره ورسائله. أليس هو الكاتب، فر رسالة له إلى أخوته والأولاد، هذه العبارة (وبعد، فإن لكل قشر لبابا، ولكل أمر بابا مفتاحه الألباب، ....). وفي آخر هذه الرسالة، نجد أبياتا من قصيدة – في الحروف – منها هذا البيت الدال على الشاهد في الموضوع :

في ائتلاف الحروف معنى خفي كائتلاف النفوس والألباب[2]

ولعل الخطاب الغامض في رسائله، إنما ينطلق من قصدية واضحة، يبرزها التعمل الناتج عن تكلف بين في الأسلوب، كما في هذه الرسالة التي وجهها إلى فصيلته وذوي صلته، وهي في منحاها التعبيري كالرسالة السالفة والقريبة. وقد استهلها بكنايات واستعارات تفتقر إلى وسائل الربط ومجالات التأويل، كقوله (وقد شمت من غويركم بريقا، وشممت من ناحيتكم غديقا، فما اشمأزت الإمارة، واشرأبت للإمارة، غائبة عن الإمارة، وما ينبغي الاختلاف بل ينبغي الاحتراف، والصقر يصاد، وقد عيب للهو الاصطياد، والغياهب تتلاشى، بمواجهة قرن يوح، والآمال نافذة ولو عمرتم عمر نوح، وقد يقع التعاكس، بين السكر والسم، وما يستملح ويذم، فيرى السكر سما، والحجر ياقوت، ومراكش حضر موت، لعوارض تحيلها إلى ما سمعتم، وتصيرها إلى ما عنه حجبتم، ومن لم يكرع من نهر الحقائق، ويتدرع بملابس الرقائق، ينبغي له

---

[1] ترجمان الأشواق، ص ١٠. وانظر الكتاب التذكاري في الذكرى المؤية الثامنة لميلاد محي الدين، الفصل ٣/٢ والبحثان لكل من الدكتورين، محمد حلمي، وزكي نجيب محمود. (من إصدار وزارة الثقافة المصرية) ١٩٦٩.

[2] نزهة الناظر، ١، و ٦٤، ص ١٢٥.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأحجام عن البراز، في مراكز الإذلال والإعزاز، وإذا كانت الأمور محجوبة، والعبودية من العبد مطلوبة، وكانت الإفهام والأوهام لا مجال لها في الطوبات، ولا إدراك لها في المغيبات، كان الأحسن من المشفق على نفسه التجافي، عن كل ما يقدح في التصافي، إن هذا لهو البلاء المبين، وما يعزب عن ربك من مثقال في الأرض ولا في السماء والسلام[١].

ومما لا شك فيه، هو أن الغاية الإبلاغية فيها بينة في نفس صاحبها، فحاول إرسالها إلى المخاطبين بهذا الأسلوب، القائم على صور من المجازات والطباقات والجناسات، بل ويبعض العبارات الآخذة مجرى المثل السائر، فهل من ترابط لغوي بين هذه الجملة وما بعدها : فما اشمأزت الأمارة، واشرأبت للإمارة، غائبة عن الإمارة

.. (والصقر بصاد، وقد عيب للهو الاصطياد، والغياهب تتلاشى.... وقد يقع التعاكس بين السكر والسم، وما يستملح ويذم...).

ومما لا شك فيه – كذلك – هو أن حبل الخطاب المعنوي، يسري في داخله كخيط رابط بين المعنى القائم في النفس، وبين القصدية المحدد، لتوجيه الرسالة إلى المخاطبين. ويعلم الله هل وجدت عبارات الرسالة مكانها في نفس المخاطبين ؟ أم أنهم هم المقصودون بهذا التنبيه (ومن لم يكرع من نهر الحقائق، ويتدرع بملابس الرقائق، ينبغي له الأحجام عن البراز في مراكز الإذلال والإعزاز....)، وقد نتساءل عن النهر الذي يتدفق بماهيات الحقائق، وعن الأجسام اللطيفة التي تتزين بلبوس الرقائق، كما أننا مشدودون المر الماكر التي تذرعها خطوات الإذلال والإعزاز، وإذا ما تخيل فينا الحدس الإشراقي هذه التجسيمات لتلك التجريدات، أدركنا حقيقة الأمر الغامض في نفسية التستاوتي الغامض.

وكثيرا ما ترد هاتان اللفظتان (الحقائق والرقائق) في أسلوب المتصوفة[٢].

---

[١] نزهة الناظر، ١، و ٧٢، ص ١٤٢.

[٢] انظر كتاب التعريفات للجرجاني، في شأن المصطلحين الصوفيين، ص ٤٠، عن الحقائق، وص ٤٩ عن الرقائق.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وألفاظ الصوفية لا يمكن فهمها وإدراك أبعادها مجردة من الوظيفة التعبيرية التي تتنزلها داخل الجملة العربية. لأن تركيبها الإيحائي هو الكفيل بصوغ الإشارات، والتي كما يقول التستاوتي من رسالته إلى الولد إبراهيم "تكون من أكمام الضمائر، فتنفتح بالأزهار، فإن نشأن الكل عن حق أمطرت سحابة عنايته، وما أدركت الكسوفات سواطع بشاشة"[1].

وقد مرت بنا بعض الخطابات القصيرة التي كان يبعث بها إلى ولده إبراهيم، وهي مزخمة باستعارات المتصوفة ومجازاتهم، بما فيها من غرابة تستاوتية، كهدف الفقر القصار، (وبعد : فرزقكم الله شواء الشوق من غنم الذوق، وسواء الصدق من ينبوع الحق، وتجلى لك من سماء القدوم، وأنت بطور العدم، فيبدك جيب طور سيناء ببشريتك، وتفنى عنك وعن كل شيء به لا بنفسك، فتعاين حقائق الأشياء تحقيقا، وترقص في فضاء المشاهدة تصديقا...)[2].

ولنعد عن السجع، الذي كان مدار الحدث فيها سابقا، ثم لنربط خيط خيالنا في أجنحة العبارتين الغريبتين وفيهما دعاء للولد إبراهيم، لأن يرزقه الله "شواء الشوق من غنم الذوق

ولنستحضر – كذلك – البيت الشعري السالف الذكر والذي يلخص في كلمات علاقة التجانس التي توحد بين الحروف في لغة العبارة والإشارة.

في ائتلاف الحروف معنى خفي كائتلاف النفوس والألباب

وبعد هذا كله، فكيف تم التجانس والنظم الكيماوي بين حروف الشواء وحروف الشوق، ومال العلاقة الإيحائية والرمزية السارية فيها مسرى أرواح في الأشباح ؟

لابد – إذا – من البحث عن الخيط الشفيف الذي يصل بين الحسي والوجداني في ذات الصوفي، وقد استلد احتراق الشوق، كما يستلذ الجائع لحم الغنم المشوي.

---

[1] النزهة ١، و ٥٥، ص ١٠٨.

[2] نزهة الناظر، ١، ٥٦، ص ١٠٩.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وإذا ما ساءلنا التستاوتي عن معنى المعني في العبارة، فإنه لا محالة سيلجأ إلى ما قاله أبو تمام عندما سئل عن ماهية " ماء الملام" حيث قاس العبارة الشعرية بالعبارة القرآنية، عن جناح الذال[١].

فالشواء ملازم للحرارة والنار

والشوق ملازم، بشدته، لما يشبه الاحتراق

وللشواء لذة

وللشوق لذة أخرى.

والعنصر الثالث في هذه المعادلة، هو عنصر الذوق الذي تقاس به اللذة في الطرفين. إلا أن هذا الذوق، في فتائه وفتوته يشبه لحم الغنم المشوي.

فهل وفق التستاوتي، وهو يجانس بين حروف الكلمات اللغوية وبين المعاني الصوفية التي يجدها في الدواخل والوجدان ؟

وقد أرى في العبارة، ما أراه – دائما – في ذاتية التستاوتي من صراع بين الثنائيات، الظاهر والباطن، الحسي والمجرد، المادي والروحي، الواقع والمثال : ذلك أن صدر العبارة الرمزية – إذا صح التعبير – مكونة من جملة ذات كلمتين اثنتين : الشواء/الشوق)، وفي العجز، عين الصيغة وذاتها، (غنم/ الذوق). فالشواء يقاربه في عالم الحسن الغنم، والشوق يماثله في عالم الروح الذوق. ومعنى هذا، أن التستاوتي قد زاوج – بلاغيا – بين ألفاظ كما زاوج فلسفيا وصوفيا بين معطيات النفس ومعطيات الحس. وهذا يؤكد ما يذهب إليه بعض النقاد والبلاغة من أن العبارة الأدبية – فنيا – إنما تخضع لعامل لغوي وعامل نفسي[٢]. ومهما يكن من أمر العبارة الغريبة، فإنا داخل الفقرة الطويلة في الرسالة القصيرة قد استوت متكاملة من حيث التوازن والتلاؤم والانسجام، كما أنها حبلت بمعطيات ثنائية أبانت عن الصراع المتلاطم في ذاتية التستاوتي.

---

[١] انظر "الموازنة" للأمدي ٢٦١/١ (ت / أحمد صقر، دار المعارف).

[٢] انظر كتاب " من الوجهة النفسية للأدب" حين عرض المؤلف لنقدات الجرجاني البلاغية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وهناك ملاحظة، حول اللغة الخاصة التي يتداولها المتصوفة، ذلك أنهم لا يلزمها لغة واحدة موحدة، ولو كان ذلك لأصبحت العبارة في أدبهم كالنسخ المتكررة، والكليشهات المنسوخة. وقد تنبه التستاوتي نفسه إلى هذه الملاحظة، وهو يتحدث عن "**صورة ليلى**" وتجلياتها في عالم الشهود والوجود، إذ (كل يعبر عن ليلى على حسب قربه من محبتها، ورؤيتها في برزتها ؟ وربما تراءت لشخص على وجه، وتراءت لغيره على وجه آخر، ولذلك اختلفت عبارات الواصفين لها، وتباينت شطحاتهم من محبتها[١]).

ولم يكن التستاوتي في ذلك إلا موجها الولد إبراهيم – في رسالته إليه – حيث استعصى عليه فهم العبارات الصوفية، الزاخرة في أدبيات القوم. وقد قلنا بأن هذا الولد، يمثل دور المريد المسترشد، أما التستاوتي فيمثل الشيخ الواصل. وهكذا، كانت المراسلات بين الجانبي لها قيمتها الصوفية من جانب والأدبية من جانب آخر.

وقد مرت بنا هذه الفقرة التي يتبين فيها المستوى الصوفي للعبارة، وفيها كذلك التوظيف الإيحائي لمصطلحات يستعملها علماء الهيأة والجغرافيا، حيث أن الولد أرسل إلى والده الطيني والروحي أبياتا منها :

إذا طلعت بالحمل شمس نهارنا فرحنا بالاعتدال والقلب شائقُ
وإن طلعت بالصيف في سرطاننا هوينا خروجا، والخروج مفارقُ[٢]

ولننظر – الآن –كيفية التعامل الصوفي، إسقاطا وإيحاء، الذي يفسر به التستاوتي البيتين، رغم علاقتهما الفنية – يقول الشيخ الوالد، (وما أحسن قولك "**إذ ظهرت بالحمل شمس نهارنا**"... إلخ).

(فإن شمس المعاملة إذا نزلت بالحمل الذي هو اجتماع الحقيقة والشريعة، اعتدل نهار الرجاء وليل الخوف، في حق قوم وفي حق آخرين اعتدل نهار البسط وليل القبض، وفي حق آخرين اعتدل نهار الأنس وليل الهيبة، واعتدل نهار الجمع

---

[١] نزهة الناظر، ١، ٤٨، ص ٩٣.

[٢] م.ن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وليل الفرق، وكل من الفرق يشعر بفرح نزولها في الحمل، لأنه يشعر بكمال الاعتدال في المقامات والأخوال...)[١].

فالشمس والحمل، من جانب، والليل والنهار من جانب آخر، ألفاظ أربعة تتألق وتتجانس في علم الهيأة والجغرافيا. وقد أدار التستاوتي حولها – في دائرة مترابطة الألفاظ، مصطلحات صوفية لها دلالاتها في معجم الأحوال والمقامات. والقاسم المشترك الموحد، كآلة وحجه الشبه في علم البلاغة – هو الاعتدال في كل. فالاعتدال بين الليل والنهار مطلوب – للمريد – كذلك، حتى لا يحدث الانفصام المؤدي إلى الخصام ثم إن ألفاظ القوم، الوارد في فقرة التستاوتي الماضية، تمثل ثنائية ضدية، فالخوف، والقبض، والهيبة والفرق، تأتي في ميزان التضاد – صوفيا لا بلاغيا – لتقابل، الرجاء البسط، لا أنس، والجمع. وفي ذلك يقول زكريا الأنصاري، في تعليقه على كلام القشيري (فالهيبة ناشئة من القبض الناشئ من الخوف، والأنس ناشئ من البسط الناشئ من الرجاء، لأن من خاف الله، وعرف تقصيره في حقه تعالى انقبض قلبه، وبقي مشغولا بالله، فيحمل له الهيبة منه، ومن أمل وصوله إلى خير انبسط قلبه، وبقي مشغولا بالله، فيحصل له الأنس به)[٢].

وليس المراد من هذا التدليل، الرجوع إلى الجدل الصوفي حول الحقيقة والشريعة بل أن القصد، هو تبيان المستوى التفسيري الذي ينتظم الفهم الخاص لبعض المقالات الصوفية، شعرا، كان ذك أو نثرا. وقد ذكرنا بالمحاولة التي قام بها ابن عربي في شرح ديوانه "**ترجمان الأشواق**"، كنوع من التفسير الصوفي للعبارات الأدبية. وكان بذلك – أي الشيخ الأكبر – مؤسسا لما يمكن أن نطلق عليه "التفسير الصوفي للنص الأدبي. عبر تفكيك ذوقي لرموز المكان، والأسماء والأشياء"[٣].

---

[١] م.ن والإحالة.

[٢] الرسالة القشيرية، ص ٥٦.

[٣] انظر ما كتبه عن هذا الموضوع الدكاترة، محمد مصطفى حلمي، عن "كنوز ورموز" في ترجمان الأشواق و"طريقة الرمز عند ابن عربي " لزكي نجيب محمود، في الكتاب التذكاري، ص ٣٧.

– وبالنسبة للتستاوتي، فقد قام بشرح ملحونته اليائية، شرحا صوفيا. انظر النزهة، ١، و ٨٢–٨٤، ص ١٦١–١٦٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولا نطيل، أكثر مما قررناه واستعرضناه عن العبارة الصوفية ودلالتها في رسائل التستاوتي، ولم نعرض لغيرها المماثلة في غير الرسائل، ولدينا في النزهة، مقالات وخطرات وتقييدات تتناثر فيما بينها أساليب الصوفية المزحمة بالإيحاءات والتأويلات.

إننا، ونحن نقوم برصد نسبي لبعض الخصائص الفنية، في اسلوب التستاوتي من خلال رسائله، لا ينبغي نعزل المعيار التقييمي عن الذات، وهي الرافد والمصب في إفراز القيم الجمالية الأسلوبية.

وإن من النقاد الذين تنبهوا إلى هذا الملحظ النفسي للعبارة البلاغية، الشيخ عبد القاهر الجرجاني، في "الأسرار" و"الدلائل"، وعندما كان يلحق – بالتبعية والجدلية – الخصائص بالمعاني، إنما كان يقرر حقيقة نقدية تربط العبارة الأدبية بالدواخل النفسية.

وقد رأيناه – في الإسرار – يقرن جمال السجعة بقوة المعني، لا بصورة المبني المنفردة والمفردة. والقياس يطرد على باقي الخصائص المكونة لأسرار البلاغة، وماذا عن الطباق ؟ وهو المداد والمطاف الأخير، في هذه الصفحات ؟

يقوم مبدع " الأسرار " (أما التطبيق، والاستعارة، وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبيح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب...، أو يكون لهما في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب[1]).

ولن نحاج الشيخ، في اعتقاده المطلق بالمعاين وجبروتها وسلطتها على الألفاظ فهذا موضوع آخر، وإنما الذي نريد أن نسلكه في هذا السبيل البلاغي والنقدي، هو اعتبار العبارة البلاغية – بخصائصها الكلية والجزئية – من إفرازات الذات المبدعة، وقد فطن إلى هذان الشيخ وهو يسرد براهين الإعجاز في كتابه الدلائل، فيقول، في معرض حديث عن الخبر :

(وجملة الأمر، أن الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، وراجع بها عقله، وتوصف بأنها مقاصد

[1] أسرار البلاغة، ص ٢٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأغراض...)[1]. وفي موطن آخر من الدلائل، وفي نفس الموضوع، يعيد المقولة السالفة على صيغة التأييد، وقوة التدليل، (وإذ قد ثبت أن الخبر وسائر معاني الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسهن ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويرجع فيها إليه، فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشئ لها، صادرة عن القاصد إليها...)[2].

إلا يحق لنا، انطلاقا من المقولتين القاهريتين، أن نصوغ منها عبارة معاصرة بل أن نترجمها إلى المقولة الشهيرة في دنيا النقد والدراسات الحديثة "الأسلوب هو الرجل"[3].وهي مقولة حولت الاتجاه من الجمالي المحض الخالص، إلى الجمالي المسكون بهواجس الذات وقلق الروح. وبمعنى نقدي آخر، جعلت الأسلوب هو الرجل في إبراز الخصائص الفردية عبر قنوات اللغة والفكر. واستشهادنا بالمقولة النقدية، إنما يقف عند حدود الرؤية التاريخية لها دون أن ننساق مع النظريات الجديدة في علم الأسلوب، أو الأسلوبية.

والسؤال بعد هذا التقديم النظري، هل استطاع التستاوتي – عبر تجلياته وعباراته، أن يتجلى لنا، بشخصيته وذاتيته وهو يترسل افتتانا، أو يرسل الرسائل إرسالا ؟

مما شك أن الرجل – وهو الصادق في ما يكتب ويقول ويعتقد – استطاع أن يعبر عن ذاته وذاتيته وقد كان يبدو، من خلال اللغة والتراكيب والعبارة، مضمرا أحيانا وغامضا، وبسيطا أحيانا وواضحا، ومنشرحا تارة ومنقبضا....

---

[1] دلائل الإعجاز، ٢، و ١٨٢. (بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت)

[2] الدلائل، ٢، و ١٩١.

– وانظر، الصيغ البديعي في اللغة العربية للدكتور أحم إبراهيم موسى، ص ٢٢٤ (دار الكتاب العربي) ١٩٦٩.

– وعن المنحى النفسي للبلاغة العربية، انظر مبحث الدكتور محمد خالف الله، في كتابة (من الوجهة النفسية....) ص ١٠٦ ط ٢.

والجرجاني كان الرائد الأول في هذا الربط، سابقا على السجلماسي، كما ذهب إلى ذلك محقق كتاب "المنزع"، ص ١٢١/١٢٠. حيث يقول "مكان السجلماسي الرائد الذي أدرك الفراغ، فاستعد لملئه علما وأدبا ووضوح رؤيا.

[3] انظر، مجلة فصول، عدد خاص عن "الأسلوبية" بحث عن الأسلوب والأسلوبية، بقلم أحمد درويش، ص ٦٠ (المجلد الخامس، العدد الأول، أكتوبر/نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٤).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وحتى العبارة ذاتها لم تأخذ استواء واحد في أسلوبهن فكان يسمو ويسف، ويقوى ويضمن قيما للخطاب ومقامه، وللموضوع أو مقاله.

ومما راع انتباهي داخل هذا المرصد خاصية التضاد التي يحفل بها أسلوب الرجل، خاصة في رسائله القصيرة لنفس والغاية والتضاد في البلاغة والنقد، يأخذ أسماء أخرى كالمطابقة[١] أو "**الطباق**" أو "**التطبيق**" أو "**التطابق**".... وهي مصطلحات تتفاوت لفظا، وتشترك فيما بينها بلاغة ومعنى.

وإن أغلب النقاد والعلماء والبلاغة مجتمعون على الدلالة البديعية التي تحملها تلك الألفاظ، المصطلحات، إلا ما كان من أمر قدامة[٢] فإنه شدغن الجمهور في ذلك.

ولم أر واحد من أولئك أو هؤلاء، من علماء البلاغة والنقد، حاول أن يفلسف دلالة المطابقة، مثل ما فعل السجلماسي، في كتابه الفذ عن "المنزع البديع، في تجنيس أساليب البديع"[٣]، فإنه في باب "الجنس السادس : المظاهرة"، حاول بجهد فلسفي، بين الدلالات المتقاربة والمتجانسة للتضاد والمخالفة والمنافرة، كما يسميها، اعتمادا على النزعة الأرسطية والشمولية النقدية والبلاغية.

ولن نعرض إلى جدلياته حول تأصيل هذه الخاصية أو تطعيمها، كما لن نعرض إلى رده على قدامه الذي خلط بين التجنيس والطباق، بل نكتفي بتعريفه الفلسفي الذي سيساعدنا على فهم الظاهرة والمطردة في رسائل التستاوتي.

يقول السجلماسي، في معرض رده على تخريجات قدامة (فإنه إن كان المعنى الذي نلقبه نحن بالطباق مما يرجع إلى المعاني والمعنى الذي يلقبه هو بالتجنيس، مما يرجع أمره إلى مجرد اللفظ فقط، وكانت المعاني، كما قد أقربه جميع

---

[١] انظر، جذر المصطلح، في رسالة الناقوري عن "المصطلح النقدي في نقد الشعر" وانظر هوامش المادة، ص ٢٢٧/٢٢٩.

[٢] يقول العسكري في الصناعتين "وخالفهم قدامة بن جعفر الكاشف، فقال المطابقة إيراد لفظين متشابهين في البناء والصيغة، مختلفتين في المعنى...)، ص ٣١٦ من الكتاب (الفصل الثاني من الباب التاسع).

[٣] والكتاب من تحقيق الصديق (علال الغازي) كرسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، وقد طبع في دار المعارف طبعة جيدة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأمم، وشهد به كل الناس، وأطبق عليه النظار، وهو ما عليه الوجود، والأمر في نفسه هي مقصودة على المقصد الأول، وأشرف من الألفاظ المقصودة على القصد الثاني، وذلك من الأمر البين بنفسه...)[١]. والذي يهمنا من هذا التحليل في المنزع الفلسفي، هو الربط الذاتي لظاهرة البديعية. وإلا فإن رده على قدامة وغيره مما يطول شرحه. ويقول، أيضا، في البحث عن التعريف بلغة مشحونة بقوة أرسطية واضحة (إنه إن كان وضع الشيئين المنافريين في القول وتركيب القول، من منتاصدين أمرا موجود الآنية، وكان كذلك أيضا اشتراك المعنيين في الفظ الواحد بعينه هو اللفظ المشترك، فلا حجر ولا نكير في تلقيب المعنى الأول أو المعنى الثاني بالمطابقة والطباق على جهة نقل الاسم من الأوضاع الجمهورية إلى المعاني الصناعية...)[٢]. فما العلاقة إذا، بين هذا الموضوع، ومصطلح الإنية الذي رفع القضية من مجالها البلاغي إلى مجال التفلسف العميق ؟ فالآنية، كما يعرفها الجرجاني في التعريفات، هي "**تحقق الوجود العيني من حيث مرتبته الذاتية**"[٣].

وإذا، فإن الطباق، في لغة السجلماسي، إنما يرتكز على العنصر المنافر، الذي يضاد العنصر النقيض الموصوف بالملائمة والتوافق.

والسجلماسي في تعليقه على قولة الأصمعي عن الطباق، والذي تصوره بمثابة (وضع الرجل مع اليد) أراد أن يترجم القولة البسيطة للأصمعي إلى عبارة أخرى، وكأنه قال ، يقول السجلماسي (جماعها التقابل والحال المنافرية)[٤].

وماذا أريد، بعد هذا ؟

إنني أرى أن الإكثار، من إيراد العبارة – في سياق التضاد والمطابقة البديعية ليس مقصود لذاته وبذاته، بقدر ما هو تعبير عن حالة استحكمت في نفس الكاتب، حتى أصبح لا يسوي أوتار أسلوبه إلا على نغمات التضاد، على مستوى

---

[١] المنزع البديع، ص ٣٧٥ و ٣٧٣.

[٢] م.ن.

[٣] كتاب التعريفات، ص ١٥، وانظر عن المصطلح (الأنية) الفهرس الذي أعده محقق الكتاب (المنزع البديع)، ص ١٤٩.

[٤] المنزع البديع، ص ٣٧٦.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الذات والبلاغة معا. أقول، هذا، لأن تبعث العبارة في رسائل التستاوتي – فألقيتها، في غالبية الرسائل على العنصر المنافري كما يقول السجلماسي، والأمر لا يتعلق باللفظة المفردة وحدها بل إن الظاهرة تستوي في التركيب، جملا قصارا ذات إيقاع خاص، تتبعناه ونحن نزن القوة أو الضعف، في إسجاعه الكثيرة.

وإنه باستطاعة الباحث المستقصي، أن يجرد من رسائله معجم الألفاظ والمعاني التي استعملها التستاوتي في سياق العبارة والتضاد المنافر، فالحياة والموت، والفرح والترح، والانبساط والانقباض، والليل والنهار، والسواد والبياض، والظاهر والباطن، والظلمات والأنوار، والنافع والضار، والغنى الفقر، والشفاء والداء، والفراق والبعاد، والمقام والترحال، والنقمة والنعمة، والجد والهزل، والدل والذل، والسلب والعطاء.... إلخ هذه المتناقضات التي تنتظم أحيانا في سلك الأفعال بدل الأسماء. وقلما تخلو رسالة من الثنائيات الضدية.

يقول التستاوتي من رسالته إلى اليوسي : ... وبعد، أماتك الله وأحياك، ثم أماتك وأحياك، واكرم بتجلية محياك، واحصب بمشاهدتك إياه روض محياك، فإني كنت أظن أني كنت، إلى أن أسفرت الشمس، وفاح أرج النسيم من القدس، أيقنت أني ما كنت كما ظنيت ولا حاولت مناولة ما به تغنيت، فانعكس الفرح ترحا، وعاد الترح فرحا، وحصل الاعتدال من الماء الزلال، وما كنت أظن أن العسل يشاب، وراس من لم يبلغ الحنث يشاب... إلخ. الرسالة[1] والتي اقتطفنا منها فقرا مسجوعة، من ذي قبل.

وهذه الرسالة، كما أرى، إنما تعكس الحالة النفسية التي يعيشها التستاوتي لحظة إرسالها أو قبلها. وهذه الحالة، تتقاذفها أمواج المدر واللجزر، اشك واليقين الحيرة والاطمئنان، الإيمان والكفران...، أو أن التستاوتي، كان في حالة فأصبح في حالة أخرى، نظرا "**لانعكاس القضيات واختلاف المرئيات**" كما في الرسالة نفسه، وانطلاقا من هذا التحول، انهالت عليها الصور المضادة والمنافرة (فانعكس الفرح ترحا، وعاد الترح فرحا، وحصل الاعتلال من الماء الزلال). وإذا نظرنا إلى مطلع

[1] نزهة الناظر، ١، و ٣٠، ص ٥٨.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الرسالة، فإن الجملة/المفتاح، فيها مبدوءة بالفعل، "أمات" و"إحياء" على سبيل التكرار والتأكيد...

والجملة/الختام في الرسالة، تؤكد هذا الصراع الدائر في نفسية التستاوتي فألبسه لبوس الطباق والتضاد المنافر، كما يقول السجلماسي : (وادع الله لي، فإني مع كبر سني، ما صليت ولا صمت ولا ارعويت...)[١].

وتأسيسا على ما قلناه من استحكام للحظة فيه، حالة الكتابة، نقرأ هذه الرسالة القصيرة المشحونة بالمطابقة والتضاد، لا تفننا بصورها البديعية، وإنما هي ترجمة للوطأة الشديدة (وبعد، فقد ورد علينا منكم كتاب – وأي كتاب – ؟ رقت إشارته وفاقت عبارته، وعذب مبناه واستلذ فحواه،... فنطقت بلاغته، وأفصحت فصاحته، بما يجمل من الوداد، ويحسن من الاعتقاد، فسرنا وأبكانا، وأسقمنا، وأشفانا، فأعجب لمبك مضحك، ولمبتسم يبكي... وقد وقع من البغي والفساد في هذه البلاد، ما يوجب الانتقام، ويهدم صور التوقير والاحترام) ويختم التستاوتي رسالته إلى أولاد محمد الشرقي، بهذه العبارة الدالة على الحالة التي جعلت رسالته زاخرة بألوان من الطباق والتنافر والتضاد، من السرور والبكاء، والسقم والشفاء (نسأل الله السلامة والنجاة مما يورث الندامة، وعن قلق وشغل بال، وترادف أشجان وأهوال، كتب أخوكم ومحبكم، أحمد بن عبد القادر...)[٢].

ونجد في بعض الرسائل، ما يفيد الإقرار الذاتي، بهذه الظاهرة الضدية، لأن الرجل أعلم بنفسه من غيره، وبالنسبة لنا، فإن الخاصية النفسية التي لخصناه بها، سابقا، هو أنه مزاجي، يخضع لتقلبات القبض والبسط، لا على المستوى الصوفي وحسب، بل حتى على المستوى الاجتماعي أحيانا. وهو كصوفي يعتقد أن من أسمائه تعالى (النافع والضار)، وهما على حد سواء، فالفرح بمقتضى النافع، دون الفرح بمقتضى الضار، نقص في الإيمان، وعدم كمال في المحبة، فالفقر والغنى منه لحكمة جارية[٣]. وهو كأديب وإنسان يحب الجمال والجلال، وانطلاقا من هذين نريد أن نقرأ

---

[١] م.ن والإحالة.

[٢] نزهة الناظر، ١، و ٥٨، ص ١١٤.

[٣] م.ن، ١، و ١٩٣، ص ٣٨٣.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من رسالته التي خص بها أولاد الشيخ يحيى بن علال العمري، معتذرا عما ولع له مع "**الزهرة**" التي تزوج بها من عشرتهم، والرسالة، عرضناها لها بالحديث في الجانب الذاتي من رسائله. لكننا هنا، سنركز على عنصر التضاد في الذات والعبارة معا، لنعلم إلى أي حد، كان الرجل يعيش تحت وطأة الثنائية القاتلة. (وكنا نأمل – يقول التستاوتي – إذا تناولت نحلنا من أزهاركم العطرة الشذا، جاءت بعسل فيه الشفاء من الأذى، فكان ما كان، ووجدنا زهرته على أكمل المراد، وأحسن الاعتقاد، لولا ما كان من دلها الواقع في ذلها، والعذر لها أن الملاح كذلك تفعل بالألباب، وتسلي الأحلام من غير ارتياب، ثم إني والله، لا أدري أمن سكري يلحظها، أوقعت نفسي في البعد من حياضها ؟ أم من عدم شكري لنعمتها، حصلت في فخ فرقتها ؟ أم عاقني عائق يغطي البال، حتى وقعنا في ما نحن فيه من البلبال، أم هي توهمت هزلي في جدي فعوقبت بفقدي...)[1].

وهذا الدور والتسلسل، في إبراز التبريرات، تتحكم فيه مجموعة من المتناقضات، فالزواج من "زهرة" العشيرة العمرية، كان بمثابة الشفاء من الأدنى، لما يعيق به من الشذا إلا أن القانون المنفاري، الفراق بعد اللقاء والبعاد بعد الوصال، والنقمة بعد النعمة. والفقد بعد التملك هو الذي انتصر في نهاية المطاف، ولكل أجل كتاب.

وأن الجملة الأخيرة في العفرة لتوحي بأشياء دالة على نفسية الرجل المزاجي، فقد قال عن الزهرة في تساؤل العارف :

"أم هي توهمت هزلي في جدي، فعوقبت بفقدي"؟ أي أن الزهرة ذهبت ضحية الثنائية الضدية، لا البلاغية، بل الذاتي بالدرجة الأولى. ذاتيتها، وذاتيته". لو ما كان في دلها الواقع في ذلها".

---

[1] النزهة، ١, و ١٩٦، ص ٣٩٠.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأحيانا، يحلو له أن يختم بعض رسائله بهذه العبارات، كما في آخر خطابه إلى القاضي محمد مرينو، (... فكتب كأني ما كتبت، وصرحت لوحت، وكفكفت دمعي، وأنشدت وفصلت وما أجملت...)[1].

كما نجد في بعض الرسائل، جملا وأفكارا، قائمة على مقولة الشيء ونقيضه، وليس من باب التطابق البلاغي، وإنما من باب التحولات والانقلابات التي تعتري الأسماء والأشياء، والظواهر والحالات بل إن الفاعل والمفعول، والضمائر في منظور التستاوتي لا تحتفظ – دائما – بدلالتها النحوية كما وضعت لها من طرف الواضع، وهكذا (فقد يكون الأمر بخلاف ذلك، ويعكس ما هنالك، فيكون الفاعل مفعولا، والضمير المتصل مفصولا، وليس هذا بعجيب قلب السكر سما، والسم سكرا طعما، والحجر جوهرا، وأبا سرحان غضنفرا، ذلك تقدير العزيز العليم)[2]. ولكن التستاوتي لم يكشف لنا عن البدائل التي نسخت فاعلية الفاعل ومفعولة المفعول وأحوال الضمائر، وتحولات الأخلاط والمعادن. وماذا يراد بهذا التوظيف النحوي، في الرسالة التي خاطب بها شخصا، ظل معلقا في حبال الكنية واللقب (من عبد الله إلى أبي عبد الله الأستاذ أبي علي)[3].

إن التستاوتي، لعلي إيمان واضح، بأن الحياة الدنيا، قائمة على جدلية الثنائيات بل أن الكون كله في تعاقب الليل والنهار، وانصرام الظلمات بالأنوار، وانتساخ الحياة الدنيا بالحياة الأخرى، هذا الكون كله تنتظمه ثنائية التضاد النافرة بين السلب والإيجاب. ولا ضير عليه إذا صاح صيحة الحكيم (فبغضا لدينا سرورها كالسراب، ونعيمها سريع الانقلاب، فمن أضحكته أبكته، ومن سرته أحزنته، زخرفها أضعاف أحلام، وملكها مؤذن بالأنصاف على التمام... فما هي إلا غميضة، وهي هجمت علينا عساكر هادم اللذات، ومتيم البنين والبنات، فصيرت العزيز منا دليلا،

---

[1] م.ن، ١، و ١٨٨، ص ٣٧٤.

[2] م.ن، ١، و ٤٩، ص ٩٥-٩٦.

[3] م.ن والإحالة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والقوي منا ضعيفا كليلا، فأما نعيم في حفرتنا، أو عذاب اليم في مقرنا لشقوتنا...)[1]. وحتى في هذا التصور الاعتقادي فإن التضاد البلاغي جاء متساوقا مع جدلية الحياة.

وملاك الأمر، هو أن التستاوتية كان يغلبه التضاد بنوعية البلاغي والذاتي إلا أن الظاهرة البلاغة، هي استجابة لما في حاجات النفس ونبضات الفكر من حركية وتفاعل بين الظاهر والباطن. وهذا لا يعني، أن كل العبارات المتسلسلة في حلقات المنافرة والمطابقة جاءت استجابة للذاتية المتناوحة بين البسط والقبض، ذلك أن الأسلوب أحيانا في رسائل هذا أو ذاك، قد يسقط في أحابيل الصنعة والتكلف، حيث التعامل هو الماسك بالشيء ونقيضه ويمكن أن نلاحظ هذا، في الرسالة الزائية، والتي استوفتنا كظاهرة سجعية لافتة للنظر :

(وبعد، فقد شطت الدار، وانقطعت الأخبار، وما طلعت من سماء المكاتبات شموس ولا أقمار[2] إلخ الرسالة).

وقد حشر فيها التستاوتي – مكبكبا – زمرة من المتناقضات كالظواهر والبواطن والعبيد والأحرار، والحلو والأمرار، والليل والنهار، والغفار والجبار.... فجاءت كما قلنا تضع بعبير السجعات الكهنوتية، وإن كنت أميل إلى الاعتقاد، بأن التستاوتي، كان يتمثل خطبة أمير البيان الموسومة بخطبة البيان[3] ليس في السجعات، وإنما في الموقع الذي تحركه الفواصل القصار وأنا سر الأسرار، أنا شجرة الأنوار... أنا قطب الديجور أنا البيت المعمور).

نكتفي أخيرا بهذا القدر الذي درسنا برسائل التستاوتي، من المنظورين، الوصفي والمعياري النقدي. وما قمت به ليس إلا محاولة اجتهادية يعتريها – لا الصدق والكذب– بل الخطأ والصواب.

وحسبي الله ونعم الوكيل

---

[1] النزهة، ١، و ٥٩، ص ١١٦.

[2] نزهة الناظر، ١، و ١٩١، ص ٣٨٠.

[3] نص الخطبة، نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه عن "الإنسان الكامل في الإسلام" ص ١٣٩. وقد اعتمد المحقق في نشرها على مخطوطات بباريس والنص من تحقيق لويس ما سينيون ذيل به دراسة عن الإنسان الكامل، وقام عبد الرحمن بدوي بترجمة الدراسة في الكتاب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الفصل الرابع

الدليل المفهرس التحليلي لرسائل "نزهة الناظر"

١- جرد إحصائي عام

- من التستاوتي ... وإليه

٢- الفهرس المفصل :

أ- من التستاوتي إلى رجالات عصره (ممن سماهم بأسمائهم)

ب- من التستاوتي إلى غيره (دون التصريح بأسمائهم)

ج- إلى الأولاد والأهل والأقارب

د- والي بعض الإخوان

هـ- إلى بعض ساسة العصر وقواده

و- رسائل عشائرية

ز- رجال العدوتين في رسائل التستاوتي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

جرد إحصائي عام لرسائل النزهة

(رسائلـــه ورسائلهـــم)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١- من التستاوتي إلى الآخرين

المرسل	المرسل إليه	العدد	ملاحظات
التستاوتي	الشيخ محمد بن ناصر	١٨	١١ إلى ولده أحمد (١٢، ١٣، ١٤) لا وجود لها في النزهة. ١٥ إلى أزواج الشيخ محمد بن ناصر، ١٦ إلى ولديه عبد الله وأبي بكر. ١٧ و١٨ إلى ولده أحمد.
" "	أحمد بن محمد بن ناصر الخليفة	٤	لعل بعض رسائل التستاوتي إلى أحمد ابن ناصر لم تسجل في النزهة ذلك أن عدد الأجوبة وعدد الرسائل التي كتبها أحمد بن ناصر إلى التستاوتي يصل إلى ١٤ رسالة وجواب، ماعدا واحدة من الهشتوكي بأمر شيخه أحمد ابن ناصر. مما يدل على أن التستاوتي قد كتب إليه من الرسائل ما يفوق المسجل في النزهة الحافية.
" "	أبو علي اليوسي	٧	إن عدد الرسائل اليوسية على التستاوتي يصل ١٣ رسالة، بزيادة خمس رسائل على رسائل التستاوتي
" "	محمد بن الحسن بن مسعود الأكبر	١	لليوسي ولدان باسم واحد، ولعل أسلوب الرسالة وموضوعها يرجحان أن يكون الماطب هو الولد الأكبر
" "	محمد بن الحسن اليوسي الأصغر	١	في رثاء ولده الأكبر السالف الذكر، والذي توفي عام ١١٠٧.
" "	أحمد بن عبد الله الدلائي الثائر	١	نص الرسالة في البدور الضاوية ( ) وفي النشر ج /٢
" "	القائد عمر الريفي	١	هو نجل القائد أحمد المشهور
" "	عبد المالك بن محمد التجموعتي	١	هي الرسالة الوحيدة في النزهة، وإن كانت الإشارة إليه في الديوان تتكرر.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	العدد	ملاحظات
التستاوتي	أحمد بن محمد الهشتوكي	١	رسالة طويلة، وقصيدة طويلة.
" "	أحمد بن عبد الله وأصحابه	١	على الترجيح أنه صاحب الزاوية المخفية، أحمد بن معن، للتصريح الوافي بأصحابه (اليمني، المهدي، القادي...)
" "	أحمد بن صالح البهلول	١	يصعب التعريف به، ربما يكون واحدا من أتباع التستاوتى.
" "	الشيخ سعيد	١	هو والد بن سعيد العميري، صاحب الفهرسة، وفيها ذكر لجزء من
	العميري		حياة التستاوتي، فقد كان صديقا للوالد والولد.
التستاوتي	أبو زيد عبد الرحمان الفاسي	٢	في الرسالة الأولى يشرك فيها أخاه عبد الله، وفى الأخرى يراسله مفردا.
" "	إلى الأهل والأولاد والإخوان والأزواج وجميع العائلة	١٠	يجمع بين هذه الرسائل، ما يجمع بين رئيس الأسرة وأفرادها، وأغلبها يتراوح بين النصيحة والشوق والتوجيه والإرشاد. كما أن جزء منها وارد إلى الأهل من حبس فاس الجديد.
" "	شقيقه الأكبر محمد التستاوتي	٣	هي رسائل مفردة إليه، مع أنه خوطب في رسائل أخرى عائلية. وقد كان محمد ربانيا رغم أميته، كما يصرح التستاوتى فى حقه.
" "	إبراهيم ولده	٢١	نالت رسائل التستاوتي إلى ولده إبراهيم حصة الأسد، في النزهة، لمكانة الولد إبراهيم في قلب الوالد التستاوتي. ومعظم الرسائل في التوجيه الأبوي/الصوفي. كما أنها – أحيانا– تأخذ الاتجاه الشخصي المحض.ولا ينسى الوالد في أغلبها أن يحضه على العلم والإقبال عليه، والأعراض عن الدنيا. وقد تكون بعض الرسائل كأغلب رسائل التستاوتى صادرة من السجن.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	العدد	ملاحظات
" "	محمد الشريف ولده	٤	أربع رسائل فقط، إلى ولده محمد الشريف الذي توفي في حياة الوالد ضمن بعض هذه الرسائل الأربع يشترك مع الرسائل الموجهة إلى الولد إبراهيم، كالحض على طلب العلم، وفي المراجعة الشعرية، والتشوق إلى الأهل، أيام المحنة.
" "	أولاد الشيخ ابن مبارك الزعري	٢	يعتبر التستاوتي على راس العشيرة المباركية، ولهذا فإن رسائله إلى "آل مبارك" هي بمثابة النصح المبين.
" "	أولاد الشيخ محمد الشرقي	١	تعكس الرسالة حالة من الفتن والاضطرابات التي كانت سائدة في تاريخها
" "	أولاد الشيخ يحيى ابن علال العمري	١	إن موضوع الرسالة كما بيناه، فرد لكشفه جانبا ذاتيا من حياة التستاوتي، وقد تصاهر مع المرسل إليهم
" "	فقراء مراكش الناصريين	١	بعد غياب ابن ناصر – الخليفة – حاول بعض المشائخ أن يحدث تصاعدا بين فقراء مراكش الناصريين.
" "	أهل العدوتين من رباط وسلا	١٧	تصور هذه الرسائل المرحلة الأخيرة من حياة التستاوتي، كشيخ صوفي ذي أتباع وفقراء مريدين. كما أنها تعبير عن نوعية العلاقة بين الشيخ ومريديه، بالتبادل الروحي والطاعة الصوفية.
" "	موسى الراحل الدغمي	٧	يعد أبرز شخصية في رسائل التستاوتي من أهل سلا، بعد الحافي أو هما في كفة واحدة في ميزان العلاقة الصوفية بين التستاوتي وأتباعه من العدوتين وقد يكون موسى الراحل، لمنزلته وكبر سنه أقرب إلى التستاوتي من الحافي. إذ الدغمي يعد من شيوخ الحافي، كما في فهرسة الحافي (ص ١٧ مخ الرباط).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	العدد	ملاحظات
" "	محمد الصبيحي		في موضوع الذكر الصوفي.
" "	محمد محمد مرينو	١	في موضوع النزاع بين الطوائف والفرق الصوفية.
" "	أحمد علي المراكشي وأحمد الدقاق	١	وفيها إشارة إلى السيد مرينو كعتاب.
" "	الحاج مفضل	١	في موضوع السماع وأشعاره وملحوناته.
" "	أبو زيد عبد الرحمن الحصيني	١	في رسم الطريق إلى الله.
" "	بعض الإخوان	٤	أربع رسائل موجهة إلى بعض الإخوان، ولعل المخاطبين لا يجمعون في آن واحد.
" "	فلان بن فلان الفلاني أبو فلان الفلاني فلان بن فلان	١	وراء حجاب الهوية سر لم يكشف عنه التستاوتي، وهو يراسل هؤلاء الفلانيين.
" "	فلان بن عبد الله	١	فهل يكون أحمد بن عبد الله بن معن.
" "	الحسن اسما ومسمى	١	
" "	من غير مخاطب	١	
" "	في الجواب عن بعض الإخوان	١	
" "	عبد الله الحمير	١	جواب قصير عن رسالة طويلة جدا، كتبها عبد الله الحمير ردا على التستاوتي، في موضوع الكبر والتكبر، والذي أجاب عنها، انتصار العياشي التستاوتي.
" "	عبد السلام بن أحمد اليومراوني	١	الرسالة في شكل وصية جامعة للخير والصلاح بكل العاملين بها (كالمحافظة على الذكر والفروض والنوافل) والمخاطب من أتباع التستاوتي ومن الذين هاجروا أوطانهم في سبيل صبحته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

١- إلى التستاوتي من معاصريه

المرسلون	التستاوتي	العدد	ملاحظات
الشيخ محمد بن ناصر	" "	١٨	الرسالة رقم ٦/٩/١٠/١٢/١٣/١٧/١٨، كجواب من أحمد بن محمد بن ناصر نايبة عن والده، أملأ منه أو أنشاء. أما رقم ١٥ فهي من محمد بن الحسين بن ناصر. والرسالة رقم ١٦ من ولدي ابن ناصر، عبد الله وأبي بكر وكلها، بالنيابة.
أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي	" "	١٤	تبدأ هذه الرسائل مجراها، عقب وفاة الشيخ محمد بن ناصر. وقد أرسلها أحمد بن ناصر إلى التستاوتي، في ظروف متراوحة تتخللها فترات الفتور بين الرجل ومراسله. والرسائل تعكس، في مجملها قيمة العلاقة الصوفية بين التستاوتي وخليفة شيخه الكبير من بعده. وقد كادت هذه العلاقة تذهب مع الأقاويل والظنون، كما توضح ذلك مراسلات الطرفين. أما الرسالة رقم ١٤ فهي من الهشتوكي أحمد بن محمد، بأمر شيخه والباقيات كلها من توقيع أحمد بن ناصر.
الحسين بن ناصر	" "	١	هي الرسالة الوحيدة، من شقيق الشيخ الكبير، وقد كتبت أيام الشيخ بالإشارة المبينة مسطوره. وهي بين مدى اشتداد الأزمة على اليوسي في فترة من فترات التاريخ السياسي المضطردة. وفيها يشهد الحسين بن ناصر أن التستاوتي ولي الله حقا، مما جعل اليوسي يستظرف الشهادة بأبيات مجزوءة.
أبو علي اليوسي	" "	١٣	حبل المراسلة يمتد في حياة محمد بن ناصر. ورسائل اليوسي إليه تخفي وراء ألفاظها أشياء شخصية عائلية. كما أنها تعكس الجو السياسي المضطرب الذي أحاط بحياة اليوسي أيام انحسار السلطة الدلائية، وتخوفات السلطة من نفوذ اليوسي الاجتماعي والعلمي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسلون	التستاوتي	العدد	ملاحظات
محمد اليوسي الصغير	" "	١	الرسالة كتبت بعد وفاة اليوسي كجواب عن رسالة بعث بها التستاوتي – إليه – ناصحا ومرشدا.
محمد بن أحمد القسنطيني	" "	٧	سبع رسائل صادقة اللهجة، يرسلها عالم كبير إلى (العارف بالله) التستاوتي، كما يحليه المرسل في كل صدر من رسائله، كما أن الرسائل – في بعضها – مواساة حقيقية للتستاوتي وما حل به، من سجن، أو وفاة ولده محمد الشريف. والملاحظة الواجبة الذكر هو أن كتاب النزهة لم يسجل إلا رسالة واحدة من التستاوتي إلى الفقيه القسنطيني، في حين أن سائل هذا إليه تصل إلى ٧.
عبد الرحمن الفاسي	" "	١	في الجواب على رسالة التستاوتي، بتاريخ ١٠٩٥، أي قبل وفاة المرسل بقليل.
أحمد الدلائي	" "	٢	رسالة قصيرة، كتوبة منه، بعد ثورته على السلطان إسماعيل، بعد رسالة أخرى قبلها في موضوع الثورة.
عبد الله بن محمد القاضي الشنقيطي	" "	١	والنزهة خالية مما يفيد أن التستاوتي راسله، إلا أن يكون عبد الشنقيطي ممن شملهم الخطاب باسم عبد الله، أو فلان بن فلان... ورسالة هذا تؤكد أن التستاوتي راسله (من حضرتكم المعمورة) ولعلها مكناسة...
أبي علي المدغري	" "	١	وما قيل – من ملاحظة – في الشنقيطي، يقال كذلك في رسل هذا، فبيس في النزهة رسالة من التستاوتي باسمه الصريح (المدغري) (أما ما ذكرت من دعوى المحبة....)
موسى الراحل الدغمي	" "	١	رسالة واحدة من المرسل، توازيها سبع رسائل من التستاوتي، ولعل غيرها مثبت في مظان أخرى.
محمد بن عبد الله الحمري	" "	١	والمرسل من الفقراء الناصريين من أهل مراكش، وقد راسلهم التستاوتي أيام تصدع الطائفة الناصرية في مراكش.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسلون	التستاوتي	العدد	ملاحظات
عبد الله الحمير	" "	١	رسالة طويلة، في موضوع الكبر والتكبر، موجهة إلى التستاوتي، وتوجد – مخطوطة – ضمن مجموع، في الخزانة العامة (د/١٨٤٥).
إبراهيم التستاوتي	" "	٥	خمس رسائل فقط، من ولده إبراهيم، موزعة في النزهة، والحالة أن والده راسله بأزيد من ٢٠ رسالة. وقد تكون رسائل إبراهيم في مظان أخرا، أو في مخطوط غير هذا.
علي بن سعيد الحاج محمد عبد الرحمن اليعقوبي	" " " " " "	١ ١ ٢	هؤلاء الثلاثة، من أتباع محمد بن ناصر، ومريديه، كانوا يراسلون التستاوتي.....، والرسائل الأربعة كلها تنويه بمقام التستاوتي لدى شيخه ابن ناصر، وما كان به في حقه. أما رسالة اليعقوبي، فإنه يخاطبه فيها، بأنه خليفة الشيخ (إلى وخليفة شيخنا الفقيه الزاهد....) النزهة ١، و ٢٢، ص ٤١/٤٢.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من التستاوتي إلى معاصريه :

أ- ممن سماهم بأسمائهم :

- محمد بن ناصر الدرعي
- أحمد بن محمد بن ناصر
- أحمد بن محمد الهشتوكي
- عبد الملك بن محمد التجموعتي
- أبو زيد عبد الرحمن الفاسي
- سعيد بن أبي القاسم العميري
- الأستاذ الحسن بن مسعود اليوسي وأولاده
- رسالة إلى الشيخ أحمد بن عبد الله بن معن وجماعته

ب- ممن لم يسمهم بأسمائهم :

- إلى فلان بن فلان – إلى أبي فلان
- إلى فلان بن عبد الله
- إلى بعض فضلاء الوقت
- إلى بعض الإخوان
- إلى عبد الله،ن الأستاذ أبي عبد الله
- إلى فقراء مراكش الناصريين

ج- رسالتان سياسيتان :

- أحمد بن عبد الله الدلائي
- القائد عمر بن أحمد الريفي

د- إلى الأولاد والأهل وبعض العشائر :

- إبراهيم التستاوتي ولده – محمد الشريف ولده – العياشي التستاوتي شقيقه – محمد الحاج شقيقه – أولاد الشيخ محمد بن مبارك الزعري – أولاد الشيخ محمد الشرقي – أولاد الشيخ بن علال العمري.

هـ- إلى أهل العدوتين :

- موسى الراحل الدغمي – محمد الصبيحي – محمد بن محمد مرينو – أحمد بن علي المراكشي – ... إلى أهل العدوتين ..... إلخ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
التستاوتي	محمد بن ناصر الدرعي	١، و ١٧، ص٣٢	صوفي	١	يعري نفسه لشيخه الصوفي، كأنه مذنب يتعرض لنفحات التوبة على يد ابن ناصر.
" "	" "	١، و ١٧، ص٣٢ ١، و ١٨، ص٣٣	اجتماعي	٢	يشكو إليه فقره، وكاد أن يمد يده طلبا للعون
" "	" "	١، و ١٨، ص ٣٤ ١، و١٩، ص ٣٥	اجتماعي صوفي	٣	وفيها يشرح للشيخ حالته العائلية، وأن له ثلاث زوجات وله بنت زوجها من سيدي الحسن اليوسي، وفي الرسالة طلب للتوبة واستشراف على الدنيا.
" "	" "	١، و ١٨، ص ٣٤ ١، و١٩، ص ٣٥	" "	٤	يرجوه فيها – بحق الربوبية– أن تتحقق له أمور الدنيا والآخرة
" "	" "	١، و ١٩، ص ٣٥	صوفي	٥	يستفسره فيها عن مدلول البشارة التي بشر بها في رسالته إليه.
" "	" "	" "	" "	٦	وفيها يخبره بأنه "

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

					ناصري" الطريقة بدون قيد أو شرط.
" "	" "	" "	١، و ١٩، ص ٣٦	٧	يستأذنه في تطويق أهل بيته كافة، بالسلسلة الناصرية.
" "	" "	صوفي ذاتي	١، و١٩، ص ٣٦ ١ ، و ٢٠، ص ٣٧	٨	استفهامات سبع، تهتاج ف صدره، يطرحا أمام شيخه، وهي معجونة بماء الحيرة وعرف التساؤل المحض.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	" "	" " "	" "	٩	وفي الرسالة إشارة إلى أن نسخة الكتاب التاسع بقيت عند الشيخ ابن ناصر.
" "	" "	١ ، و ٢٠، ص ٣٧ ١ ، و ٢٠، ص ٣٨	صوفي ديني	١٠	وفي الرسالة إشارة إلى اليوسي، وعلى المراكشي والتاجموعتي. والتستاوتي يسترضي شيخه ابن ناصر، من أجل الدعاء الصالح له ولأصدقائه وإخوانه المذكورين طيه.
أحمد التستاوتي	أحمد بن محمد بن ناصر (في حياة والده)	١، و٢٠، ص ٣٨	صوفي	١١	والرسالة استبشار كلي للبشارة التي ضاع كتابه وهي مشفوعة بأبيات من الشعر في موضوع خلع الأثواب للبشارة الصوفية، على غرار قول ابن الفارض.
" "	" "	١، و٢١، ص ٣٩ " "، ص ٤٠	" "	١٢	والتستاوتي يستنوب فيها أحمد بن ناصر ليزور والده نيابة عنه، وإسماعه أبياتا شعرية.
		١، و٢١، ص ٤٠ ١، و٢٢، ص ٤١		١٣	وطابع الإلحاح باد في الرسالة، لأن التستاوتي يستعجل البركة والدعاء الصالح.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	أحمد بن محمد بن ناصر (بعد وفاة والده)	١، و٦٠، ص ١١٧ " "، ص ١١٨	استعطاف	١٤	يحاول التستاوتي في هذه أن يربط جسور الماضي بالحاضر، في العلاقة الصوفية والإخوانية التي تجمع بين الرجلين بعد أن غاب الشيخ الكبير عن الوجود، واستخلفه أحمد ولده. والتستاوتي يذكر مخاطبه بالصورة الأخوية التي نسجها الشيخ الكبير للأخوين المتحابين حيث آخى بينهما على وفاق الأبوة الروحية.
" "	" "	١، و٦٦، ص ١٣٠ ١، و٦٧، ص ١٣١	حول واقعة المحنة والسجن	١٥	الرسالة كتبت بعد وفاة اليوسي، ولعلها كتبت في السنة الأولى التي سجن فيها الرجل وقد شاع في فاس (فأهل فاس يقولون نحن سجناه... إلخ) وقد أورد في طي الرسالة فقرات من رده على أهل فاس (وللمزيد من التوضيح يرجع إلى الفصل الذي كتب عن محنة التستاوتي وجذورها).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	" "	١، و٤٨، ص ٩٤	إخواني صوفي	١٦	تاريخ الرسالة ١١٠٢ وهو تاريخ يسجل التعثر الذي أصاب العلاقة بين الرجلين، والحالة أن التستاوتي راسل الهشتوكي في الموضوع، في هذه السنة ليشرح له الحال، واليوسي على قيد الحياة. وبسبب الصراع على المشيخة الصوفية بين اليوسي وأحمد بن ناصر، فقدج انقطع حبل المراسلة بين التستاوتي والخليفة أحمد. وقد كان هذا ينتصر لليوسي.
أحمد بن عبد القادر التستاوتي	أحمد بن محمد بن ناصر	١، و٦٧، ص ١٣١	عتاب صوفي إخواني	١٧	تاريخ الرسالة ١١٠٨ أي بعد الخروج من المحنة بسنتين والتستاوتي يستفسر ابن ناصر – في عتاب صوفي – عن أسباب الانقطاع في حبل المراسلة بين الأخوين المتحابين قديما، وفي الرسالة مثل هذه العبارة (فهذا رابع كتبي إليكم أو خامسها....)، مما يفيد بأن النزهة، التي اعتمدناها، لا تتوفر على المجموعة التي راسل بها أحمد بن ناصر، وقد اشرنا إلى رسالة من هذا القبيل في النسخة الملكية(ينظر في الصفحات التي تناولت الفروق بين نسخ النزهة، من هذا البحث).

المرسل	المرسل إليه	الرسالة	موضوعها	العدد	ملاحظات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

		في النزهة		الترتيبي	
" "	إلى ولدي الشيخ محمد بن ناصر عبد الله وأبي بر (في حياة والديهما)	١، و ٢١، ص ٣٩ " " ص ٤٠	في التقرب من الشيخ ابن ناصر	١٨	والرسالة قصير، يطلب فيها التستاوتي من ولدي ابن ناصر أن يتوسطا له لدى الوالد من أجل الدعاء الصالح.
" "	أزواج الشيخ ابن ناصر	١، و ٢١، ص ٣٩	" "	١٩	والمدار في الرسالة السابقة والرجل حديث العهد بالناصرية الصوفية، وقد بينا في الفصل الأول من هذا البحث الحالة النفسية التي كان عليها التستاوتي وهو قاب قوسين من البوابة الناصرية المفضية إلى عالم الصوفية.
أحمد بن عبد القادر التستاوتي	أحمد بن محمد الهشتوكي	من و ٤٢ إلى ٤٧ من ص ٨١ إلى ٩٢	صوفي ذاتي	١	وهي أطول رسالة يكتبها التستاوتي، وقد اشتملت على موضوعات صوفية وأخرى دينية عامة. كما أنها تميزت بالنصوص الصوفية التي نقلها التستاوتي من مصادر مختلفة. وعن موضوع الرسالة الاساسي، فإن التستاوتي لم يخف – في البداية– الباعث على الكتابة، خاصة وأن

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
أحمد بن عبد					تاريخها ١١٠٢ هو قريب من تاريخ وفاة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

القادر التستاوتي (تابع)					اليوسي. وقد حللنا خلفيات الرسالة في أكثر من فصل من هطا البحث (في العلاقة بين التستاوتي وأحمد بن ناصر، في استخلاص الجانب الذاتي من رسائل الستاوتي). ولعل الهشتوكي حاول أن يربط بالخيط الأبيض بين الرجلين التي فصلت بينهما حينا الوحشة المصطنعة. وقد صدرها التستاوتي بما يزيد على ٤٧ بيتا، على غرار النفس الحكمي لزهير بن ابي سلمى ونظرا لقيمة الرسالة فإن الطلعة للناصري ٤٣/٢، قد اعتمدتها في سياق الحديث عن ابن ناصر أحمد.
" "	عبد المالك بن محمد التجموعتي	١، و ٥٧، ص ١١١	في موضوع نحوي	١	رسالة طريفة، مصدرة بـ ٨ أبيات (ولنا في بعض المخاطبات للشيخ أبي مروان السيد عبد الممالك بن محمد التجموعتي...) والرسالة تدخل في باب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

					المطارحات النحوية.

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	إلى الأخوين أبي زيد عبد الرحمن الفاسي وأخيه أبي عبد الله	١، و ٣١، ص ٦٠	صوفي	١	تاريخ الرسالة ١٠٩٥، أي قبل وفاة المرسل غليه (عبد الرحمن الفاسي) بسنة واحدة، والتستاوتي في رسالته يشيد بالطريقة الفاسية وشيخها عبد القادر الفاسي، وبالناصرية وشيخها ابن ناصر.
أحمد التستاوتي	ابي زيد عبد الرحمن الفاسي	١، و٣٢، ص ٦٢	إخواني صوفي	٢	هي جواب على رسالة المرسل إليه وقد صدرها التستاوتي بأبيات شعرية تأملية صوفية. وأما أسلوبها إيحائي استعاري، تعبيرا عن الإعجاب برسالة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

					أبي زيد الفاسي، (ولا بد للشمس من سحاب، وللحسناء من نقاب، فحمتني الأنوار من تناول الأزهار) وعن تاريخ الرسالة فهو ١٠٩٤.
" "	سعيد بن أبي القاسم العميري	١، و٦٠، ص ١١٨	" "	١	إن المخاطب هو العميري الوالد، وليس ولده صاحب الفهرسة، كما يؤكد ذلك تاريخها ١١١٠، ولد وهم بعض الباحثين في نسبة الفهرسة إلى أحد العميريين (بروفنسال- والسيدة فاطمة القبلي...). وعن موضوع الرسالة فهو إخواني، كتب بأسلوب إيحائي (أما بعد فلا بعد بعد بعد، ولا قبل قبل قبل).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	اليوسي	١، و ٧٨، ص ١٥٤	استفسار عن جمل بربرية	١	رسالة قصيرة جد، تحمل تاريخ ١٠٨٨، وقد طلب منه مستفسرا، أن يشرح له ما في سطر مكتوب باللغة البربرية، وهو يحمل معنى مقصودا، وقد جاء جواب اليوسي بما يشبه لسان الحال، لأن السطر البربري في معناه جاء كتعبير عن حالة اليوسي وحالة الوضع الاجتماعي، يقول التستاوتي : (أيها الشيخ المتفنن الجامع، المعتني بشرح جمع الجوامع... أحمد بن عبد القادر يلتمس منك شرح هذا الكلام الموزون العجمي... وقد كتبته وأنا غير متقن اللسان البربري)، وأما نص البيت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العمري فهو : (أيشن أران يوغني يجلسني، أنريمايك ثراد أنجماوني)...					

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	" "	١، و٢٩، ص ٥٥	تعبير عن حالة ألمت به	٢	تاريخ الرسالة هو ١٠٩١، واسلوبها لا يفصح عما تخفيه الكلمات (ماذا يصنع المرء بأخيه إذا لم يجده في الشدائد...). وقد صدر التستاوتي رسالته بمجزوءة شعرية. وقد تحدثنا عن الوضع الاجتماعي والسياسي الذي كان فيه اليوسي وصديقه التستاوتي، في حالة مراقبة ومتابعة وترحيل، على امتداد أعوام التسعين.
" "	" "	" "	رسالة شعرية	٣	وهذه الرسالة هي من بنات أعوام التسعين ايضا ١٠٩٥، وهي غماضة في معانيها، خاصة وأنها قد انتظمت في ابيات شعرية، يحن فيها التستاوتي إلى الذي سيأتي عبد المجهول... ويجب أن نربط هذا التطلع بما كتبه التستاوتي في بحر هذه السنة وما قبله، وأبرز ما كتب رسالته عن المهدوية (ينظر ما كتبه التستاوتي في بحر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

					هذه السنة وما قبلها، وأبرز ما كتب رسالته عن المهدوية (ينظر ما كتب عن الجانب الاجتماعي والسياسي في رسائل التستاوتي، من هذا البحث).

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	" "	١، و ٢٨، ص ٥٣ " "، ص ٥٤	انفجار ذاتي	٤	(أبث لك سري، وأحدثك بما يكنه صدري...). على هذه الوثيرة يسترسل الخطاب في الرسالة التي تكشف عما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

					تركته الاضطرابات والفتن من حالة الاستقرار (وعما قريب ينجلي الغمام). كما أن الرسالة متضمنة لأخبار عائلية، وبين الرجلين قرابة ومصافاة ومناجاة...
" "	" "	١، و٣٠، ٥٧	مراجعات إخوانية	٥	يستهل التستاوتي رسالته بعبارة (ولما تباينت أفهامنا ولم تتقارب أوهامنا راجعته...).
" "	" "	١، و٣٠، ص ٥٧ ١، و٣٠، ص ٥٨	صوفية إخوانية	٦	تمتاز هذه الرسالة بجملها القصار وهي مخللة بأبيات من شعرهن وهي من الرسائل التي يتعرى فيها المرسل، فيعترف ويبوح : (وادع الله لي، فإني مع كبر سني ما صليت ولا ارعويت...). وقد تعرضنا لهذه الرسالة حين رسمنا للتستاوتي الصورة الصوفينفسية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	" "	١، و٦٩، ص ١٣٥ ١، و٦٩، ص ١٣٦	في التعبير عن حالة ذاتية	٧	يخاطبه بعبارة : " إلى سراج الملة وشيخ الحلة...". ويطبع الرسالة طابع الصدق، كما أنها تكشف عن أزمة يعيشها الرجل، فيحترم بحرم شالة (إذا ظلمت استحي أن أدعو على ظالمي بسوء.. وأما إذا ظلم غيري فإني أكره ذلك..). ولا يمكن فصل الرسالة عن فضائها الاجتماعي والسياسي الذي كان يغطي المحيط الزمني لها، وقد تكون الرسالة من بنات أعوام التسعين. **<u>ملحوظة</u>** : إن عدد السائل اليوسية إلى التستاوتي يفوق ما هو موجود في النزهة من رسائل التستاوتي إلى اليوسي، وهناك جمل في رسائل اليوسي تفيد بأن البعض منها جاء كجواب عن رسائل تستاوتية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	محمد بن الحسن اليوسي	١، و٥٧، ص ١١١ ١، و٥٧، ص ١١٢	في الجدل الصوفي	١	قد أشرنا في باب العلاقة بين اليوسي والتستاوتي إلى هذه الرسالة، والتي هي تعبير عن "سوء تفاهم" حصل بين الرجلين بسبب النزاع الصوفي والتسابق على المشيخة وتزيع الأوراد. وهكذا يكتب التستاوتي هذه الرسالة إلى ولد اليوسي (وبأي وجه يغضب والدك على من لم يصله من أصحاب الشيخ.)
" "	" " الصغير	١، و٥٧، ص ١١٢ ١، و٥٧، ص ١١٣	في التعزية وإسداء النصح	١	إن الرسالة كتبت خلال عام ١١٠٧ على الترجيح لأن ولد اليوسي الأكبر كان حيا يرزق قبل التاريخ المذكور، وفيها يقف الرجل موقف الأب النصوح (وبئس الرجل من يقول كان أبي...)
" "	على ولد أخيه (مني لابن	١، و٦٣، ص ١٢٣	في العتاب	٢	المرسل إليه غير واضح الهوية، إلا أن الترجيح غالب على أنه من أبناء

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

	أخي)				اليوسي كما تفيد المقارنة بين إشارة فيها، وما في قسم الأشعار ٢، و٥٠، ص ١٠١، وبين الإشارتين خلاف بسبب امرأة وما حولها من خبر السوء

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

" "	رسالة جماعية أحمدبن عبد الله أحمد اليمني السيد المهدي أحمد القادري عبد السلام القادري محمد بن عبد الرحمن ...إلخ	١، و٧٧، ص ١٥٢	صوفي طرقي	١	كتبت الرسالة بتاريخ ١٠٩٠، وقد أدرجنا هذه الرسالة في باب المراسلات الصوفية، حيث أن المخاطبين يشكلون "طائفة صوفية"، تنتمي إلى أحمد بن عبد الله بن معن صاحب الزاوية المخفية. وضمن هؤلاء من كان له صيت في عصره، (عبد السلام القادري – السيد المهدي الفاسي وهما من مؤلفي العصر في كتب المناقب. وجميع المخاطبين ترجم لهم بالسياق أو بالاستطراد صاحب "المقصد أحمد" الذي هو من ضمن المخاطبين. وقد جاء في الرسالة (ونحن والله، بحسب الظاهر قد تعرضنا للفتن، وقد خشينا أن نكون من المستدرجين...).
" "	إلى فلان بن فلان الفلاني وفلان بن فلان الفلاني	١، و٣٩، ص ٧٦	صوفي طرقي (الجدل الصوفي)	٢	قد أشرنا إلى هذه الرسالة في موضعين – من هذا البحث – حيث كشفنا عن هوية المرسل إليهم بواسطة الطرر والتعليقات التي جاءت في إحدى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

					نسخ النزهة. كما تعرضنا إليها في سياق الحديث عن السائل ذات المحور الجدلي الصوفي. فالسيد الأول هو

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
(تابع)					أحمد اليمني، أما السيد الثاني فهو أحمد بن عبد الله المشار إليه قبل (رقم ١). وجاء في الرسالة (أما بعد، فما بال أقوام سبقونا بألسنتهم الحداد).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

" "	إلى أبي فلان الفلاني	١، و٤١، ص ٧٩	شخصي	٢	وعلى غرار الرسالة السالفة، جاءت تعليقات الحافي وطرره على إحدى النسخ لتكشف عن هوية المرسل إليه الذي هو السيد أحمد اليمني المدرج في الرسالة السالفة مع أحمد بن عبد الله والرسالة قصيرة، وفيها إشارة إلى أن المرسل التستاوتي عازم على زيارة مراكش.
" "	إلى فقراء مراكش	١، و ٢٠٠، ص ٢٩٨	صوفي طرقي	١	إن الدائرة التي تدور فيها محاور الرسالة، لها ارتباط بالطريقة الناصرية، ولقد كتبها التستاوتي إلى الطائفة المراكشية عام ١١٢١، حيث كان الخليفة أحمد بن ناصر في حجته كما أشار إلى ذلك صاحب "الطلعة" (١١٣/٢). وموضوعها اشرنا إليه في سياق الجدل الصوفي.

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
أحمد بن عبد القادر التستاوتي	فلان بن عبد الله	١، و٥٠، ص ٩٧	حول محنة التستاوتي	١	(وقد وقع بنا ما وقع، وثبت من ثبت، وفزع من فزع..) إنه تعبير مؤشر عن خلفية الخطاب. وفي هذه الرسالة، التي أرسلها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

					إلى "فلان بن عبد الله " وإذا ما استبدلنا لفظ (فلان) فإن البديل الترجيحي هو أحمد، حيث يتحول المرسل إليه إلى مجال المعلوم "أحمد بن عبد الله " وقد جدولنا بعض رسائله. أما أسلوبها فيغلب عليه السجع الصوفي الذي يمتاح من أودية الإشارات والتنبيهات، (وكل ما ذكرنا من غير التباس، حيث يكون الظالم من رعاع الناس، ... لا سيما لكل عبد مالكي المذهب، يعرف في تصرفاته أين يذهب...)
" "	فلان بن فلان	١، و٥٠، ص ٩٨	حول المحنة	١	رسالة طويلة تسللت من إخراج القضبان، في حبس فاس، كما يشير إلى ذلك تاريخها ١١٠٥، وعباراتها الصريحة (وما يذكر من أن صاحب الوقت – في زعمهم – هو الذي أوقع بنا ما وقع... ولا ينبغي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
(تابع)					لصاحب الوقت أن تكون قاصرة، فيغير المنكر في زيد، وقد اشتهر عمرو وخالد وبكر بالفساد وتنتهي الرسالة بأبيات من المنفرجة" لابن النحوي" دلالة على أن صاحبها مشدود إلى بوارق الفجر القريب).
" "	إلى بعض فضلاء الوقت	١، و٤٠، ص ٧٧	الجدل الصوفي	١	تاريخ الرسالة يوافق ١٠٩٢ وأسلوبها عتابي الدلالات (فمتى أبيح لك ثلم الأعراض، وأعطي لك معالجة الأمراض) ولعل المخاطب من دوي الفضل والعلم، ولا يمكن الجزم بهويته لانعدام القرائن والمؤشرات الدالات.
" "	إلى عبد الله	١، و٤٩،	صوفي	١	من الصعب تحديد هوية "ابي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

	الأستاذ أبي علي	ص ٩٥	إشاري		علي " في الخطاب : – هل هو أبو علي اليوسي؟ – أو أبو علي المعداني؟ والرسالة في استهلالها رمزية الدلالات لتوظيفها المصطلحات النحوية في الإبلاغ (أما بعد، فإن رفع

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
(تابع)					الفاعل ونصب المفعول به وجر المخفوض به، ونيابة المفعول به عن الفاعل على القاعدة النحوية فيما يظهر ليتوازن الكلام، ويصلح معناه، ويشرق من سحاب الحق كوكب فحواه، فقد يكون الأمر بخلاف ذلك...) ومن هذا المنطلق الوظيفي تسترسل الرسالة في موضوعها الصوفي الغموض : "ثم إني أفوض أمري إلى الله، وأشكو بثي وحزني إليه " هذه العبارة كافية لفهم الغاية.
" "	إلى الحسن اسما ومسما	١، و٦٢، ص ١٢١	حول المحنة	١	تدخل الرسالة في سياق المحنة وما تركته من عبرا، وقد أومأ لنا إلى أولئك الذين أظهروا نوعا من التشفي، كموقف آلم الرجل السجين. وفي الرسالة غشارات إلى حالة التستاوتي الاجتماعية والاقتصادية : " وبلغه أنه من جملة ما أنكره على فلان كونه له كذا زوجات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

					وأماء... وهذا مما يعاب على أهل المعرفة". والرسالة تحمل تاريخ ١١٠٥ وهو العام الثاني من إقامة التستاوتي ف يحبس فاس....

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	إلى بعض الإخوان	١، و٦٢، ص ١٢٢	" "	١	رسالة قصيرة جدا، مصدرة بـ ٦ أبيات صوفية المنزع والموضوع، لكن موضوعها المباشر، له مساس برياح المحنة التي عصفت على الرجل "فإن كنتم، يا هؤلاء ابصرموني في لجة من الماء فقد رأيتني في مستوقد من الظماء، فعاجلونا فقد بلغ السيل الربا.. وبالإضافة إلى مشربها الصوفي الذاتي، فإن العبارة فيها مسجوعة وإشارية الدلالات.
" "	" "	١، و٥٧، ص ١١٢	" "	١	(ومما كتبته لبعض الإخوان ونحن بفاس). بهذا استهل التستاوتي رسالته إلى من اسماه "بعض الإخوان". والقارئ يستطيع أن يتقرى من خلال عباراتها ذاتية التستاوتي وهي تغلي كالمرجل، لما لموضوعها من حساسية مصيرية : (أما بعد، فقد وقع ما وقع وفيه منفع ومدفع ومنزع، ومرتع ومجمع ومقرع ومنجع، ومتبع ومسمع...) من العبارات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

					الدالات فيها : (وإن ادعيتم أنكم واليتم وعاديتم بحسب المآل، من غير نظر منكم إلى الحال....).

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	" "	١، و٣٦، ص ٨٠	في الجدل الديني	١	والرسالة تعكس الصراع بين أهل الظاهر وأهل الباطن، وبالرغم من عدم الإفصاح عن هوية المرسل إليه، فإن التستاوتي في ابياته التي مهد بها لرسالته الناصحة كشف اللثام عن الاسم الشخصي (وإنك عندي يا علي مبجل...) ويبقى هذا ال"علي" معلقا بين كل اسم يحمل نفس العين واللام والياء. والرسالة كجواب عن رسالة ألمت التستاوتي بألفاظها ومعانيها، كما أن الرسالة تحمل بعض التقاسيم الاجتماعية والاقتصادية. (وأولاده وعياله يمكثون الشهر ونحوه بغير حناء ولا صابون، ولو قدر رحيله لم يجد ما يحملهم عليه...).
" "	" "	١، و٨٨، ص ١٧٣	صوفية	١	هي الرسالة الأخيرة في قسم الرسائل من نسخة تطوان، وبعد تأتي واردات العياشي الصوفية ومن جمل الرسالة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

					الصوفية قول التستاوتي ك " القلب بيت الرب، فلا يجوز إشراك الشريك فيه".

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	دون تصريح (لا كناية ولا لقبا)	١، و٤١، ص ٧٩	اضطراب القيم	١	ومن عبارة الرسالة : "وأنت منا كوالدك منك..." ومنها : "وقد صحبنا أقوام من قومك..."، مما يدل على أن المرسل إليه غير مجهول وإنما معلوم وأسلوب الرسالة يتساوق وموضوعها الذي لا يكاد يبين (لكن أظلم الوقت، وكثر المقت، والتبس الصالح بالطالح، وعاد السكر سما، والفرج هما).
" "	من غير مخاطب	١، و٦٥، ص ١٢٧		١	رسالة قصيرة، مصدرة بأبيات لها دلالة استعارية، وعن موضوعها نقرأ ما يلي : "وبعد، فقد عز الطالب، فامتنع المطلوب، وانتقل الشارب، فتعطل المشروب، ومن جد امتطى ذروة المجد). والرسالة عارية من التاريخ.
" "	جوابا عن رسالة بعض الإخوان	١، و٦٤، ص ١٢٦	في الفتن واضطراب الزمن	١	جاءت رسالة قصيرة إلى التستاوتي مثقلة بالدلالات والهموم والأحزان (وأما ما لحقنا – يقول لفظ الرسالة – وعم البلاد والعباد، لا يسع ذكره قرطاس، ولا يبقى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

					مجالا للأنفاس).

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
					أما جواب التستاوتي، فغير واضح في موقفه ولفظه ومعناه : شريعة الحب لم تأذن برقدتنا وكيف نرقد والأحباب ما رقدوا إلخ . الجواب/ فهل من تطابق بين الرسالة وبين الجواب، والحالة أن المرسل غليه وحالة البلاد والعباد كما وصف، وبين جواب الستتاوتي الغارق في بحران التجريد.
" "	أحمد بن عبد الله الدلائي "الثائر"	١، و٣٥، ص ٦٧	حول المطالبة بالملك والثورة على السلطان	١	إن تاريخ الرسالة ١٠٨٩ هو ناطق بموضوعها، لأنها صادرة عن دلائي "ثائر" خرج عن السلطان الشرعي، يريد استرجاع السيادة الدلائية. والرسالة هي جواب عن رسالة بعثها الثائر إلى التستاوتي طالبا منه الوقوف إلى جانبه، لكن جواب التستاوتي كان قاطعا : "ولا أرضى لك ملك الدنيا بحذافيرها، وتجنب ما تراود به نفسك...). والرسالتان في عدة مصادر أبية وتاريخية وقد حللنا أبعادهما في الدراسة التي خصصناها لرسائل التستاوتي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	العدد الترتيبي	ملاحظات
" "	القائد عمر بن أحمد	١، و٤١، ص ٧٩ ١، و٤١، ص ٨٠	في النصح الديني والسياسي	١	وفي نفس السنة التي مات فيها الثائر الدلائي ١٠٩١، كاتب التستاوتي القائد عمر بن أحمد الريفي، وقد كن لهذه العائلة مكان ملحوظ في ساحات الوغى. ورسالة التستاوتي جاءت كرد على الممارسة السلطوية القاسية التي كانت تتعرض لها بعض القبائل والجهات على يد "القواد" والعساكر الإسماعيلية. (تنفيذ أوامر السخرة). والتستاوتي كرجل صوفي له مكانته، حاول الدفاع بقوته الروحية على من في حمى أولياء الله (والعجب منك ثم العجب، كيف تجاسرت على الشيخ أبي بعزى، وكيف مددت يدك لحرم الشيخ ابن مبارك، ومن أين لك هضم جانب الغوث سيدي محمد الشرقي...). وباختصار فالرسالة تعكس جانبا من الفتن والاضطرابات التي كان تتعرض لها جهات ساخنة مع بدايات العهد الإسماعيلي.

المرسل	المرسل	الرسالة	موضوعها	العدد	ملاحظات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

	إليه	في النزهة		الترتيبي	
" "	دون مخاطب معلوم	١، و٥٩، ص ١١٦	حول فساد الوقت واضطراب القيم	١	يسجل التستاوتي في هذه الرسالة حالته الاجتماعية في إطار العلاقة التي تربطه ببعض الإخوان في مكناسة الزيتون ١١٠٩ بعد أن أجبر على الإقامة فيها بعد خروجه من حبس فاس. وبالرغم من عدم الإفصاح عن هوية المرسل غليهم، إلا أن عبارة (فتنبهوا، رحمكم الله أيها الإخوان) ترسم الاتجاه في الخطاب، وفي الشق الثاني من الرسالة نقرأ (وقد كنا حيث استوطنا دار الإمارة بمكناس حرسها الله، تعاشرنا مع أناس في الله، ونصحناهم في الله، وشوقناهم لثوابه، وخوفناهم من عقابه...) والرسالة قد تناولناها بالعرض والتحليل في موضعين من هذا البحث.

١- إلى الأولاد والأهل والأقارب والعشائر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	١، و٤٧، ص ٩٢ ١، و٤٨، ص ٩٣	صوفية	١	جاءت الرسالة، بعد رسالته الطويلة إلى الهستوكي، وقد كتبت هذه عام ١١١٢، وعن موضوع رسالته إلى ولده، فإنها تدور حول الفلك الصوفي، واعتدال الشمس في أبراجها. وذلك كناية عن اعتدال شمس الحقيقة والشريعة في الفلك الصوفي. وقد وردت أبيات حول الموضوع من الولد إلى والده، فجاءت رسالته (التستاوتي) كشرح صوفي ينحو المنحى الرمزي في التعبير.
" "	" "	١، و٥٤، ص ١٠٥	ذاتية صوفية	٢	والرسالة جواب عن الخبر الشماع والنعي الكاذب "ومن أولى مني بالموت اشتياقا، والفوت احتراقا وأنا اضعف الناس، وأبعدهم عن الكاس". ويغلب عل أسلوب السجع دون تكلف بين. كما أن الرسالة تلتقي في موضوعها برسالة مماثلة (١، و٥٣، ص١٠٣).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	١، و٥٤، ص ١٠٥	في النصح والتوجيه	٣	والرسالة عبارة عن مراجعة من الوالد في شان ابيات أربعة بعثها غليه ولده وقد استهل التستاوتي رسالته بـ ١٣ ب وختمها بـ ٧ أبيات. بعد هذا التوجيه "ومن جملة حقك علي هذه النصيحة... وتأدب بآداب الشرع".
" "	" "	١، و٥٤، ص ١٠٦	في النصح والتوجيه –رسالة شعرية–	٤	رسالة من ١٢ بيتا، وإن المعاني فيها تجمع بين النصح وبين النزوح التصوفي.
" "	" "	١، و٥٥، ص ١٠٧	رسالة شعرية في الشوق والفراق	٥	من ٦ أبيات، يتشوق فيها إلى ولده (ولقد بلغنا في التشوق مبلغ).
" "	" "	١، و٥٥، ص ١٠٧	في النصح والتوجيه	٦	من ٧ أبيات، استهل بها رسالته القصيرة، وختمها بقوله "فخذها من حكيم مجهول، والله أرجو لنا ولك الوصول".

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	١، و٥٥، ص ١٠٧	في التصوف (الحقيقة والشريعة)	٧	هذه الرسالة صوفية بدء وانتهاء، وفيها يبسط التستاوتي الكلام عن الحقيقة الصوفية "والمتكلمون ثلاثة – من يستقي من أنهار العلم – من يستقي من سواقي الخواطر – ومنهم من تكلم عن شهود عيان ويظهر أن الرسالة جاءت جوابا عن أمور وردت غليه من ولده "ومما أجبته عن أمور ذكرها".
" "	" "	١، و٥٦، ص ١٠٩	صوفية رمزية	٨	يغلب عليها التعبير بالإشارة، ومن عبارة الرسالة "رزقكم الله شواء الشوق من غنم الذوق"
" "	" "	" " "	توجيهية	٩	يحضه فيها على طلب العلم "ولا يصدنك عنه الفقر والفاقة".
" "	" "	" " "	توجيهية اجتماعية	١٠	ويستفاد من الرسالة أنها صادرة عن المرسل أيام كان سجينا، وفيها يصبر ولده على حالته التي هو عليها من عوز واحتياج "ولسنا بأقيال ولا أبناء أقيال، وإنما أنت ابن مسكين..." وعن أسلوب الرسالة فالبساطة هي الغالبة عليه.
" "	" "	" " "	توجيهية تربوية	١١	"واشتغل بأسبابك وبطلب العلم واطلب العلم " هكذا يخاطب التستاوتي ولده. ومما يميز الرسالة أسلوبها البيان رغم ما فيه من تكلف مقبول.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	" " "	رسالة شعرية صوفية	١٢	كمراجعة منه لأبيات ولده إبراهيم اثر زيارته لمقام ابن امشيش. "فأجبته، وغن عن صناعة التركيب والعروض مقلته...". وهذه العبارة توحي بالمفاضلة بين المراجعة والمطارحة.
" "	" "	١، و٦٤، ص ١١٩	في النصح الصوفي	١٣	رسالة قصيرة، تلتزم العبارة القصيرة الموحية. وفيها يظهر التستاوتي حق الأبوة على البنوة.
" "	" "	" " "	في شكر النعمة	١٤	والنعمة في الرسالة لها معنى الحس ومعنى الروح.
" "	" "	١، و٦١، ص ١٢٠	ذاتية	١٥	في الرسالة عبارة صريحة، بأنها صادرة من السجن " والشيخ علي خرج من السجن، وما زال به أحمد بن ابي زيان...". ويختم التستاوتي رسالته، بهذه الجملة "فاتق الله يابني"، ٣ مرات.
" "	" "	" " "	حول رؤية الله	١٦	كجواب من الوالد على استفسار في الموضوع، والرسالة قصيرة.
" "	" "	" " "	في النصح والتربية	١٧	ويشتم من اسلوب الرسالة ما يراد بالعتاب والمسامحة في آن "وقد سمحت لك والسلام...". وبها تختم الرسالة.
" "	" "	١، و٦٥، ص ١٢٧	ذاتية	١٨	وهي قصيرة وعباراتها دالة على الحالة التي هو عليها : "فادفع عنا يا ربنا ما علمته من حيث علمته".

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	١، و٧٢، ص ١٤٢	في التربية الصوفية ومعالجة أدواء النفس	١٩	وفيها يشرح التستاوتي لولده ما يربط الإنسان بالله في إطار العلاقة التي تحددها (الطاعة والمعصية، والنعمة والبلية). والرسالة تتمثل بتأثر بين رسالة اليوسي(النصيحة الغياثية). انظر الرسائل (٣١٩/٢).
" "	" "	١، و٨٥، ص ١٦٧	في النصح والتوجيه	٢٠	وفيها يبارك لولده إبراهيم ما هو مقدم عليه من الرحيل والسفر. وعبارة الرسالة صوفية المشرب.
" "	" "	١، و١٩٦، ص ٣٨٩	صوفية	٢١	وتتخلل الرسالة أبيات من الشعر، ومعان الرسالة تدور حول الرضى والطاعة، والقضا... كما أنها توحي مبا كان يسود العلاقة بين التستاوتي وأولاده الشيخ ابن ناصر وأسلوبها بياني مسجوع.
" "	" "	١، و٦١، ص ١١٩	ذاتية (حبسية)	١	يتبين من الرسالة أنها صادرة من حبس فاس الجديد، ولعلها قريبة العهد من وقت دخول الرجل إلى غياهب السجن. وبالرغم من موضوع الرسالة وذاتيتها فإن التستاوتي يقدم بين يدي ولده مجموعة من النصائح والتوجيهات. خاصة وأنه الوكيل عنه على الدار وأهل الدار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	١، و٦٣، ص ١٢٤	توجيهية تربوية	٢	صدرها بـ٧ أبيات، في النصح والتوجيه. ولعلها من الرسائل الأولى الموجهة إلى الولد الطالب للعلم في مدينة فاس. وفيها يستوصيه بعدم الخلطة واتقاء شر الناس. ويختمها ببيتين من الشعر في الوداع.
" "	" "	١، و٦٥، ص ١٢٧	ذاتية	٣	صدرها بخمسة أبيات في الوجد والحنين والأنين، وفي الرسالة يخبر ولده بأنه تعاوده الداء القديم، وفي الختام تنتهي الرسالة لقصيرة بـ ٤ أبيات التزم في قوافيها لفظ العين لزوما وتجنيسا.
" "	" "	١، و٦٥، ص ١٢٧	صوفية وجدانية	٤	استهلها بأبيات أربعة، في الليل وطوله، وما يلاقيه المحبون فيه. كما أنه خللها بأبيات أخرى لغيره، وفي الرسالة تأكيد على أن المحبة لا تكون إلا بالإخلاص، وأن العلم بدون عمل لا قيمة له. ويطلب التستاوتي من ولده أن يقرأ أبياته بمحضر أخيه وولده وصهره. وقد ختمها ببيتين من شعره، في السهر والوجد، وما لاقاه مما هم عنه مبعدون.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	١، و٥٢، ص ١٠١	ذاتية حبسية	١	من رسائله الغضبة، ولعلها من مكاتباته بعد سجنه بفاس، وتعكس رسالة الرجل نفسيته القلقة الحادة، وأسلوبها ينبض بالتوجس والحيرة والاكتئاب. وفي آخر الرسالة : "فقد ضاق صدري، وما وجدت غيرك رحيم يرحمني، فارحم غربتي، فإنك أرحم الراحمين..."
" "	" "	١، و٥٣، ص ١٠٣	ذاتية تأملية في الموت	٢	طرافة الرسالة، في موضوعها، حيث أن التستاوتي، طواه النعي الكاذب إلى أهله، فكان ما كان من بكاء وبكاء، ولم يفت التستاوتي أن يقدم لأهله درسا صوفيا في موضوع الموت، انطلاقا من ذاتيته وصوفيته (انظر رسالته إلى الولد إبراهيم) (النزهة ١، و٥٤، ص ١٠٥).
" "	" "	١، و٥٧، ص ١١٤	وجدانية صوفية حبسية	٣	في صدر الرسالة : "وما كتبته ونحن بفاس". أن الرجل يفسر محنته الحالة به من منطلق الذات الصوفية : "وحب أدبنا رفقا بنا لشمأزت نفوسنا، واستعجلنا الإجابة". وفي الرسالة عبارة لها دلالتها في هذا المجال المتأزم : "تلاشت الأعمال والوسائط، ولم يبق سوى الله، وما سواه ساقط...".

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إبراهيم ولده	١، و٥٩، ص ١١٥	" "	٤	في صدر الرسالة، يظهر بأن الخط هو للجماعة، ولكن داخلها، يتوجه التستاوتي بالخطاب إلى ولد له "يا بني، أن غاية ما أطلبه صرف أذي الناس عني، والعفو من الله والموت على حسن الخاتمة..." ومما يسربل على الذاتية المسحة الصوفية، هو الاعتقاد بأن أهل الله يتصرفون في الخلائق.
" "	الإخوان والأولاد والأقارب	١، و٦٢، ص ١٢٢	ذاتية موجهة	٥	الجو العام الذي يطبع الرسالة هو أن التستاوتي مبعد عن الأهل وأن انقطاع التواصل والصلة بين لمرسل والمرسل إليهم، أحدث في النفس موجة من الغضب الشديد، والتوجيه في الرسالة يبدو من الحض على الصبر، والحلم والعفو، والحلم والعتاب فيها بين الغايات.
" "	إلى إخوته وأولاده	١، و٦٤، ص ١٢٥	ذاتية صوفية	٦	هي رسالة جوابية، يغلب عليها الأسلوب الإشاري المزخم بالبلاغة الصوفية، مع التزام بالسجع.
" "	للأولاد ومن سواهم من أهل الوداد	١، و٧٨، ص ١٥٣	ذاتية غاضبة (حبسية)	٧	تسجل قطيعة بين الطرفين، صدرها بأبيات في الموضوع، ويختمها بجملة دالة على الحالة الكئيبة التي يعيشها في ظلال القطيعة : "فبالله إن كنتم كما يتوهم الخاطر، فنفسوا عن الحائر"

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	إلى (أصلي وفصلي وملكي وأهلي..)	١، و٧٨، ص ١٥٣	ذاتية غاضبة اجتماعية	٨	رغم الغموض الذي يلف الرسالة، فإن ثورة التستاوتي نابعة من شيء لم يرضه قد حصل بين المخاطبين ولعل الرسالة تعكس المناخ المضطرب والفتنة الدائرة في صفوة عشيرته.
" "	(إلى فصيلتي وذوي صلتي)	١، و٧٢، ص ١٤٢	ذاتية صوفية	٩	من الرسائل الضاربة في الرمزية الصوفية، ومن ثم فالخيط الذي يمسك بتلابيب الموضوع مغيب.
" "	إلى (أزواجه وبناته ونسائه)	١، و١٨٤، ص ٣٦٥	تعليمية تربوية دينية	١٠	إن تاريخ الرسالة، يتماش وموضوع الرسالة، حيث أن التستاوتي كان حديث العهد بالسجن، فأراد أن يوصي الأسرة الكبيرة بما يلزم من النصح والتوجيه والإرشاد وهو مغيب عنهم. ومن أفكارها الدينية الحديث عن قواعد الإسلام وحقوق الزوج، وهي طويلة.
" "	محمد الحاج شقيقه	١، و٥٣، ص ١٠٢	ذاتية اجتماعية	١	هي كجواب على ما يتطلع إليه شقيقه والأهل والأولاد، عن المرأة (الزهرة) التي تزوجها. والحديث عن هذه الزهرة في رسالة أخرى ١، و ١٩٦، ص ٣٨٩، بتاريخ ١١١٠، أما هذه فعارية من التوقيت الزمني. والجانب الذاتي في الرسالة، إضافة إلى قصة الزهرة، هو الشعور بالحيرة الناتجة عن الترحيل والاستقرار، وكأن الزواج الجديد تنفيس : (وللأرواح ارتياح للأرواح...).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
أحمد التستاوتي	محمد الحاج شقيقه	١، و٥٩، ص ١٥٠	اجتماعية عائلية	٢	يستوصي فيها شقيقه خيرا بالأولاد والحالة أن التستاوتي غائب أو مبعد أيام الترحيل والتهجير.
" "	" "	١، و٧٦، ص ١٥٠	توجيهية دينية	٣	إن تاريخ الرسالة ١٠٨٨ يؤرخ للسنة التي حج فيها شقيقه. وهي في شكل وصية قدمها بين يدي الحاج، وفي الرسالة إشارة إلى اليوسي.
" "	الأخوين محمد الحاج والعياشي	١، و٧٦، ص ١٥٠	تعليمية توجيهية	٤	تندرج في باب النصح والتوجيه والتعليم، وفيها يصحح لشقيقه العياشي بعض العبارات التي وردت في إحدى رسائله، من جانب البلاغة والبيان.
" "	إلى عم يعفور وأبيه	١، و٧٢، ص ١٤٢	ذاتية صوفية	٥	في الدواخل أشياء لم تستطع العبارة كشفها لما فيها.
" "	أولاد الشيخ محمد بن مبارك	١، و٣٠، ص ٥٨	في النصح	١	إن التستاوتي في الرسالة يخاطب جماعة سماهم بأسمائهم، وكلهم من آل مبارك. ويعود تاريخ الرسالة إلى عام ١٠٨٧، وفيه يشيد بابن ناصر الرعي وما ناله من خير على يديه، وقد كان كما كان (وما تركت شيئا من المعاصي إلا فعلته، فألهمني الله لصحبة رجل... ذلكم هو القطب العارف بالله سيدي محمد بن ناصر...)

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	موضوعها	ع ت	ملاحظات
(تابع)					وبعد ذلك يعود الخطاب في الرسالة على حبل المناصحة (فالله الله، ألم يان لكم أن تتوبوا إلى الله تعالى من الوقوع في عرض صاحبكم ولا عليم عليكم سواء كان صديقا أو زنديقا). والمحور الآخر المكمل، هو موضوع تغيير المنكر وشروطه.
" "	" "	١، و٥٨، ص ١١٣	في النصح والعدول عن التناحر الاجتماعي	٢	(فقد سرنا ما وقع لكم من الاجتماع والرجوع إلى الحق...) هذه عبارة دالة على موضوع الرسالة، والحالة – كما قلنا في باب الدراسة – أن آل مبارك كانوا لا يفتأون يتناحرون كما دلت على ذلك تقييدات التستاوتي التي حفلت بها نسخة النزهة من الخزانة الملكية رقم ٣٠٧٠. ثم إن بعض المؤشرات في الرسالة توحي بأن آل مبارك تقدموا بطلب العفو من الجانب المولوي كما بلفظ رسالة، مما يوحي أيضا بأن الخلفية الاجتماعية والسياسية لا يمكن إلغاؤهما من حسبان السياق. والتستاوتي، انطلاقا من نصوص أخرى شعرية يسجل بأنه كان على غير وفاق مع العشيرة المباركين (ولهذا أستاذ المقام بين أظهركم، وينشرح الصدر بمجاورتكم، وعدم هذا هو الموجب الانتقالي من ساحتكم...) عن تاريخ الرسالة، فهو من رسالة سابقة رقم ١ والذي يوافق ١٠٨٧.

المرسل	المرسل	الرسالة في	موضوعها	ع	ملاحظات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

	إليه	النزهة		ت	
" "	أولاد الشيخ محمد الشرقي	١، و٥٨، ص ١١٣	حول الوضع الاجتماعي والسياسي	١	استهل التستاوتي رسالته بأبيات أربعة، وبالرغم من أسلوبها المسجوع، وجملها القصار، فإنها لا تخفي ما (وقع من البغي والفساد في هذه البلاد، مما يوجب الانتقام ويهدم سور التوقير والاحترم...).
" "	أولاد الشيخ بن علال العمري	١، و١٩٦، ص ٣٨٩	اجتماعي شخصي	١	تاريخ الرسالة هو ١١١٠، والتستاوتي قد تجاوز الستين، أما عن موضوع الرسالة، فإنه يكشف الجانب البشري للرجل، باعتباره صوفيا يحب المرأة والجمال. فقد تزوج من عشيرة المخاطبين، بنتا في عمر الربيع، هي الزهرة إلا أن الفتاة لم تعش مع التستاوتي إلا لحظات أو أياما (ثم إني والله لا أدري أمن سكري بلحاظها أوقت نفسي في البعد عن حياضها... وعلى كل حال، فقد نزلت بنا مصيبة، وأصبحت النفس بذلك كئيبة)، بهذا الأسلوب العاري، والذي يكشف عن الصدق الذاتي، خاطب التستاوتي أولاد الشيخ يحيى بن علال العمري، وقد كان يأمل أن تدوم المصاهرة مع قوم لهم جاه ولهم نفوذ. (انظر الجانب الذاتي في رسائل التستاوتي من هذا البحث) ثم إن آثار هذه النكسة العائلية ترددت في النزهة في غير هذا الباب، فقد قال فيها شعرا ينبض بصدق التجربة وبحرارة الوجدان.

٥- أهل العدوتين في رسائل التستاوتي

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
التستاوتي	موسى الراحل الدغمي	١، و١٨٩، ص ٣٧٦	١	في علاقة الأشياخ بمريديهم (ومن حقنا نحن عليكم محبتنا لله محبة مخلصة من الشوائب.... ونعوذ بالله من زمان ترى الآلاف من الناس يتبعون الأشياخ ولا تلقح أشجارهم، ولا تتفتح أنوارهم، ولا تشرق أنوارهم، ولا تطلع في سماء الصفاء أقمارهم...). والرسالة قصيرة، مسجوعة ومرسلة. وتاريخها (١١٢٢ هـ).
" "	" "	١، و١٩٧، ص ٣٩١	٤	موضوع الرسالة، طهارة القلب، ختمها بأبيات أربعة ذات المشرب الصوفي : سلوني، سلوني، واسلوا عن سؤالنا فإن سؤالي عن سؤال عجيب فما نحن إلا كالأواني مظاهر لما حل فيها والشراب غريب والأبيات كتبت بمحول الكتاب * بدون تاريخ *
" "	" "	١، و١٩٧، ص ٣٩١	٥	رسالة مخللة بأبيات شعرية، في المستهل والختام، وفيها ذكر وتصريح بالمخاطب، الدغمي. ولا سيما ممن له القلب مسكين كموسى ويشكو من صروف ومرها والتستاوي، يشهد الله على نفسه بمحبة الدغمي (اللهم إنا نحب عبدك موسى ونلتمس أن تحبه). وتأكيدا لقيمة الرسالة ومضمونها، في إطار العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، كتب التستاوتي بمحول الكتاب مجزوءة طريفة : هذا كتاب مليح وفيه أمر صحيح .....إلخ

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(تابع)	" "	١، و١٩٧، ص ٣٩٢	٦	يبارك له إقامته في مدينة الرباط (وبعد، فقد ذكر لي ابن أخيك أنك استوطنت الرباط.... فإن إقامك في التجريد، فهو العالم بمصالحك، وما يصلح بك في حالك ومالك..) ويختم رسالته، بالدعاء لإخوانه (إن ترك لنا الزمان إخوان....).
" "	موسى الراحل الدغمي	١، و١٩٧، ص ٣٩٢	٧	(هون عليك الأمر، أيها الأخ الأغر) هكذا افتتح رسالته القصيرة، التي يرسم له فيها بريشة التدبير مواقع الجلال ومواطن الجمال في واقع الصوفي (والأمر إما تمحيص، أو تخصيص) والحالتان معا (أفضل من ملك العراق).
" "	" "	١، و٢٠٣، ص ٤٠٤	٨	هي الرسالة الأخيرة من التستاوتي، في اليوم الثاني من المحرم (١١٢٧ هـ) إجابة عن الرسالة التي أرسلها موسى الراحل (متم عام ١١٢٦هـ) والرسالتان معا مراجعة بينهما على قافية الدال (قصيدة الدغمي ٢١ بيت، أما دالية التستاوتي فدون العشرين (١٧ بيت)).
" "	محمد الصبيحي	١، و١٨٧، ص ٣٧٢	١	وفي موضوع الذكر الصوفي، ومراتبه (الذكر الظاهر، والذكر الخفي، والذكر الحقيقي....).
" "	محمد بن محمد مرينو (القاضي)	١، و١٨٨، ص ٣٧٣	١	رسالة في موضوع النزاع الذي يحصل بين الفرق الطرقية والتستاوتي، فيه هذه الرسالة، يبدي غاية التسانخ الصوفي إذا لو كان العقل حاضرا، لما بنيت زوايا في البلد الواحد (لو سلمت عقولهم من الأمراض، ما

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
(تابع)				بنت في مدينة واحدة كل طائفة منهم زاوية لثم الأعراض، وقد اختلفت المذاهب، وكل طائفة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

				تقدم أمامها منها، ويجتمعون في المسجد الحرام، ولو صلى الحنفي بالمالكي، والمالكي بالشافعي ما في ذلك بأس). ويختم التستاوتي رسالته، المؤرخة عام ١١٢٠ هـ بقصيدة، قدمها بهذه الجمل الموحية بالمرارة والأسى من الشيخ الصوفي الكبير (فكتب، كأني ما كتبت، وصرحت ولوحت، وكفكفت دمعي، وأنشدت، وفصلت وما أجملت، على الله في ذلك توكلت...) والقصيدة من ذوات العشرين بيتا فأكثر (٢٤) تتهم رجلا اسمه خالد، ولعله صاحب الفتنة الملوح إليها في هذه الرسالة : أغركم ما قاله خالد لكم فلم تثبتوا حتى أتيتم مناهيا وفي الختام عبارة (لا نكره أن نسمع لكل طائفة والسلام).
" "	أحمد علي المراكشي ومحمد الدقاق	١، و١٨٩، ص ٣٧٦	١	في موضوع (الرجل) الذي أخذ عن الشيخ التستاوتي ثم بدأ يتقول فيه، فراجع نفسه وتاب مدعيا المحبة والإنابة. (وقد بلنا ما بلغنا من رجل هنالكم... لكنه لما اشرف على الوصول، ظن أن منتهى الأمر ما هو عليه، فتنسم من نسمات الإعجاب ما صيره خلف الحجاب...). وقد يكون الرجل هو خالد المشار إليه في الرسالة التي خص بها القاضي مرينو في

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
(تابع)				الموضوع أعلاه، إلا أن التستاوتي في هذه الرسالة التي خاطب بها (الصفي الوفي أبو العباس أحمد بن على المراكشي، والزكى النقى،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

				الطيب الأخلاق، السيد محمد الدقاق) يعاتب (السيد مرينو وهو يسمع من الشهود) أن التستاوتي (مظلوم) فتعامى ولم **يوافق غضبه غضب سيده.**
" "	الحاج المفضل	١، و١٩٣، ص ٣٨٣	١	رسالة فريدة في موضوع السماع وملحوناته، راسل بها المخاطب سنة ١١١٢، (وبعد، أيها الأخ المشفق على نفسه، فلا أحسن ما يجد الإنسان بركته في رمسه، واعلم أن السماع أحبولة تقتنص فيها الأرواح، وترقص في أقفاصها الأشباح، والناس في ذلك مختلفون، قد علم كل أناس مشربهم، فمن خلص من الدهش،ورق له المحبوب وهش، نطق بالثناء الجميل، في حضرة التبجيل... قائلا). بهذه الاستهلالة السجعية، يزاوج التستاوتي موضوع السماع بالملحونات والفصيح، جاعلا واسطة العقد القصار من الجمل الشطحات (وإن قلت هذا الملحون، فأين الموزون وجوهره المكنون، فدونك قصيدة سهلة المرام، ومع ذلك تشير إلى مائة مقام) في ٥٠ بيتا، استعرض فيها التستاوتي مقامات أهل التصوف. والرسالة طويلة في ثلاث ورقات من مخطوطة النزهة ويبقى السؤال، من هو المفضل المقصود بالخطاب في موضوع السماع،

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
				وملحوناته وفصيحه والتستاوتي لم يتناول الموضوع على طريقة القوم في كتبهم بالدرس والتقرير، بل تناول الموضوع تناولا شاعريا يغلب عليه الشطح والخيال والاستذكار.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

" "	أبي زيد عبد الرحمن الحصيني	١، و٢٠٢، ص ٤٠٢	١	صفوية الموضوع في رسم الطريق إلى الله.
" "	إلى أهل سلا	١، و١٨٧، ص ٣٧٢	١	جوابا على رسالتهم، حول تأسيس رباط للفقراء (اللهم اجعله حرما من حرماتك، وموطنا لنزول بركاتك...). وتاريخ الرسالة ١١١٩.
" "	إلى الإخوان	١، و١٨٩، ص ٣٧٥	٢	في موضوع واقعة فلان (ولقد خشيت من وقعة فلان أن ينتشر شرها في الأخوان.... وقد أشفقنا كل الإشفاق شرها من هذا الشقاق...) وتاريخها ١١٢٠.
" "	إلى فقراء سلا	١، و١٩٠، ص ٣٧٧	٣	تاريخها ١١١٨، في موضوع التجلد والتصبر (وهل بلغكم إخراج ابن المسيب وجلده من الجامع النبوي، وقتل عثمان بداره وقتل الحسين وسم الحسن، وتطويف مالك، وفتنة أحمد بن حنبل... وهم مع ذلك كالجبال الرواسي....) ويختم التستاوتي رسالته بقوله (وتأملوا في هذا الكتاب). ولعل الرسالة تسجل حادثا مروعا حل بسلا، بأهلها أو بالأتباع من اصحاب التستاوي (هذه رسالة إلى إخواننا الكائنين بسلا حرسها الله وحماها، من طوارق الفتن ما ظهر منها وما بطن، ودفع عنها بفضله، ما غشيها من مدلهمات المحن). وما في الرسالة هذه، ستبينه الأبيات من الرسالة التالية :

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
(تابع)	إلى كل أخت في الفقراء والطلبة	١، و١٩١، ص ٣٧٨	٤	أتانا حديث من سلا أن أهله أصابهم خطب وناهيك من خطب هي أبيات سبعة صدرت بها الرسالة القصيرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

				(وقد بلغنا عنكم ما بلغنا... فثبتوا ولا تفرقوا ولتكن كلمتكم واحدة...) ١١٢٠.
" "	بيد إخواننا أصلحهم الله	١، و ١٩٠، ص ٣٧٨	٥	يطمئن إخوانه السلويين، بأن ما أصابهم هو اختبار من الله ورحمة منه في آن واحد (أما بعد، فإن الله خلق الشر والخير والمصائب والمطائب، وجعل في كل ذلك رحمة وألطافا خفية... ونعمة وأوصافا سنية... وبالجملة، فإما تمحيص أو تحميص... وقد جاءتني من إخوانه كتب معناها واحد). والموضوع الواحد في الرسائل التي يشير إليها التستاوتي مرتبط بالذي أصابهم، لكن السؤال ماذا أصابهم ؟ والتاريخ واحد ١١٢٠.
" "	أهل المودة من سلا	١، و ١٩١ ص ٣٧٩	٦	والرسالة مصدرة بـ ١٠ أبيات ضمنها إشارات سياسية ذكر السلطان والوشاية به، وكذا ما أجاب به رباط للفقراء، إذ لا تقرأ الوظيفة إلا في الزاوية. وبخصوص الطريقة المنصوص عليها لفظا، في الرسالة لا بد من طرح السؤال : هل هي الطريقة الصوفية على لفظ العموم، أم هي الطريقة الناصرية على لفظ الخصوص ؟ أم أن هناك طريقة أخرى تبناها التستاوتي ثم أصلها ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
(تابع)	إلى إخواننا كافة في الرباط وسلا	١، و٢٠٤، ص ٤٠٦	١٧	لعلها آخر رسالة، من النزهة، تصل إلى أهل سلا والرباط من الشيخ التستاوتي، وهو يناهز الثمانين، فتاريخ الرسالة هو محرم، فاتح عام ١١٢٧، وهي السنة التي توفي فيها التستاوتي على الأرجح، إذ ليس في النزهة تاريخ يتجاوز العام ٢٧ مما ينفي أن تكون وفاته عام ١١٢٨. وهذا الكتاب أراده التستاوتي أن يصل بيد السيد محمد مرينو وجميع الإخوان كالسيد الدغمي، وابن عاشر، على أن يبعثوا نسخة منه إلى مرسله بعد الانتساخ قصد الانتفاع منه. وموضوع الرسالة ارتباط بعلاقة المريد بشيخه في إطار المعاملة الصوفية، على غرار أبي العباس السبتي.
	ومن رباط الفتح			السلطان بعد أن تأكد له كطب الوشاية. لعلكم أسمعتم خبرا أتى إلينا من السلطان من أجل بدعة وقد بعث السلطان مسطوره لنا بتهنئة منه لنا دون مرية بعد الأبيات المذكورة، تبتدئ الرسالة القصيرة بهذا الدعاء (اللهم احفظ العدوتين من الفتن المترادفة والمحن). ومضمون الرسالة هو توضيح ما في الأبيات السالفة. وتاريخها ١١٢١.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
(تابع)	إلى فقراء الرباط وسلا المحروسين	١، و١٩١، ص ٣٧٩	٧	رسالة قصيرة تنحو منحى السجع القصير (وبعد، فقد شطت الدار، وانقطعت الأخبار...) مع تلويحات رمزية صوفية.
" "	" "	١، و١٩١، ص ٣٨٠	٨	مؤرخة بأواسط صفر ١١٢١. وهي مثلها قصيرة، كتبت في أواخر صفر من نفس السنة ١١٢١، ولا موضوع لها معين، إلا أنه يوصيهم بأن يتأدبوا بآداب الرحمن. سلام على الأحباب في كل مسلك خصوصا بأرض الفتح أو جارها سلا ... أبيات ثلاثة صدر بها رسالته القصيرة الموجهة على كافة الإخوان الفقراء من العدوتين (المحروستين بفضل الله من ظالم يترامى عليها...). ويفتتح التستاوتي رسالته (وبعد، فقد بلغنا أنه طرق سمعكم ما طرق، وببعضه كما بلغكم، وعفو الله أوسع، ونحن لسنا من أولئك الذي تنزل عليهم البلايا، ويرون ذلك كالعطايا، فإن ذلك من منازل المحبين...) والرسالة مؤرخة بأواسط رجب ١١٢١.
" "	إلى كافة فقراء سلا رجلا رجلا وامرأة امرأة	١، و١٩٢، ص ٣٨١	١١	(فالله الله، فيما تقلدتموه من سلاسل الصالحين يشير في الرسالة القصيرة أنه بعث إلى (سيدي موحى الراحل الدغمي كتابه الكبريت الأحمر جعله الله كبريتا أحمرا هو في ذاته....).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
(تابع)	إلى إخواننا الكائنين بسلا ومن حل رباط الفتح	١، و١٩٢، ص ٣٨١	١٢	استهلها بأبيات ثلاثة، في سلا وأحبائه فيها : لنا إخوة فيها أحن إليهم وأسأل عنهم والسؤال بهم حلا بعدها، يستصبرهم على مض العيش، مع الإشارة إلى أنه (كتب للسيد ابن عاشر في كذا مع السيد موسى، وما رأيت جوابا...)
" "	إلى كافة أهل سلا وخصوصا طلبة العلم	١، و١٩٢، ص ٣٨٢	١٣	أهل سلا ما عشت لم أسل ودكم فكونوا كما شئتم من الفر والكر من الأبيات الثلاثة التي استهل بها الرسالة المتداخلة المعاني والأفكار، في أسلوب لا يطرد نمط واحد، فالسجع أحيانا والمترسل أحيانا وبينهما آيات قرآنية وأحكام فقهية لا رابط بينها إلى في خواطر التستاوتي الصوفية (من سها في البعدي، وطال استأنف الصلاة، وللقلم تفتقر الدواة، والدواء الحار وأن أضر، فعاقبته الشفا....) على هذا المنحى تنتثر أفكار الرسالة المؤرخة بأواسط المحرم ١١٢٣.
" "	إلى كافة أهل العدوتين	١، و١٩٣، ص ٣٨٣	١٤	رسالة قصيرة في سطور ثلاثة، مؤرخة برجب ١١٢٣ وفيها يبارك الجميع، ويقضي لكل طالب مطلوبه وأنه (في حالة تسر الصديق وتأسو العدو) والسلام.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
(تابع)	إلى الإخوان	١، و١٩٣، ص ٣٨٣	١٥	لا ذكر في الرسالة للفظ سلا أو رباط الفتح، إلا أن لفظ (النسبة) في هذا التعبير (ممن له أدنى نسبة) يقطع بأن الإخوان المخاطبين من سلا أو رباط الفتح. وموضوع الرسالة علاقة المريد بالدنيا والآخرة، وكيف يجب أن ينظر إلى تلك، وإلى هذه بعين الميزان والقسطاس المستقيم. وكتبت بتاريخ ١١٢٣.
" "	إلى أهل العدوتين	١، و١٩٥، ص ٣٨٧	١٦	في الوظيفة وقرائتها، وما فيها من الأسرار الربانية والفتوحات الرحمانية. وفي الرسالة تأكيد بأن والديه الأرواح أحق من والدي الأشباح، كما عند أرباب القلوب. وفي الختام يدعو لهم بأن يجعلهم الله من (أهل هذه الطريقة، التي رسمنها، ولم يبق إلا اسما). والرسالة لا تحمل تاريخا معينا، ولعلها لاحقة على رسالة كان قد بعث بها أهل سلا حول تأسيس. وبخصوص الطريقة المنصوص عليها لفظا، في الرسالة لا بد من طرح السؤال : هل هي الطريقة الصوفية على لفظ العموم، أم هي الطريقة الناصرية على لفظ الخصوص ؟ أم أن هناك طريقة أخرى تبناها التستاوتي ثم أصلها ؟.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المرسل	المرسل إليه	الرسالة في النزهة	ع.ت	ملاحظات
التستاوتي	إلى إخواننا كافة في الرباط وسلا	١/و٢٠٤ ص ٤٠٦	١٧	لعلها آخر رسالة، من النزهة، تصل إلى أهل سلا والرباط من الشيخ التستاوتي، وهو يناهز الثمانين، فتاريخ الرسالة هو محرم، فاتح عام ١١٢٧، وهي السنة التي توفي فيها التستاوتي على الأرجح، إذ ليس في النزهة تاريخ يتجاوز العام ٢٧ مما ينفي أن تكون وفاته عام ١١٢٨. وهذا الكتاب أراده التستاوتي أن يصل بيد السيد محمد مرينو وجميع الإخوان كالسيد الدغمي، وابن عاشر، على أن يبعثوا نسخة منه إلى مرسله بعد الانتساخ قصد الانتفاع منه. وموضوع الرسالة ارتباط بعلاقة المريد بشيخه في إطار المعاملة الصوفية، على غرار أبي العباس السبعي.

This file was downloaded from QuranicThought.com